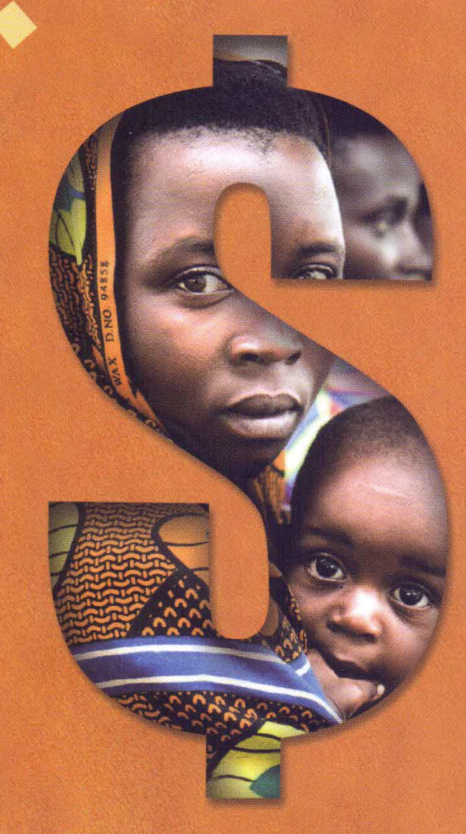
ديفيد باتستون





عودة
تجارة الرّقيق
العالمية
وكيفية
محاربتها

نقله إلى العربية

د. داود سليمان القرنة

العبيكان
obeikan

تدر تجارة الرقيق ٣٢ بليون دولار سنويًا، وتستعبد أكثر من ٣٠ مليون إنسان في العالم. في هذا الكتاب، يصور ديفيد باتستون حياة جيل جديد من مناهضي العبودية الذين يقودون حركة إلغاء الرق عالميًا.

هل أنت من مناهضي الرق؟

وقد جرى تحديث هذا التقرير العالمي المذهل بآخر النتائج، والأحداث الجديدة، والإحصائيات التي تبيّن الجهود الجارية حاليًا لاجتثاث هذا الوباء المخيف. وبيان كيفية الانضمام إلى الحركة كذلك.



هذا الكتاب أحزنني، ولكنه أحيا الأمل في نفسي أيضا. يحدثنا الكاتب كيف ينبري أفراد أفذاذ لمحاربة العبودية المعاصرة. لقد خلق الله الإنسان ليعيش حرًّا في أي مكان في العالم دون ظلم أو اضطهاد، وهو يدعونا إلى مواصلة تحرير الإنسان. وهذا الكتاب، يساعدنا على السير في هذا الطريق.

ديزموند توتو، أحد قادة حركة التحرير الوطني في جنوب أفريقية

«أخبر الناس الذين تعرفهم كلهم عن هذا الكتاب؛ لنعمل معًا على وأد العبودية»

جاك دورسي، أحد مؤسسي خدمة تويتر للتواصل الاجتماعي على الانترنت

تنبيه: يتناول هذا الكتاب مواضيع خاصة بالكبار.

ISBN:978-603-503-498-2





موضوع الكتاب:
علم اجتماع المعرفة

ليس للبيع

عودة تجارة الرَّقيق العالمية وكيفية محاربتها

ديفيد باتستون

نقله إلى العربية

د. داود سليمان القرنة



Original Title
NOT FOR SALE
The Return of the Global Slave Trade--and How We Can Fight It
Author: David Batstone

ISBN-10: 0061998834
ISBN-13: 978-0061998836

Published by HarperOne an imprint of HarperCollins Publishers,
10 East. 53rd Street, New York, NY 10022 (U.S.A.)

ح شركة العبيكان للتعليم، 1434هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

باتستون، ديفيد

ليس للبيع./ ديفيد باتستون؛ داود سليمان القرنة.- الرياض 1434هـ

272 ص؛ 14× 21 سم

ردمك: 2 - 498 - 503 - 603 - 978

1 - علم اجتماع المعرفة　　أ. القرنة، داود سليمان (مترجم)　　ب. العنوان

ديوي: 301,2　　رقم الإيداع: 1434/2503

الطبعة العربية الأولى 1436هـ - 2015م

الناشر Obeikan للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت
www.obeikanpublishing.com
متجر Obeikan على أبل
http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

قائمة المحتويات

مقدمة

اكتشاف العبودية في الجوار

عادة ما تزدهر عملية الاتّجار بالبشر في الخفاء. ويمكننا إغماض أعيننا عنها؛ لأنها تحدث لأناس آخرين في أماكن بعيدة. وباعتقادي أن هذه العملية تُعدّ جريمة تشمل كلّ بلد في هذا العالم، وفي ذلك الولايات المتحدة أيضاً.

هيلاري كلنتون، وزيرة الخارجية الأمريكية [1].

يوجد في هذا العالم اليوم[2] أكثر من ثلاثين مليون إنسان يُعاملون معاملة العبيد؛ حيث تُجبر الفتيات، والأولاد، والنساء، والرجال، من مختلف الأعمار على العمل في أكواخ النسيج في نيبال، وبيع أجسادهم في مواخير البغاء في روما، وتكسير الصخور في مقالع الحجارة في باكستان، وخوض معارك في غابات إفريقية، وخياطة الثياب في مصانع الملابس في كاليفورنيا.

وإذا تركت وسط أي مدينة كبرى في العالم، وذهبت إلى أماكن الاكتظاظ السكانيّ، والأمكنة الخلفية فيها، فمن المحتمل أن تجد التجارة بالبشر واسعة الانتشار هناك. بل وربما تكتشف أن العبودية تُمارس في جوار بيتك، وحتى في حديقتك الخلفية.

في منطقة جون سان فرانسيسكو، اعتدت أنا وزوجتي على تناول وجبة العشاء في مطعم هندي قريب من بيتنا، ولكننا لم نعرف أن من يطبخون عشاءنا ويقدمونه لنا، ويغسلون الصحون في مطعم باساند مدراس كانوا عبيداً.

ولم تُكتشف شبكة الاتّجار بالبشر في هذه المنطقة إلا بعد وقوع حادث مأساوي، وذلــك عندما عثرت فتاة على زميلتيها في السكن: شانتــي براتيباتي، التي تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، وشقيقتها لاليتا، خمسة عشر عاماً، مُغمى عليهما.

اتصلت الفتاة بمالك المطعم الذي يعملْن لديه، واسمه لاكير يدي بُندا، الذي يملك مطاعم عدة، وأكثر من ألف شقة سكنية في كارولينا الشمالية. وعندما وصل إلى المكان، تبين أن الإغماء كان بسبب استنشاق غاز ثاني أكسيد الكربون المنبعث من فتحة تهوية مغلقة. وبدلاً من نقل الفتاتين إلى المستشفى، لفّهما هو وأصدقاء له في سجادة، وألقوا بهما في شاحنة. وعندما حاول بُندا هو ومجموعته وضع الفتاة التي أبلغت عن الحادث في الشاحنة، قاومتهم بشدة ورفضت ركوبها. وللمصادفة، مرّت مارسيا بولي، وهي إحدى الساكنــات في العمارة، بجانب الشاحنة، وشاهدت رجالاً عــدة يحاولون إدخال السجــادة الملفوفة فيها، في حين كانت رِجْل إنسان تتدلى من أحد طرفيها. وعندما أبطأت المرأة من سرعة سيارتها لتتحقق مما يجري، أصيبت بالرعــب وهي ترى رجالاً يحاولون إجبار فتاة على ركــوب الشاحنة. قفزت بولي من سيارتها، وحاولت ردع الرجال عن فعلتهم، ولكن دون جدوى، فما كان منها إلا إيقاف إحــدى السيارات المــارة، والطلب إلى سائقها الاتصال برقــم شرطة النجدة 911، وإبلاغهــم عــن عملية اختطاف تجري هنا. بعدئذٍ، وصلــت سيارة الشرطة بسرعة، واعتقلت بُندا وأصدقاءه.

لــم تستعد شانتــي براتيباتي وعيها بتاتاً، وتوفيت في أحــد المشافي المحلية. وتبيّن من التحقيقات أن بُندا وأفراداً عدّة من عائلته استخدموا أُذون دخول مزوّرة، وهويات شخصية مزيّفة لتهريب مئات البالغين والأطفال من الهند إلى داخل الولايات المتحــدة. وفي حالات كثيرة، تمكن بُندا مــن الحصول على أذونات الدخول بدعوى أن من يطلبها لهم خبراء تقنيون مطلوبون لشركة برامج حاسوبية. وفي الحقيقة أن بُندا كان يستغلهم فــي مطاعمه وشركاته المتعددة: خدماً وطباخين وغسالين. لقد

كان يجبرهم على العمل ساعات طويلة، بأجور متدنية جداً، وكانوا يدفعون النقود التي يكسبونها لدفع إيجار الشقق التي يؤجرها لهم. وكان يهددهم بتسليمهم إلى السلطات بصفتهم مهاجرين غير شرعيين إذا ما حاولوا الهرب.

لم تكن قضية بُندا حالة شاذة ولا فريدة؛ فكما حدثت في المنطقة التي أعيش فيها، فإنها قد تحدث في منطقتك أيضاً، ولا سيّما إذا علمت أن هناك أكثر من مئة ألف شخص يعيشون حياة عبودية في الولايات المتحدة حاليّاً، ويجري تهريب نحو سبعة عشر ألف مهاجر غير شرعي عبر الحدود سنويّاً[3]. وقد أُحيل كثير من قضايا الاتّجار بالبشر إلى المحاكم الأمريكية في كثير من المدن، وفي كل ولاية من الولايات الأمريكية تقريباً.

ومثلما كان حال العبيد الذين نُقلوا إلى شواطئ أمريكا قبل مئتي عام، فإن عبيد اليوم محرومون من حرية التحكم في مصايرهم؛ فهم يُجبرون على أداء أعمال لمصلحة مَن يستعبدونهم. وإذا حاولوا الهروب من قيود سادتهم، فإنهم قد يتعرضون للأذى والانتقام هم وعائلاتهم.

وقد اتضح حجم أزمة الاتّجار بالبشر على مستوى العالم عندما تحدث الرئيس جورج بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر 2003، حيث قال: في كل عام، يُشترى ويُباع أو يُهرَّب ما بين ثمان مئة ألف إلى تسع مئة ألف إنسان عبر الحدود الدولية العالمية. وشدّد على أن جريمة الاتّجار بالبشر لأي سبب كان لا يجب أن تُعطى الفرصة للازدهار في عصرنا الحالي[4]. وأشار إلى أن هذه التجارة تستهدف النساء والأطفال الضعفاء، وتغذّي شبكة الجريمة المنظمة التي تهدد الأمن العالمي.

وفي الحقيقة أن الرئيس بوش لم يبالغ في وصف الأزمة التي وصلت إلى حدٍّ خطير منذ إلقاء خطابه عام 2003، ذلك أن عملية الاتّجار بالبشر تنافس حاليّاً تهريب المخدرات، وتجارة السلاح غير المشروعة ضمن الأنشطة الإجرامية في العالم.

وجـاء في تقرير لمنظمة العمل الدوليـة أن ضحايا العمل القسري يُحرمون من أكثر من عشرين بليون دولار من أجورهم، ولا يشمل هذا الرّقم ضحايا تجارة الجنس [5].

وإقراراً من الكونجرس الأمريكي في أن الاتّجار بالبشر أصبح خارجاً عن السيطرة، فقـد استُحدث منصبٌ رفيعٌ في وزارة الخارجية للإشراف على محاربة هذه العملية. ونتيجـة لذلك، عيّن الرئيس بوش لهذا المنصـب عضو الكونجرس الأسبق جون ميلر عام 2003 برتبة سفير. وخلفه في هذا المنصب السفير لويس سبيباكا.

إنّ مهمـة هذا المكتب تنحصر في مراقبـة الاتّجار بالبشر ومحاربته، وكذلك مساعـدة الحكومات وتحفيزها إلى وقف أيّ تـورط في تجارة الرّقيق العالمية. ومن أجـل هذه الغاية، ينشر المكتب تقريـراً عن الاتّجار بالبشر. وقد أورد أول تقرير في 2001 أسماء ثنتين وثمانين دولة فقط، مرتبة على حسب جهودها في محاربة الاتّجار بالبشر على أرضها، في حين ضم تقرير 2009 أسماء مئة وخمس وسبعين دولة [6].

ومع أنه لا توجد دولة في العالم ترغب في أن يُشار إليها بأنها ملجأ للمُستعبَدين والمُهرَّبيـن، فإن هنـاك مئة وخمسـ وأربعين دولة من دول العالم جاءت في الترتيب الثاني أو أقل فيما يتعلق بجهود محاربة الاتّجار بالبشر. وربما تكون هذه الدول مصدر هذه التجارة، أو نقطة عبور لها، أو الوجهة النهائية لضحايا هذه العملية. وفي بعض الحالات، تكون هذه الدول قاعدة لهذه الأنشطة مجتمعة: مصدراً وعبوراً ومُستقرّاً. وتشيـر الدراسات المكثفة التي تجريها وزارة الخارجية الأمريكية إلى أن هذه الآفة متفشّية في دول العالم قاطبة، وفي ذلك الولايات المتحدة نفسها.

وكثيراً ما تكون ردة فعل بعض الناس عنيفة عند سماعهم استخدام كلمة العبودية لوصف طرق الاستغلال الحديثة وأساليبه؛ لأن العقل الجمعي الأوروبي مُشبع بفكرة أن العبودية انتهت في القرن التاسع عشر. ويبدو من الطبيعي جدّاً أن تقرأ في الصحف وصفاً لأوضاع تشبه ظروف العبودية في أحد مناجم النحاس في بوليفيا؛ حيث يُختطف العمـال، ويُجبرون على العمل بالسخرة من دون أجـر، ويُمنعون من مغادرة المنجم

أيضاً. فَلِمَ يشير هذا الكاتب إلى الأوضاع التي يعيشها العمال كما لو أنها من أصناف العبودية؟ إنّ السبب في ذلك هو أن الكاتب مقتنع بالأسطورة الثقافية القائلة بأن العبودية الحقيقية قد اختفت منذ زمن بعيد.

وما لا شك فيه أنّه كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم عام 1833، عندما أقرّ مجلس العموم البريطاني قانون إلغاء العبودية، الذي بموجبه أعاد الحرية إلى العبيد جميعهم الذين كانوا مُحْتجزين أسرى في أنحاء الإمبراطورية البريطانية. ثم إنّ التعديل الثالث عشر على الدستور الأمريكي الذي أُقرّ عام 1865 في نهاية الحرب الأهلية، لم يترك أي غموض فيما يتعلق بالوضع القانوني للعبيد في أمريكا، حيث جاء ما نصّه: (لن يكون هناك أيّ وجود للعبودية أو الخدمة غير الطوعية داخل الولايات المتحدة، أو أي مكان يتبع سلطات هذه الولايات).

وفي الحقيقة أن سنّ القوانين التي تجرّم تجارة العبيد وتحرّمها كان انجازاً كبيراً لقضية الحرية الإنسانية. ومع أن العبودية استمرت لعقود عدّة بعد ذلك، فإن هذه القوانين التي انتشرت في دول العالم كلّها تقريباً، أعطت المناهضين للعبودية أداة فاعلة لمحاكمة من يستعبدون الناس بممارسات لا إنسانية.

إنّ ما يُؤسف له أننا نرى اليوم عودة هذه السوق السوداء إلى الظهور مرة أُخرى. ويشترك في هذا المشروع الإجرامي أشرار محليون، وشبكات دولية متطورة. إضافة إلى أن فساد القائمين على تطبيق القانون، والمسؤولين الحكوميين يشاركون بدور رئيس في رواج هذه السوق. إنّ الاتّجار بالبشر لا ينحصر في منطقة بعينها في العالم؛ فهذه التجارة لا تحترم حدوداً. ولهذا، لا يمكن إلغاء العبودية الجديدة بمجرد جّرة قلم مثلما فعل أبراهام لينكولن عندما وقّع إعلان تحرير العبيد.

فالاتحاد الأوروبي مثلاً، يواجه صعوبة في كيفية وقف تدفّق مئة وعشرين ألف امرأة وطفل يُهرّبون إلى دول الاتحاد كل عام. ويُختطف معظم هؤلاء العبيد من إفريقية، أو من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة، ويُهرَّبون عبر الحدود

الممتدة. وينتهي ما نسبته 90% من هؤلاء المهرّبين في مواخير تجارة الجنس الأوروبية المنتشرة [7].

في عام 2002، أبدى وزراء الاتحاد الأوروبي اهتماماً بمحاربة تجارة العبيد، عندما طلبوا إلى الأعضاء جميعهم تطبيق(مبادرة) بروتوكول باليرمو، وهي المبادرة التي اتخذتها الأمم المتحدة لاعتماد إجراءات فاعلة لمحاربة الاتّجار بالبشر عبر الحدود. وقد أطلقت معظم الدول الأوروبية حملات توعية طموحة، ورصدت ميزانيات لوكالات محاربة التهريب. وعلى الرغم من هذا كلّه، فقد استطاع المهرّبون المحافظة على تدفّق منتظم لموجات جديدة من عبيد تجارة الجنس إلى المنطقة. وقد اعترف بهذا الوضع وزير خارجية الاتحاد بينتيا فيريروا - والدنر عام 2006، بقوله: على الرغم من الجهود الجبارة لمعالجة هذه المشكلة، فإن الحقيقة المقلقة هي أن تجارة تهريب البشر تدرّ ربحاً أكثر من تجارة تهريب السلاح أحياناً [8].

وفي الواقع أنّ عدد العبيد الذين يقعون في مصايد الرق اليوم أكثر من أولئك الذين كانوا يُستبدلون في تجارة العبيد عبر الأطلسي، التي استمرت لأربعة قرون. ولا يمكن لأحد الشعور بقسوة هذه التجارة ووحشيتها أكثر من أطفال الدول النامية الذين يقعون فريسة لصائدي العبيد.

في عام 2004، حملت دراسة للأمم المتحدة عنوان (عشرة ملايين طفل يجري استغلالهم للأعمال المنزلية)، وهي خلاصة تقرير عن استغلال الأطفال عالميّاً. وهذا العنوان يغني عن الشرح. وجاء في التقرير أن سبع مئة ألف طفل يُجبرون على العمل في المنازل في إندونيسيا وحدها. وهناك أرقام مذهلة أخرى؛ ففي البرازيل خمسة مئة وخمسون ألف طفل، وفي الباكستان مئتان وأربعة وستون ألفاً، وفي هاييتي مئتان وخمسون ألفاً، وفي كينيا مئتا ألف طفل. ويشير تقرير الأمم المتحدة إلى أن الأطفال يظلّون في الخدمة لمدد زمنية طويلة بسبب عدم اكتشاف ما هم عليه من عبودية من قِبل أحد؛ فهؤلاء الصغار غالباً ما يكونون غير مرئيين لمجتمعاتهم،

ويظلون يكدحون ساعات طويلة دون أجر، أو مقابل أجر لا يُذكر، إضافة إلى حرمانهم فرص اللهو والتعليم[9].

وغالباً ما يُرفق مُلصق غير مرئي بأوصاف العبودية الحديثة. ومثلما كنت لا أشك في أن مطعمي المفضل كان ملجأً لشبكة تهريب، فمن المحتمل أننا نصادف العبودية في طريقنا كل يوم دون أن ننتبه إليها؛ فقد نمرّ بموقع إنشاء دون أن يخطر ببالنا ما إذا كان العمال هناك يعملون بمحض إرادتهم أم رغماً عنهم. أو ربما نقود سياراتنا في شوارع المدينة ليلاً، ونشاهد فتيات صغيرات يبعن أجسادهن في إحدى زوايا الشارع، ونتساءل: كيف يمكن لهنّ اختيار مثل هذه الحياة!

وهنا تكمن المفارقة: فالعبودية ليست مخفية في الواقع، بل هي مرئية للجميع باستثناء حالات نادرة. وفي الحقيقة، فإننا لا نتوقع وجودها في أمكنة تحترم نفسها.

في 2009، وفي بلدة وول نت كريك الريفية الحالمة، في كاليفورنيا، أدينت وكيلة عقارات وأم لثلاثة أطفال في قضية عبودية منزلية (Walnut Creek). وجاء في حيثيّات القضية أن مابيل دي لاروزا دان التي تبلغ من العمر ستة وأربعين عاماً، أجبرت امرأة شابة من البيرو على الطبخ، والغسيل، ورعاية أطفالها الصغار مدة عامين. وقد أحضرت دان تلك المرأة إلى الولايات المتحدة بأعذار كاذبة، وصادرت جواز سفرها، وهددتها بأنها سوف تتهمها بالسرقة إذا ما حاولت الهرب. وقد كانت تلك المرأة تعمل خمس عشرة ساعة يومياً طوال الأسبوع. وفي المساء، تطرح نفسها على أرضية غرفة المعيشة. ولم تكتف دان بذلك، بل منعتها من مشاهدة محطات التلفاز الأسبانية، والإنجليزية، وحرمتها من كل وسيلة اتصال بأهلها في البيرو.

ولن ندهش إذا علمنا بأنّ الضالعين في هذه التجارة يجبرون الأطفال على أعمال السُّخرة في مزارع الكاكاو في ساحل العاج[10]، ولكن قد لا يخطر ببالنا أن يقوم شخص على قدر كبير من الأهمية بممارسة هذه الفعلة الشنيعة: فـ(كيم ميتسون) تخجل من الظهور في مجتمعها في منطقة نيو إنجلند، في الجزء الشمالي الغربي

للولايـات المتحدة، بعد اكتشاف أن كاهن الكنسيـة المحلية في قرية ريفية بالقرب من ماساشوسيتس قد اتخذها جارية مُستعبدة لممارسة الجنس مدة خمس سنوات دون أن يثير حوله أي شكوك داخل المجتمع.

كان والدا كيم يعيشان في مخيم للاجئين التبتيين المنفيين في شمال الهند. وعندما بلغت سنّ المراهقة، عرّفها زوج أختها على كاهن أمريكي كان يزور المنطقة. وقد وعد الكاهن المبّجل أن يأخذ كيم إلى الولايات المتحدة، حيث سيوفر لها تعليماً منتظماً وفرصاً لتحسين حياتها. وتقول كيم: لقد وعد والديّ بأنه سوف يعاملني مثل ابنته تماماً[11].

وبدوره، ظل زوج أختها يصر على عائلتها لتسمح لها بالذهاب، حتى إنه عرض مرافقتهـا إلى مدينـة دلهي للمساعدة فـي الحصول على إذن السفـر إلى الولايات المتحدة. وأخيراً، توصل زوج أختها إلى تسوية مالية مع الكاهن لتهريب كيم.

عندما وصلت كيم إلى الولايات المتحدة، كان عمرها ستة عشر عاماً، وعاشت هناك حياة مزدوجة. كان كل شيء يبدو طبيعياً في نظر المشاهد العادي؛ كانت كيم تذهـب إلى المدرسة الثانويـة المحلية، وشاركت في فريق سبـاق المضمار، وكانت تحضـر صلاة الأحد فـي الكنيسة. وكان لـدى الكاهن زوجة وابنـة بالتبني تعيشان معه في البيت نفسه. أما خلف الأبواب المغلقة، فقد كانت كيم خادمة المنزل؛ تقوم بجميع أعمال الطهي، وتنظف الملابس وتكويها، بل وتنظّف أرضية الكنيسة أيضاً.

ولـم يتوقـف الأمر عند هذا الحـدّ، بل كان يمارس الجنـس معها طوال خمس سنـوات. وهددهـا بسجن عائلتها التـي ظلت في الهند في حـال أبلغت زملاءها في المدرسـة عن معاملته لها. ولهذا، كظمت كيم ألمهـا بصمت. في حين لم يكلف أي إنسان في المجتمع نفسه السؤال عن حياتها. لقد كان كل شخص يثق بنيّات الكاهن الحسنـة. وكما وصفته كيـم: كان ماهراً في التّضليل. لقـد كان الكاهن أحد أعمدة المجتمع الذي ينظر إليّ؛ طفلة فقيرة من العالم الثالث حالفها الحظ لتحظى بكرمه.

وأخيراً، عندما بلغت كيم من العمر واحداً وعشرين عاماً، تمكنت من الخلاص من سجـن معذّبها. في البداية، فكرّت في الهرب وعدم العودة أبداً، وتنتهي القصة هنـا. لكنها تلقـت خبراً من عائلتها في الهند يفيد بـأن الكاهن قد هرّب اثنتين من بنـات عمها إلـى الولايات المتحدة لتحـلاّ مكانها في المنزل. عندهـا، جمعت كيم كلّ مـا تملكه من شجاعة ووشـت به إلى الشرطة. عندئذ، اعتُقـل الكاهن، وحُوكم، وسُجـن. أمّـا كيم، فقـد افتتحت بعد ذلـك مركزاً للبيـع بالجملـة مخصوصاً بها، فـي حين تخصص جـزءاً من وقتهـا لمنع وقوع نسـاء أُخريات ضحيـة للاستغلال الجنسي.

وتعدّ عناصر مأساة كيم من الأمور الشائعة والمشتركة في تجارة الرق الحديثة. فقد كانت صغيرة في بيئة انتقالية غير مستقرة (مخيم لاجئين). وقد تآمر المهرّب (الكاهـن) مع شخص آخر قريب من العائلة (زوج الأخت) لاقتلاعها من مجتمعها والتحكم في مصيرها. وجرى تهريبها إلى بلد آخر لا تفقه ثقافته ولا قوانينه. وهُدّدت بإلحاق الأذى بعائلتها إن رفضت التعاون بصورة كاملة. ونتيجة لذلك، استغلها سجّانها جنسيّـاً واحتكر عملهـا. وعندما هربت، سارع تاجر الرّقيق لإيجـاد فتاتين أخريين تحلّان مكانها.

وفي أثناء إعداد هذا الكتاب، أجريت مئات المقابلات مع ضحايا تجارة الرّقيق من الولايات المتحدة، والمكسيك، والصين، وكوريا، والفلبين، وكمبوديا، وتايلاند، والبيرو، والهند، وأوغندا، وجنوب إفريقية، ودول كثيرة في أوروبا الشرقية. ومثل هذه القصة تتكرر مرة تلو الأخرى. وقد وجدت أن نسبة الضحايا الذين انتُزعوا من الدول الفقيـرة، وهُرّبوا عبر الحدود الدولية كانوا 80% من الإناث و50% من الأطفال[12]. لقـد أُرسلوا إلى أمكنة غير مألوفة لديهـم، واحتجزوا فيها عبيداً في غياب الحماية القانونيـة والعائلية. وفي الحقيقـة أن الانتظام في مسار القصة يؤكد تشابه الآليات الشاملة لهذه الصناعة العالمية.

ومثـل أيّ سـوق تجارية أخرى، تخضـع تجارة الرق لمبـدأي العرض والطلب. وعليه، فإنّ عصابات الإجرام هذه تجنى مبالغ ضخمة من العمل غير مدفوع الأجر؛ فإنْ لـم تدفع أجراً للعمال، فستكون نفقة إنتاج البضائع لديك أقل. وكذلك في حال العبوديـة الجنسية، أو أعمال السُّخرة المنزلية، فإنـك تحصل على خدمات بشرية ذات قيمـة عالية بثمن أقل أيضاً. وبسبب هذه المزايا المالية، يستطيع تجار الرّقيق أن ينافسوا بنجاح أيّ سوق أخرى. وسوف يرتفع هامش الربح وفقاً لارتفاع الطلب.

ونحـن قد لا ندرك كيف يرفع كل واحد منـا الطلب ضمن مسار اليوم العادي. ويعبّر (كيفين بيلز) عن هذه الارتباطات التجارية بقوله: ربما يكون العبيد في باكستان قـد صنعوا الحذاء الذي تلبسه، ونسجوا السجادة التي تقف عليها. وقد يكون العبيد فـي الهند هم الذين خاطـوا القميص الذي ترتديه، وصقلوا الخاتم الذي تضعه في إصبعك[13].

ومن أجل توافد منتظم لضحايا جدد، يعتمد محتكرو العبيد على تجار الرّقيق لملء مخزون العرض لديهم. ويمكن أن يكون تاجر الرّقيق شركة توظيف، أو شخصاً يقوم بعملية التهريب، وغالباً ما يقوم الأفراد بالدورين معاً؛ التجارة والتهريب. إنهم لا يواجهون مشكلة في تلبية الطلب إلا في حالتين؛ الأولى عند شحّ الموارد، وندرة العثور علـى فرائس جدد، والأخرى عندما تُهدّد فِعْلتهم بخطر حقيقيّ. وهاتان الحالتان لا مكان لهما في عالمنا الحالي. بل على العكس من ذلك؛ هناك فائض من المُجنّدين المحتملين، إضافة إلى أن فرصة الخطورة شبه منعدمة. وعليه، فإن هذه التجارة في تزايد مستمر. ويضمن تفشّـي الفقر، والفروق الطبقية، وجود خزّان من المجنّدين بعمـق المحيط. فقـد يلجأ أولياء الأمور الذيـن يعانون الفاقة إلى بيـع أطفالهم، أو أنهـم معرضون لعمليات النصـب والاحتيال التي تسمح لتجّـار الرّقيق بالتحكم في حيـاة أبنائهم وبناتهم. وقد ترضـخ الفتيات الصغيرات في المجتمعات الفقيرة إلى القبول بالعمل في أمكنة بعيدة مع ما يرافق ذلك من أخطار محتملة. ويكون الفقراء

مستعديـن لقبول قرض يمكن أن يستغله تجـار الرّقيق لاحقاً لسلب حريتهم. ولهذا، فـإن هذه المسارات جميعها تحمل معهـا أعداداً كبيرة من الضحايا الغافلين الذين يتحولون إلى بضاعة بثمن بخس في سوق عرض الرّقيق.

يقول عضو مجلس الشيـوخ (السيناتور) سام براونباك عن ولاية كنساس: إن جانـب العرض من المعادلة مظلـم إلى حد كبير. ففي العالـم اليوم خمسون مليون شخصـ مشرد ولاجئ. ويوفر هذا الخزان من المشردين فرصة مواتية لاستغلالهم من تجار الرّقيق[14].

في مرحلة الاقتصاد الزراعي الأمريكي، كان تجار الرّقيق يعدّون امتلاك العبيد استثمـاراً. وكانت كُلفة جمع العبيـد، ونقلهم، وإعدادهم للخدمة قبل وصول الوجهة النهائيـة عالية جـدّاً. ومع أن المالك كان يعامل العبد معاملـة الحيوان عادة، فإنها تشبه معاملة ثور غالي الثمن. وكان المالك يهدف إلى استرجاع قيمة استثماره طوال المدّة الزمنية لحياة العبد. ولهذا، كان إثبات الملكية القانونية يخدم هدفاً مهمّاً.

وفـي تجارة الـرق الحديثة، يـؤدي التضخم الحالي في عـدد العبيد، والقدرة علـى نقلهم إلى مسافات بعيدة في مدّة زمنية قصيرة نسبيّاً، إلى تغيير اقتصاديات ملكيـة العبيـد إلى درجة كبيرة. ولما كانت النفقات تنخفضـ بسرعة، فإن العبد لم يعـد استثماراً مجديـاً على المدى الطويل. وهناك قضية تكاد لا تذكر، هي أن ملكية العبيد في الدول جميعها غير قانونية. وليس هنـاك ما يغري المالك بالاهتمام كثيراً بصحة عبده. إن وصف العبد الحالي بأنه شيء يسهل رميه والتخلص منه هو وصف صحيح؛ إنه بطارية مستهلكة. فإن لم تعد هنـاك فائدة تُرجى منه، فيمكن الحصول على عبد آخر زهيد الثمن.[15]

وعلى الرغـم من هذه التوجهات الطارئة في الأسـواق العالمية، فإنّ الأشكال التقليدية للعبودية لا تزال قائمة. فقد وُجدت أعمال السّخرة من أجل ردّ الدين لقرون طويلـة، وما تـزال حتى اليوم من أكثـر أشكال العبودية شيوعـاً. ويحدث هذا الفعل

الاستعبادي عندما يقع شخص ما تحت سيطرة أحد الملاّكين الأثرياء إثر استدانة مبلغ مالي قليل منه. بعدئذ، يضيف الثري فوائد ربوية عالية ومصاريف إضافية إلى القرض، لدرجة يستحيل فيها على المَدين سداده. وقد يقضي عبيد الدَّيْن حياتهم كاملة في خدمة مستعبد واحد، بل وقد ينتقل التزامهم هذا إلى حُفدائهم.

وما حالة (بُندا) إلاّ خير مثال على هذا العمل الاستعبادي؛ إنّه عبد صادفته في أثناء رحلتي إلى الهند. لقد وقع بُندا ضحية لصاحب مطحنة أرز، أعطى الفلاحين قروضاً صغيرة، ومن ثم استعبد بها القرية كلها. كان الفلاحون يكدحون طوال ثماني عشر ساعة يوميّاً، ويُمنعون من مغادرة المكان. وفي أحد الأيام، بعد سنوات من الاضطهاد والقهر، لم تستطع زوجة بُندا مواصلة تحمل هذه المعاناة، فأقدمت على الانتحار. وظل بُندا ينوء تحت عبء الألم لفقدان زوجته. وفي يوم ما، طرح الخوف جانباً عندما رأى باباً مفتوحاً، فولّى هارباً.

ولأن مالك المطحنة لا يتساهل مع أي تمرّد أو عصيان، فقد أرسل صائدي الجوائز يتتبعون أثره فأمسكوه، وأعادوه إلى المطحنة، وأحضروه أمام المالك الذي جمع العبيد كلهم في ساحة المطحنة. ولجعله عظة لمن يتّعظ، ظل المالك يجلد بُندا بعصا حتى أوشك على الهلاك، ثم قيده وهو مغمى عليه، وربطه إلى جدار في مبنى نوم العبيد. وأصبح ذلك المكان سريره لما تبقّى من عمره في مطحنة الأرز تلك. وكان يقوم بعمله اليومي، ومن ثمَّ يعود ثانية إلى مَربطه.

لكن مأساة بُندا انتهت نهاية سعيدة؛ فقد شنّت منظمة مناهضة للرّق تدعى بعثة العدل الدولية International Justice Mission = IJM غارة على مطحنة الأرز، وحرّرت بُندا وجميع أفراد قريته. واعتقلت الشرطة صاحب المطحنة، وقدّم للمحاكمة على جرائمه.

وفي الحقيقة أن هذا الحدث كان المفاجأة غير المتوقعة في رحلتي لاستقصاء ظهور العبودية الحديثة. وقد وطّنت نفسي عاطفيّاً للغوص في أعماق القنوط واليأس.

وحتــى أكون صادقاً، فقــد توقفت في بعض المحطات الكئيبة فــي أثناء رحلتي. لقد تألمــت كثيراً في يــوم استخفيت فيه لاستقصاء أحد بيــوت الدعارة في مدينة فنوم بنــه في كمبوديا. فــي ذلك اليوم، طلب إلي صاحب الماخــور اختيار واحدة من بين مجموعة فتيات صغيرات السّن، لا تتجاوز أعمارهن ثلاثة عشر، تكدّسن أمامي. وقال لــي: باستطاعتك أخذ فتاتين لقضاء ليلة معهمــا إذا ما دفعت بضعة دولارات زيادة عن السعر المتعارف عليه. يومها، تألمت كثيراً لأنني لم أستطع أن أتخيل كيف يمكن لهؤلاء الصغيرات تحمّل هذا العرض المهين الذي يتكرّر عشرات المرات كل ليلة.

ولكن رحلتي لم تنته في محطة اليأس على أيّ حال؛ لقد قابلت مجموعة شجاعة من مناهضي العبودية الذين يأبون الاستسلام. لقد أشعروني بأني قد عدت إلى الأيام الخوالي، فهؤلاء الأبطال الجدد، مثل مناهضي العبودية القدامى، لا يبددون جهودهم في إزالة العراقيل التي تعترض سبيل حركة مناهضة الرق فقط. بل إنهم، بكل بساطة، يرفضون أن يوجد في هذا العالم شخص يمكن أن يُحتجز على أنه متاعٌ لشخص آخر يمتلكه. ومن بين هؤلاء الأبطال (لوسي بورجا)، إنها تنقذ البنات والأولاد من شوارع مدينــة ليما، عاصمة البيرو، في حين يمدّ (بادري سيــزار لوديسرتو يد) العون إلى البنات والنساء الشابات المهرّبات عن طريق عصابات منظمة(مافيات) في أوروبا الشرقية. أما (آنا رودريجيز)فتعمل على إغلاق بيوت الدعارة، وتحرير العمال السّخرة من الحقول الزراعية في فلوريدا. بيد أن (سوزان كوبيدج) حرصت أن يكون مصير تجار الرّقيق في السجون الفيدرالية، وأن يقضوا أحكاماً طويلة جزاءً على جرائمهم.

لــم يذهب أيّ منــا بعيداً بحثاً عن مُستعبَدين، ولم يكن في نيّة أيّ منا أن يكون مناهضاً للعبودية. وكل ما فعلناه هو مدّ يدّ العون إلى لاجئ فقير، أو إلى طفل شوارع مشرّد، أو إلى أحد الناجين الباحثين عن العدالة بعد تعرضه إلى أبشع صور الاتّجار بالبشر. إن الانتقال من عمل إنساني إلى المطالبة بإنصاف ضحايا العبودية والاتّجار بالبشــر، هــو الجامع المشترك بين هــؤلاء المناهضين للرق. وقــد هدفت أن أجعل

هذا الكتاب دليلاً لمناهضي العبودية الجدد. ولهذا، فإني لا أزعم أنه دراسة شاملة للعبودية في القرن الحادي والعشرين، سواء داخل الولايات المتحدة أو في أنحاء العالم كلّه. إن هذا الكتاب يتتبّع مسار هؤلاء المناهضين الاستثنائيين في مواقعهم المختلفة؛ إنّه يصف مشاعر الضحايا الذين وقعوا في شَرَك العبودية، ويستعرض أيضاً أمثلة وحالات من التاريخ والقوى الاجتماعية التي كانت تتحكم في تجارة العبيد. وإضافة إلى ذلك، يطلعنا هذا الكتاب على كيفية لجوء تجار الرّقيق، الذين يلاحقهم المناهضون، إلى القوة والعنف لاستغلال الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة. إضافة إلى أنه يرشدنا إلى الإستراتيجيات التي يستخدمها المناهضون للعبودية من أجل تحرير المُسْتَعْبدين.

ويتبين لنا من هذه القصص أن مناهضي العبودية الجدد ليسوا من قالب واحد: فالنساء اللواتي يحتضنّ الأطفال المحاربين في أوغندا، يعملن في عالم مختلف عن عالم مناهضي العبودية في مدينة لوس أنجلوس. والذين يسعون إلى تحرير عمال السُخرة، والأعمال القسرية في مصانع الملابس. وسنرى أيضاً كيف أنّ رساماً تايلنديّاً يوفّر الملجأ والمأوى للأطفال المهرّبين عبر حدود بورما. في حين يلجأ محامٍ مولود في أمريكا إلى النظام القضائي لتحرير قرية كاملة في أنحاء أخرى من جنوب آسيا. ويعتمد بعض هؤلاء المناهضين للعبودية في عملهم على إيمانهم بالله تعالى. في حين يستند آخرون على مخزون الحب في داخلهم، وثقتهم في النظام القضائي.

وعلى الرغم من مواقفهم الفريدة، فإن هؤلاء المناهضين يشتركون في فهم دورهم التاريخي، إذ يدركون أن حرية الإنسان تقف عند مفترق طرق مصيري في هذه الأيام. ففي هذا العالم، هناك قوى نافذة تريد تحويل البشر إلى بضاعة يمكن بيعها وشراؤها مثل أيّ سلعة مادية أخرى. إن رفع شعار (ليس للبيع) يؤكد أن لكل إنسان حقّاً - غير قابل للتصرف - في أن يكون حرّاً كما خلقه الله تعالى.

إن هدفـي الرئيس من هذا الكتاب هو تحفيز الآخرين ليعلنوا: أنا لست للبيع، أنـت لسـت للبيع، ويجب ألاّ يكون أي إنسان سلعة للبيـع. ولا شك في أن المناهضين للعبوديـة الذيـن يتناول نشاطهم هـذا الكتاب هم أشخاص استثنائيون، ولكنهم لا يستطيعـون الانتصار في هذه المعركة وحدهـم؛ سيُغلبون ويُقهرون إنْ لم نقدّم لهم الدعـم والمساعدة، ثم إنهم يحتاجون إلى متطوعين جدد لمناصرتهم في كفاحهم للقضاء على العبودية.

تقـدّم هـذه الطبعة الجديدة من كتـاب (ليس للبيع) دراسـات حالات وبحوثاً حديثة. والأهم من ذلك أني أرّخت في هذه الطبعة لحركة مناهضة العبودية الناشئة فـي العالم. لقد نشرت الطبعـة الأولى من هذا الكتاب في اليوم نفسه الذي انطلقت فيـه حملـة ليس للبيع. وسوف تقرأ في الصفحات اللاحقـة كيف مكّنت هذه الحملة الشخصيات الرئيسة الواردة في النسخة الأولى من مواصلة أعمالهم البطولية. وقد حققنـا انتصارات باهرة، ومنها، المشاركة مع كرو نام Kru Nam لبناء قرية لأكثر من مئة وخمس وعشرين طفلاً تحرروا على يد هذه السيدة في شمال تايلاند. وأنشأنا فريقـاً مع لوسي بورجا Lucy Borja أيضاً؛ لتأمين مأوى ومستقبل جديد للمئات من أطفـال الشوارع المشردين في ليما، عاصمة البيرو. إضافة إلى أننا أنشأنا أكثر من أربعيـن مكتباً إقليمياً في أمريكا الشمالية لمتابعة حالات الاتّجار بالبشر، وتوثيقها، وتعيين محاميين بحسب خطط عمل وبرامج إقليمية.

وبهـذا الخصوص، فإن الطبعة الثانية توضـح بجلاء أن نَسَمات الحرية توحّد الشعـوب على مستوى العالم، ذلك أنه لم يعد بمقدورنا بعد الآن الوقوف متفرجين، في الوقت الذي يعيش فيه ملايين الأفراد في مستنقع العبودية. وإن أردنا تغيير هذا الوضع، فعلينا عدم الاكتفاء بالأقوال، بل لا بد أن يكون ذلك فعلاً وعملاً.

كثيـراً ما يقول طلابي في جامعة سان فرانسيسكو: إنهم يشعرون بأنهم ولدوا فـي الزمن الخطأ بعدما حسمت جميع القضايا المهمة في التاريخ. وهم محقّون في

ذلك، لأننا وصلنا إلى مرحلة مصيرية في النضال من أجل حرية الإنسان. لقد ارتفعت الستارة، والمستقبل ينتظر ما سيأتي.

وربما يتساءل كلّ منا: كيف كان من الممكن أن نتصرف في خضم الصراعات المصيرية في التاريخ الإنساني. هل نثور، ونصمد، ونكون في عداد الشجعان؟

كيف كان من الممكن أن نتصرف عام 1942 ونحن نرى الجرائم التي يقترفها الجنود النازيون؟ هل كنا سنقوم بدور المخبرين أو المتفرجين الذين يتظاهرون بالغباء وهم يشاهدون ما يجري من وراء زجاج نوافذهم؟

وأتصور أننا عشنا في ولاية تينيسي عام 1955، عندما وقفت هاريت توبمان التي ولدت في العبودية أمام باب بيتنا وقالت: إننا نُهَرِّب العبيد الفارّين عبر سكة حديد تحت الأرض، ونحن نحتاج إلى بيوت آمنة، فيها نختبئ ونستريح ونأكل. لقد أبلغنا النشطاء في حركة تحرير العبيد أنكم مستعدون لفتح بيتكم بوصفه نقطة مرور. فهل ستساعدوننا؟ لو أنها جاءت ووقفت أمام بابنا وقالت هذا، فإننا سوف نكون أمام لحظة الحقيقة: فهل كنا قد عبّرنا عن رأينا ووقفنا إلى جانب الحق؟

أحياناً، نقرأ التاريخ، ولكن في أحيان أخرى نصنعه. إننا نعيش الآن في إحدى اللحظات المصيرية في الصراع من أجل الحرية الإنسانية. ولذلك، فلسنا في حاجة إلى تخيّل كيف كان من الممكن أن يكون ردّنا عند مواجهة لحظة الحقيقة. نحن العاملون على خشبة المسرح، وباستطاعتنا تغيير رياح التاريخ بأفعالنا. سوف تنظر الأجيال القادمة إلى الوراء لتحكم على خياراتنا التي اتخذناها: محفّزة لهم أم محبطة.

ربما تعتقد أنني أبالغ في الأمر، ولكني لا أعرف أي طريقة أخرى للتعبير عن ضرورة الإسراع بإنقاذ ملايين الأطفال الذين يُجبرون على بيع أجسادهم لمن يستغلونهم جنسيّاً، أو الذين يُكرهون على الكدّ في المصانع أو الحقول الزراعية.

وليس أفظع من التدليل على هذا الوضع المأساوي أن أربعين ألف طفل اختُطفوا في أوغندا، وحُوّلوا رَغَمَ أنوفهم إلى مقاتلين أو إلى عبيد جنس.

لقد أصبح مصير الأطفال في العالم على المحك. وهؤلاء الأطفال عاجزون عن التحرر، وكسر نير عبوديتهم. ومثلما لاحظ السياسي والفيلسوف الإيرلندي Edmund Burke إدموند بيرك قبل قرنين: «الشيء الوحيد الضروري لانتصار الشيطان هو بقاء الخيّرين مكتوفي الأيدي».



أولاً

ضوء ساطع في الظلام

تايلاند

كان عمــر (شان) تسع سنوات، عندما باعته أمه مع شقيقته إلى صاحب أحد المصانع في بلدة مامي ساي في أقصى شمال تايلاند. تقع هذه البلدة قرب الحدود مــع بورما، وتضم سوقاً سوداء للبضائع المهربة على مختلف أصنافها. مقابل ذلك، حصلت الأم على أربعين دولاراً ثمناً للطفلين.

انضم شان وشقيقته بعد بيعهما إلى ثمانية أطفال آخرين في المصنع لتقشير أكوام الثّوم. كان الأطفال يعملون في غرفة كبيرة، ملتصقة بمكتب صغير يجلس فيه صاحب المصنع، ويراقب العمال الصغار من خلال نافذة زجاجية. لم يكن الأطفال يتلقــون أي أجر لقاء العمل الــذي يقومون به. أما الطعام المقدم لهم فكان لا يسمن ولا يغني من جوع. كانوا يعملون ساعات طويلة، ويتعرضون إلى أقسى صنوف العقاب إنْ لم يقشّروا الكميات التي تُحَدَّدُ لهم.

كان الأطفال ينامون ساعات قليلة في شقة مجاورة، إلى أن يأتي صاحب المصنع لإيقاظهــم ونقلهم في شاحنة إلى المصنع. ولم يعرفوا أي عالم آخر سوى المصنع، والشاحنة التي تقلهم، وتلك الشقة في الطابق الثاني. لا أحلام لهم مثل غيرهم من الأطفال؛ فعائلاتهم باعتهم ليصبحوا عبيداً.

وصفة للضعف الجماعي

وضعت وزارة الخارجية الأمريكية تايلاند في الترتيب الثاني في تقرير الاتّجار بالبشر لعام 2009، مستندة إلى تفشّي هذه الآفة في المناطق الحضرية والريفية على حدّ سواء. وجاء في التقرير: تعدُّ تايلاند مصدراً، ونقطة عبور، ومحطة استقبال للمُهرَّبين من الرجال والنساء والأطفال لغايات العمل القسري، والمتاجرة بالجنس[1].

وهناك دراسات إضافية، وفي ذلك الاستطلاع الذي نشرته صحيفة تايم آشيا، تؤكد فيه انتشار الرق في تايلاند. ويقول استطلاع الصحيفة: إن هذا الاتّجار القذر ينتشر في أنحاء آسيا كلّها تقريباً. ولكن تايلاند والهند على وجه الخصوص هما منبع تجارة اللحم البشري؛ حيث يجري تصدير الأطفال والبالغين واستيرادهم على نطاق واسع[2].

وإذا كان الحال كذلك، فما سبب تفشّي العبودية في تايلاند وكذلك دول جنوب شرق آسيا جميعها؟ في الحقيقة أن هناك أربعة عوامل تعمل معاً من أجل تمزيق المجتمعات في تلك المنطقة، وهي: حركة التصنيع المتسارعة، والفقر المدقع، والصراعات المسلحة ، والانفجار السكاني. ومع أنه يصعب أن يتوصل رجال الاقتصاد والسياسة إلى اتفاق عن أيّ من هذه العوامل يعدّ محوريّاً في انتشار العبودية، فإنهم متفقون على أن منطقة جنوب شرق آسيا تمرّ بمرحلة انتقالية، وكلما تعرض أي وضع اجتماعي إلى تغيرات ما، فإن البائسين هم الأكثر معاناة.

في السنوات الأخيرة، حققت منطقة جنوب شرق آسيا قفزات مذهلة في مجال التصنيع، بعدما تحوّلت قاعدة المنطقة الإنتاجية من زراعة الكفاف إلى التصنيع والزراعة التجارية (مع وجود فروق بين دولة وأخرى). ولذلك، وجد صغار المزارعين صعوبة في تأمين لقمة عيشهم من زراعة الأرض. فاضطروا إلى الهجرة صوب المدن بحثاً عن عمل يقتاتون منه.

ومــع أن التصنيــع يحمل معه إمــكان تحفيز نمو الاقتصــاد الوطني، فإن هذه البلــدان تعاني سوء توزيع الثروة؛ إذ إن مجموعــات النخبة تحتكر امتلاك الأراضي ورأس المال، وتشرف على الترتيبات المالية التــي لا تأخذ في الحسبان احتياجات أفواه الجماهير الجائعة. ولا شك في أن دارسي التاريخ يتذكرون الفروق الاجتماعية التــي رافقت عملية التصنيع في العالم الغربي. ومع أنه كان من المؤمل أن التصنيع في منطقة جنوب شرق آسيا سوف يحمل معه الرخاء الاقتصادي لغالبية المواطنين، فإن الفقراء يُتقاذفون كحطام سفينة في بحر متلاطم الأمواج.

فعلى سبيل المثال، تقول دينا دودزر: إن الأزمة المالية العالمية عام 2008 أدت إلى زيادة إغلاق المصانع، وارتفاع معدلات البطالة بين التايلنديين[3]. ونسبت إلى أحــد موظفي وكالة إغاثة في بانكوك العاصمة قوله: كان على الوالدين والأطفال أن يكافحوا من أجل البقاء.

لقــد ضربت هذه القوى الاقتصادية كمبوديا بشدة؛ حيث يعيش شخص واحد فــي الأقل مــن بين كلّ ثلاثة أشخاص تحت خط الفقر. وما يزيد الوضع سوءاً هو أن النساء الكمبوديات لا يحظين بفرصة الالتحاق بالتعليم المنتظم، ولا يتعلّمْنَ مهارات حرفية. وعليه، فإن تفشّي الأمية بين النساء أعلى مما هي عليه بين الرجال إلى حدّ كبيــر[4]. ومع أن فرصة العثور على وظيفة في كمبوديــا أو تايلاند نادرة، فإنها أكثر صعوبــة بالنسبة إلى النساء؛ فأصحاب الشــركات يرفضون توظيف النساء الأميات والفقيرات.

لقد شهــدت منطقة جنوب شرق آسيا ما يكفي مــن النزاعات المسلحة طوال خمسين سنة الماضية، ما سبب مزيداً من عدم الاستقرار الاجتماعي. وتقول الدكتورة سيريرات بوسورنهام الناشطة في المجال الاجتماعي ورعاية الأيتام[5]: إن الاحتقان الاجتماعي الذي سببته الحرب العالمية الثانية كان التربة الخصبة لانتشار ظاهرة البِغــاء المخصوص بالسياح الأجانب، وهذا مــا دفع إلى إنشــاء أول مركز للترفيه

الجنسي في تايلاند. وقد انتعشت السياحة الجنسية هذه سريعاً وتوسعت، حاملة معها أبشع أصناف الاستغلال الجنسي لأغراض تجارية.

وبالمثل، سببت حرب فيتنام صدمة للشعب الفيتنامي، وامتد أثرها إلى شعب لاوس، وكمبوديا، وتايلاند. وفي مثل هذا النزاعات، لا يكون المتنازعون هم الضحايا الوحيدين للحرب، بل والمدنيين أيضاً. إنّ مثل هذه المجتمعات تحتاج إلى سنوات طويلة للشفاء من جراحاتها، حيث لا تزال قبائل كثيرة مشردة في مرتفعات لاوس، مثلاً، ولم تستقر حتى الآن. ولا يزال الوضع في بورما – أو جمهورية اتحاد ميانمار – أكبر شاهد على آثار الحرب المدمرة بعيدة المدى، حيث تحاول الحكومة فرض سيطرتها على القبائل وأمراء الحرب الذين يسعون إلى الاستقلال بمناطقهم. ويمكن للصراعات المسلحة أن تنشب في أي لحظة. فقد أشار تقرير لجنة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين لعام 2009، إلى أن المجموعات المسلحة البورمية كانت تجبر الأطفال من عمر عشر سنوات على العمل حمّالين ومقاتلين في منطقة كارين على حدود تايلاند الشمالية[6].

ومما زاد الطين بِلّة الانفجار السكاني في المنطقة، الذي فاقم من صعوبة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. وتشير الإحصائيات الرسمية إلى أن أكثر من نصف عدد السكان في كثير من دول جنوب شرق آسيا هم من الأطفال تحت سن خمسة عشر عاماً. وبسبب معاناتها شحّ الغذاء، وندرة فرص العمل، فإن المجتمعات المحلية لا تملك الموارد الكافية لإعالة شبابها. والحقيقة المرة هي أن هؤلاء الشباب هم أول من يُضحّى بهم. وفي خضم هذا الانحلال الاجتماعي كلّه، تبرز العبودية بوصفها حلّاً مالياً مغرياً. وفي الأغلب ما تستهدف التجارة بالبشر الأطفال في المناطق الريفية النائية. ويستطيع مالك ماخور في جنوب شرق آسيا شراء امرأة أو طفل بثمن بخس: لا يزيد على عشرين دولاراً. أما سعر الفتاة العذراء فيتراوح بين خمس مئة إلى ألف دولار. ويعدّ هذا مبلغاً كبيراً بمقاييس تلك الدول، ولا سيّما إذا عرفنا أن الألف دولار يعادل معدل

الدخل السنوي للفرد في كمبوديا بثلاث مرات ونصف[7]. ولذلك، فإن بيع العائلة لابنتها أو (بدرجة أقل) لابنها في حالات العوز الشديد أمر لا يدعو إلى الدهشة. في الماضي، درجت العائلات الفقيرة على بيع أطفالها للأثرياء خدماً في منازلهم أو عمالاً في الحقول الزراعية. أما في المدّة الأخيرة، فقد رفعت تجارة الجنس الطلب على الأطفال العبيد؛ والطبقات الفقيرة توفر العرض لـذاك الطلب. وفي كلّ الأحوال، لا تتوافر إحصائيات دقيقة عن عدد أولياء الأمور الذين يبيعون أطفالهم لتجار الرقيق. لكن مقالة نُشرت في مجلة يو. إن. كرونيكل *UN Chronicle* في 2003 أشارت بوضوح إلى تورّط أفراد العائلة في هذه الصفقات، وقد جاء فيها: غالباً ما يستخدم التجار السكان المحليين في تجمع أو قرية ما للبحث عن أطفال وفتيات صغيرات. وهم يستهدفون العائلات الفقيرة. وفي بعض الحالات، يبيع أفراد العائلة الأطفال إلى الوسطاء أو التجار[8].

وقد كشفت إحدى الدراسات أن 35% تقريباً من العائلات الفيتنامية التي تعيش في كمبوديا تبيع بناتها في سوق البغاء، وأن ما بين 25% — 35% من العائلات الأخرى تفكر جدياً في هذا الخيار، ولكنها لا تكمل عملية البيع[9]. ويعيش الفيتناميون أقليةً مُهمّشة في كمبوديا. ولهذا، علينا أن نحذر التعميم بناء على هذه النسب المئوية. ومع ذلك، فإن الأرقام تظهر اتساع ظاهرة بيع البنات وقبولها ثقافيّاً.

ولكن السؤال هو: لِمَ يبيع الأب طفله أو طفلته؟ معظمنا، لا يجد مسوّغا للإقدام على هذه الخطوة تحت أي ظرف من الظروف أبداً. (ومع ذلك، علينا التوقف هنا وتذكّر أن مجموعات مناهضة الاتّجار بالبشر في الولايات المتحدة قد وثّقت حالات لعائلات أمريكية باعت أطفالها عبيداً. انظر موقع www.Slaverylhop.org لمعرفة مدى انتشار الاتّجار بالبشر داخل الولايات المتحدة).

وفي هذا السياق، علينا أن نتذكر بأن البيئة الثقافية والدينية في تايلاند تضع المرأة في مكانة اجتماعية متدنية. فالتقاليد الدينية البوذية تشجع معاملة المرأة بأنها مواطنة من الدرجة الثانية. بل إن البوذية (تيراهفادا) Theravada في تايلاند

ترى أنّ المرأة لا تستطيع الوصول إلى المستويات العليا من التنوير الروحي Spiritual Enlightenment، وأن أفضل شيء يمكن أن يطمحن إليه في هذه الحياة الدنيا هو أن يقمن بمزيد من الأعمال الصالحة حتى يولدن ذكوراً في حياتهن الأخرى.

أيضاً، تعاني تايلاند تمييزاً ثقافيّاً كبيراً يساعد تجار الرقيق على اقتناص الأطفال من مجموعات سكان البلاد الأصليين في المناطق الريفية، وزجِّهم في مواخير الجنس في بانكوك، وفوكيت، وشيانج مابي[10].

وفي الحقيقة أن اللاجئين في أنحاء العالم بأسره يواجهون مصيراً مجهولاً محفوفاً بالأخطار؛ إذ يصبحون أقلية في مجتمع جديد، دون أي صفة شرعية، إضافة إلى تعرضهم للاستغلال من لدن الأشخاص المتنفذين. فعلى سبيل المثال، يرى تجار الرّقيق التايلانديون التجمعات البورمية بركة عميقة لصيدهم[11].

كرو نام؛ رسامة تحولت إلى مناهضة للرِّقّ

ربما يكون من المستبعد جدّاً أن يتحول فنان يحمل شهادة جامعية في الفنون الجميلة إلى منقذ أطفال. لكن الحال يختلف بالنسبة إلى كرو نام التي ترابط على الخطوط الأمامية لجبهة مناهضة العبودية في تايلاند.

في بداية الأمر، لم تكن على علم بما يدور حولها. ولكنها اكتشفت فجأة أنها لا تستطيع تحمل رؤية أطفال الشوارع الذين يعيشون على جوانب قنوات المياه التي تحيط بمدينة شيانج ماي، أكبر مدن شمال تايلاند. وفي أحد الأيام، حملت أدوات الرسم ومواده من قماش وألوان وفُرَش، وذهبت إلى حافة النهر للاستماع إلى حكايات أولئك الأطفال، وحولتها إلى لوحات تروي قصصاً رهيبة.

اكتشفت كرو نام أن معظم الأطفال ليسوا من تايلاند، وأن كثيرين منهم جاؤوا من بورما، ولاوس، وفيتنام، وكمبوديا. روى لها الأطفال رحلتهم حتى وصولهم إلى

شوارع مدينة شيانج ماي. أخبرها الأطفال البورميون عن زيارة رجل تايلاندي أنيق قريتهم، وكان يصحبه طفل حسن الهندام عمره أربعة عشر عاماً، يتحدث اللغة التايلاندية بطلاقة. قال الرجل لآباء هؤلاء الأطفال: إنه يقدم منحاً دراسية للأولاد الصغار، والالتحاق بمدرسة راقية في تايلاند. وذكر أنه سوف يتحمل نفقات دراستهم ومعيشتهم، ثم قال، مشيراً إلى الطفل البورمي الذي يرافقه: انظروا إلى هذا الطفل من بني جلدتكم كيف أصبح على أحسن حال! وإذا ما سمحتم لأطفالكم بمرافقتي إلى مدينة شيانغ ماي، فسوف أعمل لهم ما عملته له.

وعلى الرغم من أن مواطني بورما القبليين يترددون كثيراً في جعل بناتهم يفارقنهم، فإنهم يتساهلون في السماح للأولاد بالسفر بحثاً عن لقمة العيش. على هذا، وافقت بعض العائلات على السماح لأبنائها بالذهاب مع الزّائر التايلاندي. وعندما وصلوا إلى شيانغ ماي، باعهم ذلك التّاجر فوراً إلى أصحاب مواخير الجنس.

وقال الأطفال الذين عاشوا على طول امتداد حافة النهر، إنهم كانوا من الأطفال المحظوظين لأنهم تمكنوا من الهرب، في حين ظل كثير من أصدقائهم سجناء في بيوت الدّعارة تلك. شعرت كرو نام بالدم يفور في عروقها وهي تستمع إلى حكايات هؤلاء الأطفال، فقررت ألّا تظل غير مبالية ولا متفرجة، وأن عليها فعل شيء ما. لم يكن لدى كرو نام أي خطة محددة عندما اقتحمت أول بؤرة جنس تصادفها في تلك الليلة. ولم تحاول حتى مساومة مالك الحانة، مفترضة أن ذلك سيكون مضيعة للوقت. لقد كانت مهمتها واضحة؛ إنقاذ أكبر عدد ممكن من الأطفال. رأت في الماخور الأول الذي دخلته أطفالاً يجلسون حول طاولات يرفّهون عن الزبائن الذكور. أخذت تقترب من كل طاولة، وتهمس في أذن الطفل بهدوء: هيا بنا نهرب. ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى كانت تقود ستة من أولئك الأطفال الصغار عبر الباب، وتأخذهم إلى مخبئها.

وعلـى الرغم من أنها قامـت بغارات عدّة مرتجلة أخرى علـى بيوت الدّعارة، فإنها قررت أن تعمل بحذر بعد أن تلقت تهديداً بالقتل من أصحاب تلك البيوت؛ إنها تسرق ممتلكاتنا. هكذا اتهموها.

تشان؛ المصير المرّ

لـم يكن تشان يفهـم لماذا كان والده يتـرك البيت كثيراً، ويعبـر الحدود إلى تايلاند. كان يومها صغير السّنّ، ولم يدرك، حينها، أن والده كان يهرِّب المخدرات. كان والـده يغادر فـي الصباح الباكر ليجتمـع مع موردي المخـدرات التايلانديين، ثـم يعود أدراجه إلـى بورما لتسليم البضاعـة للمروجين. ولكونـه الوسيط في هذه الصفقـات، فقـد كان يحصل على جزء صغير من الأربـاح على الرغم من الأخطار الجسيمـة التـي يتعرض لهـا؛ لأن النظام فـي بورمـا لا يتساهل كثيراً مـع مهربي المخدرات المستقلين.

وفـي إحدى الليالي، انقلبت حياة تشان رأساً على عقب، عندما اقتحم الجنود البورميون المنزل وهم ينادون على والده بصوت عالٍ. عندما خرج الأب إليهم، أطلق الجنـود النار عليه من مسافـة قريبة، وقتلوه. في حين تكوّم تشان وعائلته في إحدى زوايا المنزل وهم يصرخون. كان أفراد العائلة ينتظرون توجه فوهات البنادق صوبهم، لكن الجنود غادروا المكان وتركوهم في رعبهم مصدومين. استقبلت العائلة العزاء في الأب القتيـل مدة ثلاثة أيام. خلالها، كان تشان يشاهد الجيران وهم يحضرون معهـم قليلاً من الطعـام الذي كان أقصى ما استطاعوا توفيـره. وفي اليوم الثالث، أُحرقت جثة الوالد في المعبد كما تقضي العادات البوذية، وعادت العائلة إلى حضن فقرها وعوزها.

تأكـدت والـدة تشـان سريعـاً أنهـا لا تستطيـع إعالـة أسرتهـا، فاضطـرت إلـى الاستجـداء فـي الشـوارع. ولـم يمضِ وقـت طويـل حتى عثـر تاجـر للرقيق

على فريسته. كان ذلك التاجر يملك مصنعاً لتعليب الثّوم، وعرف أن لدى الأم الأرملة طفليـن، دون أي مصـدر دخل منتظم، فأقنعها أن تبيع تشـان وشقيقته لينضما إلى عمال السّخرة.

عمالة الأطفال

فـي تقريرها لعام 2009 عن وضـع أطفال العالم، أشارت منظمة الأمم المتحدة للطفولـة - اليونيسـف، إلى أن ما بين مئة وخمسين مليون طفل في أنحاء العالم من عمر خمسة إلى أربعة عشر عاماً يعملون يوميّاً، منهم 45% من أطفال كمبوديا. ومع أن أرقـام عمالـة الأطفال أقل إلى حد ما في الـدول الأخرى في منطقة جنوب شرق آسيا، فإنها تظل مدعاة للقلق. وقد كانت نسبة عمالة الأطفال في دول تلك المنطقة كما يلي: فيتنام 16%، لاوس 11%، تايلاند 8%. ولم يورد التقرير أرقاماً مخصوصة ببورما؛ نظراً لصعوبة الحصول على بيانات من ذلك البلد المُغلق على نفسه[12].

وبدورهـا، درجت منظمـة العمل الدولية علـى توثيق عمالة الأطفـال وآثارها المدمّـرة. ففـي دراستها بعنوان (أعطـوا فرصة للبنات: معالجـة عمالة الأطفال) قدّرت المنظمة أن نحو مئة مليون فتاة في العالم يعملن في ظروف عمل خطرة تضر بصحتهن ونموهن، وتقلل من فرصهن التعليمية[13]. وجاء في الدراسة أيضاً أن تجارة العمالـة غير الشرعية ترتبط بالعمل في الزراعة، والخدمة المنزلية، وأعمال البناء والإنشـاءات، والقطاعات غير المنظمة. وأن 43% مـن الأطفال المُهرَّبين إلى سوق أعمال السّخرة يُستغلون في التجارة الجنسية[14].

وباختصار، فإن الضحايا من الأطفال يتعرضون إلى العنف الشديد، والصدمات النفسيـة، والأمراض الجنسية مثل نقص المناعة المكتسب؛ الإيدز. وتقترح منظمة العمل الدولية حلـولاً عدّة لمعالجة عبودية الأطفال، حيث تقول: إن إحدى الأولويات المحـددة في الدراسة هي منع عمالة الأطفـال، من خلال التطبيق الدقيق للقوانين

والتنظيمات، ورفع درجة التوعية بخصوص العمالة القسرية بالنسبة إلى المجتمع ككل، وقيام الشرطة، والسلطات القضائية، والسلطات المسؤولة الأخرى بالمهمات الموكولة إليها[15]. ومثل معظم الدول في العالم، فقد أصدرت تايلاند قوانين تحظر تجارة الجنس، والعبودية، وعمالة الأطفال، والزواج القسري، والاستغلال الجنسي للأطفال، والحرمان من الحرية[16].

وخلاصة القول، فإن الحل يعتمد على التطبيق المستمر للقانون، كما تقترح المنظمة. وقد ذكر تقرير وزارة الخارجية الأمريكية لعام 2009 بعنوان الاتّجار بالبشر: على الرغم من أنّ الحكومة التايلاندية قد أقرت قانوناً جديداً، ودربت المسؤولين على تنفيذه، فإنها نادراً ما تحاكم المتورطين في الاتّجار بالبشر. ولم يحدث أنها أدانت أحداً على ارتكاب هذه الجريمة عام 2008[17].

تشان: الهروب المؤلم صوب الحرية

كان تشان يشعر بغثيان من رائحة الثوم، وبالخوف الشديد من كلاب الحراسة الموجودة في المكان لضمان عدم هروب الأطفال. وكان جسمه يحمل آثار كدمات من الضرب المتكرر. ولكن أكثر شيء كان يؤلمه هو رؤية أخته الصغيرة تعاني المرض والهزال. لقد كان عاجزاً عن مساعدتها وعن مساعدة نفسه.

ومع أن كثيراً من الأطفال قد حاولوا الهروب من قبل، فإنّ أجسادهم كانت تحمل آثار عضّات الكلاب؛ دليلاً على فشل محاولاتهم. ولكن تشان قرر الهرب، وأخذ يخطط لنجاحه. وفي إحدى الليالي، استجمع كل ما لديه من شجاعة، وانتظر حتى توارت الكلاب وراء المبنى، فقفز من نافذة الدور الثاني إلى الشارع المُعبّد. وعلى الرغم من الألم الذي كان يسري في جسده من شدة السقوط، فإنه كان متيقناً من أن شقيقته الهزيلة سوف تموت إذا ما قفزت مثله، وأن عليه الابتعاد عن هذا المكان

بأقصى ما تستطيع أن تحتمله ساقاه. واتخذ القرار المؤلم بالتّخلّي عن شقيقته وراءه، وأخذ يعدو في شوارع مدينة ماي ساي.

لم يفكر تشان بتاتاً بالعودة إلى أمه في بورما. واعتقد أنها، مثلما كان يفعل صاحب المصنع، سوف توسعه ضرباً على عصيانه، بل الأسوأ من ذلك هو أنها قد تعيده ثانية إلى المصنع الذي هرب منه. لقد كان يشعر بالوحدة والألم والخوف. ومع ذلك، كان مصمماً على البقاء حيّاً.

كرو نام: الصديق وقت الضيق

عرفت كرو نام أن مجرد اقتحام مواخير الجنس، وإنقاذ الأطفال، لا يمثل إستراتيجية بعيدة المدى، فقد كانت تعرض سلامتها وسلامة الأطفال للخطر. ولذلك، استبدلت طريقتها السابقة: فكوّنت فرقاً تجوب شوارع أسواق الظلام في تشيانج ماي بحثاً عن الأطفال القادمين بالحافلات من الحدود التايلاندية - البورمية، في الوقت الذي كان فيه عملاء مواخير الجنس يبحثون عن الأطفال الهاربين. وكان السباق مريراً على من يصل إلى هؤلاء الأطفال أولاً.

وتأكدت كرو نام أنها لو انتقلت إلى موقع متقدم قبل وصول الأطفال إلى تشيانج ماي، فسوف تنتصر على تجار الرّقيق. لذا، انتقلت إلى مدينة ماي ساي الحدودية التي تبعد مئة وخمسين ميلاً عن تشيانج ماي، وأنشأت مركز إيواء استقبل في بداية الأمر خمسة وعشرين طفلاً، ثم وسعته بعد ذلك ليستطيع استيعاب نحو ستين.

وفي إحدى الليالي، عندما كانت تسير في شوارع المدينة، التقت تشان مصادفة وهو يغوص في حاوية قمامة؛ أملاً في العثور على فُتات يسدّ به رمقه. وغالباً ما يحتال أطفال الشوارع على العيش ببيع الأشياء القابلة للتدوير التي يعثرون عليها في مزابل ماي ساي. عندما نظرت كرو نام إلى تشان، عرفت أنها أمام طفل في مأزِق. أخبرها

أن عمره أحد عشر عاماً، ولكن جسده لم يكن يفصح عن عمره؛ لأنه كان مشوهاً من الحروق الشديدة (طريقة صاحب المصنع المختارة في التعذيب)، وهزيلاً بسبب سوء التغذية.

لقد سبق لتشان أن شاهد كرو نام من قبل عندما كانت تحث الأطفال على الالتحاق بالأنشطة التي تديرها منظمة Volunteers for Children Development Foundation (VCDF) (متطوعون لتطوير الأطفال). وعلى الرغم من تشرده، فإنه كان متحفظاً وهي تتحدث إليه؛ إنه لا يثق بالبالغين. صحيح أنه اشترك في شجارات الشوارع، وقضى يوماً أو يومين دون طعام، أو فقد ذاكرته بسبب استنشاقه الصمغ الصناعي، لكنه، مع كل هذا، كان حرّاً.

وفي إحدى الليالي، ذهب تشان إلى مركز الإيواء. وعندما دخل المبنى المكون من ثلاثة طوابق، سمع الأطفال يتدربون على مهارات اللغة، وشاهد نساء في مجموعات صغيرة يتعلمن الخياطة، وشاهد الكبار والصغار من زوار المركز يشاركون في الرسم والتلوين. عندها، شعر أن المركز مكان مريح، وأصبح يتردد عليه بانتظام مستفيداً من العلاج، ووجبات الطعام، والاستحمام المجاني. ونشأت بينه وبين العاملين في المركز علاقة صداقة، وعلّموه القراءة والكتابة وبعض الألعاب. ومع ذلك، فإن الأحلام - أو الكوابيس بالأحرى - لم تتوقف. فعلى الرغم من أنه أصبح قويّاً بدنيّاً وعاطفيّاً، فإن صورة شقيقته ظلت أمام ناظريه. كان يسأل نفسه دائماً: هل ما تزال حية؟ أم ما تزال سجينة في المصنع؟ وفي أحد الأيام، قرر أن يبوح بما يعتمل في داخله. لكن كرو نام أحست بخوفه وتردده في كشف معظم تفاصيل ما جرى له. وأخيراً، أقنعته بالانتقال إلى مركز إيواء الأطفال الذين يجري إنقاذهم، وحمل اسم (أصدقاء على قارعة الطريق) الذي يقع في الريف خارج مدينة ماي ساي. في ذلك المكان، نام تشان في سريره آمنا لأول مرة منذ سنوات؛ ليس تحت جسر ما، ولا على أرضية بيت سجّان عبيد.

وبعد أن كان تشان منعزلاً وخائفاً. أصبح ذاك الطفل المرح الذي استطاع تكوين صداقات مع أطفال آخرين من أترابه. كلّ ذلك، بعد انتقاله إلى مركز (أصدقاء على قارعة الطريق). إنَّه تشان أخيراً. وأخبر كرو نام بالقصة الكاملة. وبالأيام التي قضاها مُستعبدا في مصنع الثوم. وظل تشان كل ليلة يفكر في شقيقته سجينة في مصنع الثوم، ويتصور كيف ستموت دون أن يهرع أحد لمساعدتها، وكانت الدموع تنساب على وجنتي الطفل الذي لم يجرؤ أن يبكي مطلقاً.

آني ديزلبيرج؛ ضوء في الظلام

لحسن حظ المُستعبَدين في تايلاند، فإن كرو نام ليست المعارض الوحيد للعبودية الذي يقاتل على الخطوط الأمامية. فهناك آني ديزلبيرج – Annie Dieselberg التي رأت الحرية هدفاً لحياتها، وأنشأت مشروعاً في بانكوك يحمل اسم (نايت لايت) (ضوء الليل) إنترناشيونال Night Light International، الذي يوحي بصورة ضوء ينير ظلام التائهين، ومبشراً بغد أفضل. وقد امتزج إبداعها الرائع مع عاطفتها الشديدة في إخراج هذا المشروع إلى الوجود. وعندما أطلقت آني مشروعها عام 2005، كانت تأمل في توفير أبدال للفتيات اللواتي يعملن في مواخير البِغاء التجارية. لقد ظلت تعمل مع زوجها لعشر سنوات في مساعدة ضحايا تجارة الرق في بانكوك. وبعد أن شاهدت نساءً كثيرات يتعرضن إلى استغلال جنسي يحطّ من كرامتهن، أخذت آني تفكر في تغيير هذه الحال. وكانت أمام خيارين؛ الاستمرار في مساعدة الضحايا المحطمة بعد أن يرميها المستغلون، أو مواجهة المشكلة وجهاً لوجه والاصطدام بها. لقد قررت الخيار الصعب.

وقد اعتادت آني سلوك الطريق الأقل ارتياداً، وهي التي قضت معظم طفولتها في زائير، قبل أن تنتقل عائلتها إلى تايلاند وهي في طور المراهقة. وقد عاشت سنة واحدة مع عائلتها في تايلاند، ثم التحقت بمدرسة داخلية في الهند. وبعد تخرجها في المدرسة الثانوية، ظهرت في جامعة ويست فرجينيا وهي تلبس السروال والقميص

والخلخـال على طريقة نساء شبه القارة الهندية. وتقول آني وهي تتذكر تلك الأيام: يومهـا، لم يعرف الطلاب الآخـرون كيف يصنفون هذه البنت البيضاء الغريبة ذات الشعر الأحمر التي كانت تلبس وتتصرف مثل أي فتاة أجنبية تماماً. وتضيف ضاحكة: ربما كان شكلي مثل أي فتاة أمريكية عادية، ولكني بالتأكيد أثرت بعض الأفكار غير العادية داخل قاعة المحاضرات.

والـى هذا اليـوم، فإن مظهرها يبدو مخادعاً؛ حيث ما تـزال قامتها منتصبة، وبنيتهـا قوية على الرغم من تخطيها سن الأربعين وإنجابها أربعة أطفال. إنها تتّسم بعاطفة متقـدة، وتتحدث وتتصرف بحماس الأنبياء وصدقهـم. وعن تجارة الجنس تقـول: قد تبدو لك المرأة كما لو أنها حرة وأنت تجوب شوارع بانكوك، ولكنها ليست كذلك. غالباً ما يجري نقل هؤلاء النساء المُهرَّبات من مكان إلى آخر، وكثيرات منهن لا يعرفـن اللغة، ولا العملة النقدية التي تتعامل بها تلك البلاد. إنهن يشعرن بالوحدة والعزلة عن الأصدقاء أو العائلة التي قد تمد لهن يد العون. ولذلك، قررت آني اقتحام الميدان، ومدّ تلك اليد؛ ففي مطلع عام 2005 اصطحبت مجموعة أمريكية زائرة إلى أحد مواخير الجنس. وفي حين ظل الرجال خارج المكان، أخذت آني عدداً قليلاً من النساء إلى الداخل. وتقول آني عن ذلك: جلسنا مع فتاة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً فقط، وهي أم لطفلين. أخبرتنا كم تكره العمل في هذا المكان. وعندما سألتها: أين تحب أن تكون بدلاً من ذلك، قالت: في البيت بصحبة طفليّ. دفعت آني ورفيقاتها إلى صاحب الماخور ست مئة بات نحو خمسة عشر دولاراً لاستئجار المرأة لليلة واحدة، فهذا هو السعر المعتاد الذي يدفعه الزبائن لليلة ترفيه كاملة. وقد تحول هذا المبلغ إلى ثمن للتوبة؛ لأن تلك المرأة لم تعد إلى مكان عملها القديم.

قبـل مدة قصيرة، تدربت آنـي على كيفية صنع الجواهـر، فعرضت على تلك المرأة أن تعمل معها في صنع الجواهر لأغراض تجارية. قبلت المرأة العرض، وكانت أول موظفة في مشروع (نايت لايت). لم يكن لدى آني ورشة، أو مكتب عمل في ذلك

الوقت، فطلبت إلى موظفتها الجديدة مقابلتها في مطعم معروف في بانكوك. وبين رائحة الشواء التي تعبق بالمكان، أعطت آني تلك المرأة أول جلسة تدريب في صنع الجواهر، ثم عادت المرأة إلى بيتها وهي تحمل حقيبة مليئة بالخرز والأحجار النفيسة.

سلاح العار

العار هراوة تهوي على رأس المرأة المُسْتَعْبدة عند كل منعطف طريق. وتبدأ الرحلة مع العار عندما يبدأ الآباء في العائلات الفقيرة بلوم البنات على فقرهم. ولذلك، فإن معاناة الوالدين تجعل البنت تشعر بالعار وتأنيب الضمير، وبأنها السبب في هذا العوز. وكما تقضي التقاليد الاجتماعية، فإن البنات الصالحات يتحملن مسؤولية صحة آبائهنّ وإعالتهم، وعليهن أن يكنّ أكثر استعدادا للتضحية، مهما كانت، لتغيير وضع آبائهن.

إن نظرية المجتمع إلى الطهارة الجنسية ذات أثر كبير في شعور الفتيات بالعار. فعندما تفقد الفتاة غير المتزوجة عذريتها، فإنها تعدّ منهوبة، ولا فرق إن كان أحد أفراد العائلة هو من اغتصبها جنسيّاً، أو أي شخص آخر. فالطهارة كلّ لا يتجزأ، فهي إما أن تكون عذراء أو لا تكون. وسوف تعاملها عائلتها بأنها لطخة سوداء في شرف العائلة، إضافة إلى عزوف أيّ شخص يحترم نفسه من الاقتران بها. ولذلك، فقد تُباع هذه الفتاة في سوق البِغاء بعد أن فقدت طهارتها؛ ومن هنا ترتدي رداء العار الذي سيلازمها ما دامت حية.

إنّ تجار الرّقيق وأصحاب بيوت الدّعارة يستخدمون هذه القيمة الثقافية في النظرة إلى العذرية لاستغلال الفتيات. فإذا قاومت الضحية الجديدة فكرة ممارسة الجنس مع زبون غني باحث عن المتعة، فإن الشخص الذي يستعبدها قد يغتصبها بنفسه، ثم يقول لها: لقد أصبحت الآن بضاعة مستعملة. وعندها، لن تجد هذه الفتاة التي تعرف القيمة الاجتماعية للعذرية أي حل سوى الاستسلام للأمر الواقع في بيت

الدَّعــارة. لقد فقدت كل شيء، وعائلتها سوف ترفضهــا، وجيرانها سوف يعاملونها معاملة المنبوذة، ولن تكون أمامها أي فرصة للعيش في مجتمع محترم.

وعند استسلام الضحية، سوف يستفيد منها أصحاب مواخير الجنس، والباحثون عــن المتعة، وقد يصــل الأمر إلى المسؤولين الحكوميين فــي بعض الأحيان. وتشير منظمــة العمل الدولية إلى أن السياحة الجنسية تسهم بنحو 15%من الدخل القومي لدول مثل: ماليزيا، وتايلاند، وإندونيسيا، والفلبين[18].

آني ديزلبيرج؛ الإعداد للمستقبل

إنّ البرامــج التــي تشجع الفتيات على الهروب من تجــارة الجنس، ثم تتركهن فقيرات وعاطلات عن العمل، لا تؤدي إلى قصص نجاحات طويلة الأجل. وتظل مثل هؤلاء الفتيات عرضة إلى الاختطاف من تجار الرّقيق مرة أخرى. ولذلك، أنشأت آني ديزلبيرج مشروعها لإعداد الفتيات للحياة بعد تركهن تجارة الجنس.

ويمكننا النظر إلى مشروع (نايت لايت) من زوايا عدة. فالمبتدئات، يعد هذا المشروع لديهن عملاً تجاريًاً لتدريبهن على صنع الجواهر التي أصبحت تعرض اليوم في تايلاند والولايات المتحدة. وعن هذه التجربة، تقول آني: كل واحد يجني أموالاً من هــؤلاء النسوة: تاجر الرّقيق، وصاحب الماخور وغيرهم. لكن هؤلاء النساء أنفسهن لا يفارقــن مستنقــع الفقر. والمفارقة هنا أن المجتمع لا يدفــع راتباً محترماً لامرأة فقيرة، في حين يدفع الباحثون عن اللذة بسخاء لاستغلال جسدها لدقائق معدودة.

وعلــى الرغم من محدودية الميزانية، فإن مشــروع (نايت لايت) يدفع ضعف الحد الأدنى الذي ينصّ عليه القانون التايلاندي. وبالتأكيد أن هذا الراتب لا يجعل النســاء العاملات غنيّات، ولكنه يساعدهن على الحياة النظيفة بدخل منتظم. وإذا أرادت الضحية الالتحاق بهذا المشروع، فعليها أن تعمل مدة أربعين ساعة في الأسبوع، وترك تجارة الجنس تماماً.

وتهدف سياسة المشروع من وراء دفع راتب منتظم بدلاً من دفع ثمن لكل قطعة تُنتج، إلى تسهيل رسالة المشروع الأخرى؛ وهي إعداد النساء صحيّاً وتعليمياً. فإضافة إلى العمل المطلوب في ساعات الدوام، يجب على النساء حضور ورشات عمل في العناية الصحية، والوقاية من الأمراض الجنسية، والإدارة المالية الشخصية، والإعداد الروحي، واللغة الإنجليزية.

لقد وظّف مشروع (نايت لايت) ثمانين امرأة، مع أنّ آني تقول: إن مئة وثلاثين امرأة تدربن في ورشات المشروع منذ انطلاقته عام 2005، وأن هناك لائحة انتظار طويلة بالنساء الراغبات في الانضمام إلى هذا المشروع. ولكن الضوابط، وشحّ الموارد المالية عقبتان كبيرتان أمام توسّع المشروع. وفي الحقيقة أن آني لم تكن تنوي التوسع بالمشروع بهذه السرعة، لكنّ التّوسّع هذا حدث تلقائيّاً بعد انتشار خبر المشروع في بيوت الدعارة، وتزايد عدد الهاربات منها. حينها، مضت آني قُدُما نحو الأمام. وعن ذلك تقول: لقد شعرت في المراحل الأولى أن علينا إيقاف توسعنا. ولكني تلقيت مكالمة من فتاة شابة كنت أدعو لها لست سنوات، تسأل إن كنت أستطيع مساعدتها على ترك تجارة الجنس، فرأيت في ذلك إشارة من الله تعالى إلى المضي قدماً ومواصة العمل.

شون ليتون؛ اعتقال عصابة تجار البشر

تصوّر نفسك في غرفة مظلمة، تمد يدك لتمسك شيئاً تعتقد أنه أفعى، ثم تدرك أنك تمسك ذيل فيل. هكذا يصف شون ليتون، نائب رئيس بعثة العدالة الدولية، المصادفة التي ينطوي عليها التحقيق في عمليات الاتّجار بالبشر. حيث قد تؤدي معلومة بسيطة إلى عملية اعتقال كبيرة.

تستخدم بعثة العدالة الدولية مجموعات خبيرة ومدربة في العدالة الشعبية؛ محقق جرائم، مدعين عامين، محللين سياسيين، ودبلوماسيين - لمواجهة العبودية

أينما وجدت. وتجمع هذه الفرق إثباتات تفصيلية عن الحجز غير القانوني، وتشجع سلطات الشرطة المحلية على تحرير العبيد. ثم تتعاون هذه الهيئة بعد ذلك مع المحامين المحليين لرفع قضايا أمام المحاكم ضد المهربين أو من يحتجزون عبيداً.

ويشير ليتون إلى معلومة تلقاها من منظمة غير حكومية في تايلاند أواخر عام 2004، مفادها أنّ رجلاً تايلانديّاً اتصل بها بعد أن أُجبر على دفع ألفٍ وخمس مئة دولار لشراء حرية ابنة أخيه من الأسر. وفي التفاصيل، أفاد الرجل أن ابنة أخيه سيري هاتفته من ماليزيا طالبة النجدة. كانت مجموعة من الرجال المسلحين تحتجزها رهينة في أحد بيوت الدعارة، طالبة فدية لإطلاق سراحها. وفعلاً، أطلق المسلحون سراح سيري بعد دفع الفدية، وهي الآن في بيتها سالمة. لكن عم البنت يطالب بمحاكمة هؤلاء الأشخاص الذين أكرهوا البنت على ممارسة البغاء.

التزمت المنظمة غير الحكومية بمساعدة العائلة، ولكنها أدركت أن ليس بمقدورها التعامل مع المجموعات المسلحة في سوق الجنس القسري. ولذلك، طلبت مساعدة بعثة العدالة الدولية، التي تعارض دفع أموال لتجار الرّقيق فديةً لإطلاق سراح العبيد.

حصلت البعثة من سيري على معلومات مالية وشخصية قليلة عن تجار الرّقيق الذين كانوا يحتجزونها، ما هيأ فرصة فتح تحقيق في القضية.

اجتمع أحد المحققين مع سيري لتسجيل كل شي تعرفه عن مختطفيها. أخبرته الفتاة بأن زعيم العصابة التي اختطفتها يُدعى جوني. وقالت: إنها كانت تعمل خياطة في مدينة ماي ساي التايلاندية براتب مقداره خمسة وسبعون دولاراً شهريّاً، وهو راتب مُجْزٍ بالمقاييس المحلية، وبخاصة لفتاة في العشرينيات من عمرها. لكن امرأة تعمل لحساب جوني أقنعتها بتأمين وظيفة لها في أحد مطاعم ماليزيا براتب أوّلي قدره مئتان وخمسون دولاراً في الشهر. يومها، قالت لها تلك المرأة: أنت فتاة

شابة، وعمرك إحدى وعشرون سنة. ومن المحتمل أن تقابلي هناك رجلاً صينياً ثريّاً يعشقك ومن ثمَّ يتزوجك.

عندما وافقت الفتاة على العرض، ساعدتها تلك المرأة على تقديم طلب للحصول على جواز سفر، وتولت أمر ترتيبات الانتقال من تايلاند إلى ماليزيا. في اليوم المحدد للسفر، وضعت المرأة الفتاة على متن حافلة صغيرة مع مجموعة من الفتيات المحظوظات اللواتي حصلن على وظيفة في مطعم، وحال عبورهن حدود تايلاند الجنوبية، ووصولهن إلى المدينة المقصودة، كان جوني في انتظارهن.

ولخيبة أملهن، أخبرهن جوني أن مصلحته في إحضارهن إلى هذه المدينة تقضي بربطهن بعقد مدته ستة أشهر للعمل في مهنة الترفيه. وللتحكم فيهنّ أكثر، طلب إليهن تسليم جوازات سفرهن للمحافظة عليها.

وقد أعطت سيري محقق بعثة العدالة الدولية ما يكفي من المعلومات للتأكد أن جوني لا يعمل وحده، بل هو جزء من عصابة جريمة منظمة. ففي أثناء الأسابيع القليلة التي قضتها في ماليزيا، أجبرت سيري على العمل في بيوت عدة للدعارة، تعمل في كل واحد منها مئتا امرأة أو أكثر. وقالت الفتاة: إنها كانت تحت رقابة دائمة، وإن الحراس المسلحين لم يفارقوها إطلاقاً.

كان المجرمون يرفضون أن يبني العبيد أي علاقة وثيقة يمكن من خلالها تدبير عملية هروب. ولذلك، كانوا ينقلون هؤلاء النساء باستمرار من بيت إلى بيت ومن ماخور إلى آخر. وببساطة، عرفت سيري أن معظم الضحايا الأخريات قد جئن من دول مختلفة من جنوب شرق آسيا.

بعد أن قضت سيري أسابيع عدة رهينة، طلبت من جوني يوماً أن يعيدها إلى تايلاند. فأخبرها بأنها تطلب المستحيل لأنها مدينة له بألف وخمس مئة دولار بدل النقل، وجواز السفر، والإيواء، والطعام، وأجر المرأة الوسيطة. عندئذ، وعدته بإمكان تدبير هذا المبلغ إذا سمح لها بمهاتفة عائلتها. وعندما وافق على طلبها، اتصلت بعمّها، الشخص الوحيد الذي كانت تأمل منه إخراجها من هذه المحنة.

ساعدت هذه المعلومات محقق بعثة العدالة الدولية على وضع خطة للوصول إلى هذه العصابة الإجرامية. عن ذلك يقول: إن هذه الحالة تمثل عناصر الاتّجار بالبشر جميعها: النصب، والاحتيال، وأشغال السّخرة، والعبودية الجنسية، وانتهاك قانون الهجرة، والاختطاف؛ كلّ ذلك في شَرَك واحد.

ونظراً لأخطار مواجهة شبكة مافيا معقدة إلى هذا الحد، طلب ليتون مساعدة من مكتب البعثة الرئيس في واشنطن، فأرسلت البعثة كبير محققيها، الذي يسميه ليتون (العبقري) حتى لا يكشف عن اسمه لحالات مستقبلية، إلى المدينة المقصودة عميلاً سرّيّاً.

بعدما قام محقق البعثة بجولات على بيوت الدعارة المعروفة في المدينة، تأكد بنفسه أن سيري لم تبالغ في وصف الحراسة المشددة المفروضة على هذه البيوت. كان الحراس المسلحون يستخدمون أجهزة اللاسلكي، ويقومون بجولات حول البنايات التي كانت تُغلق بأبواب حديد، ويطل الحراس من كوّات صغيرة فيها لاستطلاع الزبائن المحتملين، ثم تفتيشهم قبل دخولهم.

استطاع العبقري أن يتجاوز الإجراءات الأمنية على الباب الأمامي للماخور، ثم أجلسه أحد سماسرة البغاء في شرفة يستطيع منها استعراض المومسات واختيار ما يحلو له منهن.

لقـد وصـل المحقق الآن إلى نقطـة حاسمة، ومن هنا اكتسـب لقب العبقري. أخذ يقيّم على أرض الواقع المرشحات المحتملات اللواتي يمكن أن يتعاونّ معه في التحقيق. ونظراً للتهديد الدائم باستخدام العنف، كانت بعض النساء مرعوبات لدرجة لا يمكنهـن معها خيانة السّجانيـن. في حين كانت هناك بعض المومسات الراغبات في تقديم خدمة لسجّانها من خلال كشف هوية المحقق. لذا، كان على العبقري أن يتعامـل مع النساء من خلال ملف صفـات الشخصية المخصوص به. أما كيف كان يفعل ذلك؟ إنّه لغز حتى بالنسبة إلى ليتون نفسه.

على مدى الأيام اللاحقة، استطـاع العبقري إجراء مقابلات مع مجموعة من النساء اللواتي كن سعيدات بإطلاعه على حكاية اختطافهن وأسرهن، ثم سجّل هذه المقابلات، وطلب إليهن مواصلة عملهن كالمعتاد؛ حتى لا يثرن شكوك أصحاب بيت الدعـارة. وعلى الجانب الآخـر، كان محامو بعثة العدالة الدوليـة يعملون على مدار الساعـة لتحويل التسجيلات إلـى تقرير قوي يمكن أن يدعم أي قضية مرفوعة أمام المحاكم ضد المجرمين.

كشف التحقيق تفاصيل كثيرة عن عصابة تهريب النساء اللواتي اختطفن رغم أنوفهـنّ مـن دول جنوب شرق آسيا جميعهـا، ولا سيّما: كمبوديـا، وفيتنام، وبورما، ولاوس، وتايلاند، وجنوب الصين. كانت أصغر هؤلاء المُختَطفات فتاة عمرها أربعة عشـر عاماً، فـي حين تراوحت أعمار معظـم الأخريات بين ست عشـرة إلى خمس وعشرين سنة. كان على كل مومس أن تخدم ما بين سبعة إلى ثمانية زبائن في الليلة الواحدة مقابل أربعين دولاراً لكل معاشرة جنسية. وفي حال لم يكن هناك ما يكفي من العمل للبغايا كلهن، كانت العصابة توزعهن على بيوت مختلفة في أنحاء المدينة على مجموعات من عشرين امرأة، ما يجعل من الصعب على الشرطة القبض عليهن. بعد ذلك، تبين أن عصابة مافيا آسيوية هي التي تدير هذه العصابة، وخلايا أخرى

فــي دول جنوب شرق آسيا جميعها. أما زبائن بيوت الدعارة هذه، فهم رجال أعمال آسيويون أثرياء غالباً.

وعندما تأكد فريق بعثة العدالة الدولية أنه جمع أدلة كافية، تولى مهمة تنسيق التعــاون بين مختلــف أجهزة الشرطة في تايلاند والــدول الأخرى المعنية. ولم تكن هــذه الأجهزة قــد تعاونت قبل هذا التاريــخ في قضايا الاتّجــار بالبشر. والأهم من هــذا كلّه، هو أن البعثــة قدمت تقريراً بتحقيقاتها إلى السلطات العليا المشرفة على تطبيق القانون في ماليزيا. وبعد دراستهم لهذا التقرير، أظهر كبار ضباط الشرطة حماســاً كبيراً للقضاء على هذه العصابة. ونظراً لوجود ثغرات في القانون المحلي، توصلــت البعثة إلى اتفاق ينص على التزام الشرطة بشرطين رئيسين، هما: معاملة المومسات بأنهنّ ضحايا لا مجرمات، ومحاكمة المجرمين، لا مجرد اعتقالهم فقط.

في مطلع إبريل 2005، هاجمت قوات كبيرة من الشرطة عدداً من بيوت الدعارة الكبيرة العاملة في المدينة المُستهدفة. ولسوء الحظ، تسربّ خبر الغارة، ولم يُعتقل حينئذ سوى فرد واحد من أفراد العصابة. وعلى الرغم من هذا الفشل، فإن الشرطة استطاعت إنقاذ خمس وتسعين امرأة.

لقد كانت هذه الحالة نقطة بداية بالنسبة إلى البعثة التي شدّدت جهودها حتى الآن على كشف عمليات الاتّجار بالبشر داخل تايلاند وكمبوديا. وبعد كشف الصورة العامــة للاتجار بالبشر، قيّمت البعثة عملياتها لتتناسب مع حجم الشبكات المعقدة الآخذة في الانتشار في عموم جنوب شرق آسيا.

وفي مرحلة لاحقة، تمكنت الشرطة المحلية، في أعقاب عمل البعثة والشرطة، من اعتقال أحد العملاء الرئيسين لعصابة التهريب هذه، وسبعة من المتعاونين معه، من بينهم المرأة التي احتالت على سيري. وقد رفع محامو البعثة قضية ضد هؤلاء، وأثبتوا أن المتاجرين بالبشر يمكن أن يلاقوا جزاءهم إذا ما طبّق القانون.

آني ديزلبيرج؛ الشرطة على الحياد

عادة ما يتساءل أصدقاء آني في الولايات المتحدة ببراءة: لماذا لا تذهبين، ببساطة، إلى الشرطة وتبلّغين عن إكراه النساء على ممارسة البغاء؟ عندما يُطرح عليها هذا السؤال، سرعان ما كانت تعود إليها صور تجارب لا تزال ماثلة في ذاكرتها. في عصر أحد الأيام، كانت آني تعبر أحد الشوارع الكبيرة في بانكوك، عندما سمعت صراخ امرأة كانت تتعرض إلى اعتداء على الجانب الآخر من الشارع. كانت المرأة تحاول الهرب من رجل يزيد حجمه على حجمها بمرتين، لكنه لم يلبث أن أمسك بها، ثم وضع شيئاً حاداً ولامعاً بيده اليمنى على رقبتها، في حين استخدم يده الأخرى لجرّها إلى سيارة واقفة على الرصيف، وبابها مفتوح.

شعرت آني بانفعال كبير وهي تشاهد مأساة تلك المرأة، وأخذت تنظر من حولها محاولة فعل شيء لمساعدة تلك المرأة. وفجأة، أحست بارتياح عندما رأت رجل شرطة تايلانديّاً يقف خلفها بلباسه الرسمي الكامل. كان الشرطي يراقب المشهد الدائر على الجانب الآخر من الشارع، ولكنه لم يفعل شيئاً يشير إلى أنه سوف يتدخل.

أحست آني بالغضب لأنها لا تطيق رؤية الظلم. ذهبت إلى الشرطي، وطلبت إليه بأدب اجتياز الشارع وإنقاذ المرأة. هزّ الشرطي كتفيه بلا مبالاة، وقال: إنها فتاته، وسوف يحلاّن مشكلتهما وحدهما. في تلك اللحظة، كان الرجل يدفع بالمرأة إلى الكرسي الخلفي من السيارة. ظلت المرأة تصرخ طالبة النجدة دون جدوى. أمّا الرجل فقفز إلى مقعد السائق، واندفع بسيارته محدثاً بعجلاتها صريراً يصمّ الآذان. نظرت آني في وجه الشرطي وقالت له: لِمَ ترتدي هذا الزّيّ؟

الرجال الذين يرفعون الطلب على النساء

تمتلئ شوارع بانكوك كل ليلة برجال في منتصف العمر، وهم يسيرون متشابكي الأيدي مع فتيات مراهقات. وفي الحقيقة أن سياح الجنس هؤلاء يأتون إلى هذه المدينة

مـن أنحاء العالم بأسـره؛ لممارسة نزواتهم الشخصية. يدفـع بعض هؤلاء الرجال ثمـن متعة سريعة، في حيـن يفضل كثيرون شراء صديقة لليلـة كاملة أو لأيام عدّة. يتصرف هؤلاء الرجال كما لو أنّهم مراهقون صغار، ويسيئون معاملة من يواعدونهن أمام الآخرين دون حياء.

وتروج وكالات سياحة متخصصة في العالم مغامرات جنسية مثيرة مع مومسات آسيويات، خبيرات في إسعاد الرجال. وعندما ينجح سياح الجنس في التجربة الأولى، ويعرفون بأنفسهم سهولة شراء الفتيات الصغيرات، فغالباً ما يكررون هذه الزيارات الماجنة.

على المستوى العالمي، صُنِّفت تايلاند بأنها دنيا المغامرات الجنسية. وقد تتبعت مجموعـة تعنى بحقوق الطفل في بانكوك ازدهـار سياحة الجنس على مدى عقدين مـن الزمن. وتظهر دراسـات المجموعة أن مليوني سائح أجنبـي زاروا تايلاند عام 1984، مقابل أربعة ملايين زاروها عام 1988، أما في عام 2003 فقد وفد إليها أكثر مـن أحد عشـر مليوناً [19]. ومن بين المجموع الكلي للزوار الأجانب، كان ثلثاهم من الرجال المنفردين، أي إن 7.3 مليون رجل منفرد زاروا تايلاند عام 2003. وبالتأكيد أن هـؤلاء السياح جميعهم لم يأتوا للسياحة الجنسية، ولكن يمكن التقدير بأن عدداً كبيـراً منهم جاء لهذه الغاية. وفي الحقيقة، وبناء على مسح لوكلاء السياحة أجرته وكالـة المساعدة العالمية «آيد فيجن» فإن 65% مـن السياح القادمين إلى كمبوديا كانوا رجالاً؛ خُمسهم جاؤوا لممارسة الجنس[20].

إنّ الرجال الباحثين عن الجنس، القادمين من اليابان، والصين، وكوريا وتايوان يرفعون الطلب على الفتيات الصغيرات العذراوات. وهنـاك اعتقاد في هذه الثقافات الآسيوية، بأن ممارسة الجنس مع عذراء يجلب الحظ للمشروعات التجارية الجديدة. وأن الفتيـات العذارى أقل خطراً في نقل الأمراض الجنسية. وجاء في تقرير أعده نيكولاس كريستـوف، الحائز على جائـزة بولتزر، في صحيفة نيويـورك تايمز عام

2009، أنه يُجرى إعادة ترقيع غشاء بكارة الفتيات لإعادة بيعهن كما لو أنهن أبكار. وقال: إن إحداهن بيعت أربع مرات بهذه الطريقة[21].

وقد أدى الطلب المتزايد على العذراوات إلى نشوء سوق فرعية خارج مسارب الجنس التجاري المعتادة - الحانات، أندية الغناء، وبيوت الدعارة. في هذه السوق، يُسوِّق الآباء عذرية بناتهم، كما لو أنهم وكلاء مستقلين. وقد يبيعون بناتهم من عمر أثنتا عشرة أو ثلاث عشرة سنة لمن يدفع أعلى سعر. ومع أن هذا الأسلوب غير واسع الإنتشار، فإن من المعروف بأن الرجال اليابانيين والصينيين كانوا يدفعون للآباء مقدماً لسنوات من أجل رعاية بناتهم الصغيرات. وبناء على هذا التقليد، تتلقى العائلات دفعات منتظمة لتربية بنات صحيحات الأجسام. وعندما يكون الراعي جاهزاً، فإنه سوف يأتي لممارسة الرذيلة مع هذه الفتاة أو تلك.

ومن ناحية أخرى، يميل سياح الجنس الغربيين إلى ارتياد الحانات وبيوت الدعارة في المدن الكبرى، مثل بانكوك. ومع أن بعضهم قد يطلب ممارسة الجنس مع الأطفال، فإن معظمهم يتصرفون بطريقة انتهازية؛ بمعنى أنهم يتصرفون بتلقائية تجاه ما يحدث عندما يصلون إلى حانة جنس أو نادي غناء. وهناك بعض الرجال الذين ربما لم يكونوا قد خططوا مسبقاً للدخول في لعبة الجنس التجاري في رحلاتهم إلى جنوب شرق آسيا، ولكنهم يجدون الأمر سهلاً عندما يصلون إلى هناك.

ومن الواضح أن السياحة الجنسية تزيد الطلب على العبودية الجنسية، لكنّ مساهمتها في تجارة الجنس في جنوب شرق آسيا مبالغ فيها كثيراً في وسائل الإعلام العالمية. وفي الحقيقة أن العدد الأكبر من طالبي المتعة الجنسية مدفوعة الأجر هم من سكان البلاد الأصليين، بحسب ما ذكرته الوزيرة السابقة لشؤون المرأة في كمبوديا موسوشوا، التي قالت: الأجانب ليسوا الوحيدين الذين يبتزون أطفالنا، بل إن المرض الحقيقي ينبع من داخلنا[22]. وقد أكد هذه الحقيقة تقرير لصحيفة الأوكونومست البريطانية عام 2008، جاء فيه: ما زالت حكومات جنوب شرق آسيا تتحدث أحياناً

كمـا لو أنه لا يوجد شـاذّون محليون يميلون إلى ممارسة الجنس مع الأطفال. ومثلما كان عليه حال الغرب في الماضي، غالباً ما يكون الأغنياء فوق القانون[23].

وقد جرت العادة أن الرجال في كمبوديا وتايلاند، على نحو خاص، يرتادون بيوت الدعارة بوصفه جزءاً من التسلية الليلية. ويشير عدد من الدراسات التي أجريت في كلّ من كمبوديا وتايلاند إلى أن نحو 40% — 50% من الرجال يمارسون الزنا مقابل المال سنويّاً[24]. وتتقبل النساء المتزوجات بصمت حقيقة أن أزواجهن سوف يدفعون نقوداً لممارسة الجنس مع الأولاد، وتبرر النساء ذلك بأن للرجال احتياجات جنسية، وأنهم في الأقل لا يسعون وراء النساء العازبات اللواتي يمكن أن يأخذن مكانهن.

وعلـى هذا، فقد أصبح الزنا جزءاً من كثير من الطقوس الاجتماعية. فرجال الأعمـال يستخدمـون الجنس مدفوع الأجـر بأنه تقليد من تقاليـد إتمام الصفقات التجاريـة: فالشركـة التي لا تقدم لزبائنهـا الجنس قد تخسر أمـام شركة منافسة تقدم هذه الخدمة. أما رجال الطبقة العاملة فيقدمون الجنس لأصدقائهم في أعياد ميلادهـم أو في المناسبات الشخصية. ثم إن الآبـاء الشغوفين بأبنائهم يدفعونهم ليمروا بتجربتهم الجنسية الأولى في بيت دعارة.

آني ديزلبيرج؛ فكّ السحر

تزور آني وفريقها حانات الجنس في بانكوك مرتين في الأسبوع؛ ليتمكنوا من تمتين العلاقات مع النساء اللواتي يعملن فيها. وطالما ظلوا يطلبون المشروبات بمعدل معقول، فإن صاحب الحانة لا يمنعهم من الدخول. أما بعد أن ذاع صيت مشروع (نايت لايت) بديلاً لنوادي الجنس، فقد أصبح أصحاب البارات يحذّرون النساء العاملات من التحدث إلى آني وفريقها.

ما يزعج آني هو أن كثيراً من النساء قد استسلمن لمصيرهن، ولا يحاولن البحث عن طريق للخلاص. وسبب هذا الاستسلام هو أن أصحاب الحانات جعلوهن يعشن

في رعب دائم من خلال تعريضهن للعنف وتهديد عائلاتهن. ويأخذ العنف هناك أشكالاً متعددة، فإضافة إلى الضرب، يلجأ أصحاب تلك الحانات إلى السيطرة على أولئك النساء البائسات عاطفيّاً وروحيّاً.

ويلجأ بعض أصحاب الحانات إلى إجراء طقوس روحية داخل الحانة في المساء قبل خروج الفتيات إلى مواعيدهن. وقد حضرت آني بعض هذه الطقوس، ووصفت المشاهد الغريبة التي رأتها. ومن هذه الطقوس، أن صاحب الحانة يرتب النساء في حلقة، ثم يأتي بطوطم (عمود خشبي منحوت ومزين بنقوش ورموز بوذية) على صورة العضو الذكري. بعد ذلك، يرش الرجل ماء على الطوطم، ثم يمرره على النساء ليتحسسنه. بعد أن يمرّ الطوطم على النساء جميعهن في الحلقة، يحمله الرجل ويدور به في أرجاء الحانة، ويلمس به الطاولات التي سيجلس عليها الزبون في تلك الليلة. وأخيراً، ينتقي الرجل فتاتين لإنهاء الطقوس الاحتفالية. تخرج الفتاتان إلى باب الحانة الأمامي، وتضعان الطوطم بين أرجلهما، ثم يرشان الماء بأرجلهما صوب الشارع.

إنّ هذه الطقوس الدينية ذات أثر كبير في نفوس النساء، ولا سيّما النساء القرويات اللواتي نشأن في مناطق ريفية نائية، حيث يعتقد الناس هناك أن الأرواح إذا دخلت إنساناً ما فإنها تتلبسه كلّه. وكثيراً ما كانت النساء اللواتي يكرهن تجارة الجنس يسألن آني عن كيفية التخلص من الأرواح الشريرة. وحتى لو أن هؤلاء النسوة هربن من قبضة صاحب الحانة، فلن يتخلصن أبداً من اعتقادهن بمسّ الجنّ لهنّ.

وتوضح آني أن مقاومة شبكات الإجرام التي تسيطر على تجارة الجنس يجب ألّا تقتصر فقط على مجرد الجهود المتواضعة لمكافحة الرق، بل على الأديان القيام بدورها أيضاً. وعن ذلك تقول: لقد قضيت معظم طفولتي في زائير (الكونغو) وفي تايلاند، وقد شاهدت ما يكفي من الظلم. ولكني عندما أرى الظلمة التي تغطي حياة النساء والأطفال الصغار في تجارة الجنس، فإني أشعر أني أواجه شياطين مَرَدَة.

ولهذا السبب، فإنها تحث المنظمات الدينية على المساهمة في الجهود الدولية الراميــة إلى مكافحة تجارة الجنس؛ فالعالم في حاجــة ماسة إلى الحب والتماسك العائلــي. وعلى الذيــن يقولون: إن الدين يدعــو لهذا، أن يقرنوا القــول بالعمل، وأن يخرجوا إلى الشارع ويعيشوا الواقع كما هو.

كرو نام؛ أم لأكثر من مئة طفل

كانــت كرو نام كثيراً ما تسأل تشــان إن كان يرغب في العودة إلى بيته ليعرف ما إذا أُطلق سراح أخته، وأنها عادت إلى البيت. وفي كل مرة تسأله فيها، كان تشان يهز رأسه بالنفي. وفي آخر مرة سألته هذا السؤال، كشف لها شيئاً كان يخفيه عنها. قال لها بأنه تسلل إلى كمبوديا قبل عام مضى، واستطاع حتى في جنح الظلام معرفة أن أمــه لــم تعد موجودة في المنزل، وأن عائلة أخــرى سكنته. ولو أنه قدّر لتشان أن يهتــدي إلى المصنع مــرة أخرى، فربما وجد أن صاحب المصنع قد تغيّر أيضاً؛ لأن المشروعــات التجاريــة في مدينة مــاي ساي عادة ما تكون مؤقتــة؛ فتجار الرّقيق لا يستقرون في مكان واحد مدة طويلة.

مرت ثماني سنوات على بيع تشان وشقيقته إلى تاجر الرّقيق، ولا يعرف تشان إن كانت شقيقته أو أمه على قيد الحياة أم لا. وعلى الرغم من هذه المعاناة كلها، فإنّ تشان سعيد بحريته. وهو مع مئة وعشرين طفلاً آخرين يشعرون بالسعادة لانعتاقهم من العبودية، بفضل فنانة تشكيلية آمنت بأن موهبتها العظيمة تكمن في إنقاذ الأطفال، لا في رسم اللوحات الفنية.

الحملة الكبرى؛ مساعدة كرو نام وآني ديزلبيرج

كما جاء بالتفصيل في نهاية هذا الكتاب، فقد كانت شجاعة كرو نام النادرة في إنقاذ الأطفال هي ما حفزني إلى التحول من مؤلف إلى ناشط في الحركة المناهضة للرق في العالم.

وهذا ما يبرر تشديد جهود حملة (ليس للبيع) العالمية على ما يجري في تايلاند.

وفـي الوقت الذي كان فيه هذا الكتاب على وشـك الطباعة. كانت كرو نام قد أنقـذت أكثر من ستين طفلاً ، وحصلت علـى قطعة أرض في منطقة المثلث الذهبي عنـد التقاء حدود لاوس، وبورما ، وتايلاند . ولكنها ظلت تعيش مع الأطفال في خيام وملاجئ مؤقتة. وقد وعدتها ببناء مساكن دائمة لها ، ونجحنا في جمع الأموال اللازمة عام 2007. ومنذ ذلك الحين، ونحن نمد لها يد المساعدة على توسيع قرية الأطفال تلك ، وإضافة دور جديدة. وفي نهاية عام 2009، استطعنا بناء مستشفى مع ما يلزمه من معدات ومستلزمات طبية بقيمة مليوني دولار. كان هذا المستشفى يقدم الخدمة لسكان المنطقة المجاورة. وليس للأطفال المحررين فقط.

كما افتتحت الحملة عام 2007 متجر الحرية التجاري الذي يُسوّق جواهر مشروع (نايت لايت) الذي أطلقته آني ديزلبيرج. ويذهب ريع كلّ عقد ، أو سوار، أو حلق أذن، يبـاع فـي المتجر أو عبر موقعه على الإنترنت، أو في حفلات دعم الحرية ، إلى فريق آني ديزلبيرج.

هاتان المبادرتان في تايلاند وجهان لعملة واحدة: فكرو نام تنقذ الأطفال، في حين تنقذ آني ديزلبيرج النساء. وفي الوقت الذي تقدم فيه كرو نام التعليم والعلاج للأطفـال للعناية بصحتهم وتطورهم على المدى البعيد ، تقدم آني ديزلبيرغ الدعم العاطفي والاقتصادي المستدام للنساء اللواتي لم يحظين في حياتهن بفرصة إعالة أنفسهـن وعائلاتهن من خلال دخلهن في المشـروع. وعندما تصلح كرو نام الجيل اللاحق من التايلانديين، تعمل آني ديزلبيرغ على إنقاذ الجيل الحالي. وتلتزم حملة (ليس للبيع) بأن تظل شريكاً فاعلاً مع هاتين المناضلتين الشجاعتين اللتين تظهران للعالم أهمية تكاثف جهـود المناهضين للعبودية في العالم من المذاهب والأطياف كافة. مثلما تتكاثف أشعة الضوء لطرد جيوش الظلام.

ثانياً

كسر أغلال العمال المُسْتَعْبدين

الهند

يعـدّ جاري هاوجن Gary Haugen مفخرة لمهنة المحاماة؛ فهو يتمتع بسمعة طيبـة، وتعليم ممتاز، وتاريخ مهني راقٍ، يؤهله لرئاسة كبرى الشركات، أو الحصول علـى وظيفة في الجهـاز القضائي يحسـده عليها كثيرون. تخرج جـاري من جامعة هارفارد، ثم حصل على شهادة في المحاماة من جامعة شيكاغو، ومن ثَمَّ شغل منصب محامي محاكمة في قسم الحقوق المدنية في وزارة العدل الأمريكية، متخصصاً في الدفـاع عن موكليه. وقد أعارتـه وزارة العدل إلى منظمة الأمم المتحدة لإدارة ملف تحقيقات في جرائم حرب.

ومن حسن حظ سجناء العبودية أنه انضم إلى حركة مناهضة الرق، مستخدماً موهبتـه في تحرير المُسْتَعْبدين مـن أغلالهم. في 1997، أنشأ جـاري بعثة العدالة العالميـة (المنظمـة التي حررت بُندا وبقيـة أبناء قريته من سجـن مطحنة الأرز) وحوّلهـا إلـى حركة نشطة متطورة. ويعـدّ جاري نموذجاً للإنسـان العملي. فهو مثل جنـرال منهمك في خضم معركة، يمكن أن يسرد لك إستراتيجية دقيقة للتعامل مع الوضع القائم، وفي اللحظة اللاحقة قد يضفي لمسة فلسفية على معنى الخير والشر، أو يشـرح مفهومه للدولة في المجتمع المدني. إنه تركيبة نادرة من المواهب، تدفعه الفِكَر العظيمة، ولكنه يتصرف بدقة الطبيب الجراح.

إنّ مكتبه الكائـن في إحدى ضواحي مدينة واشنطن يعطي مزيداً من الدلائل على تميّز هذا الرجل. إذا دخلت مكتبه، فستشاهد على رفّ الكتب حجرين، أحدهما فـوق الآخـر. وإنْ سألتـه عما ستحققه بعثـة العدالة الدولية، فإنـه يستدير إلى رف الكتـب ويلتقط الحجرين، ثـم يخبرك كيف عانى في اكتشاف قرية كاملة في جنوب آسيـا مُسْتَعْبدة بالكامل، وتكـدح في مقلع حجارة، حيث يجبر صاحب المقلع، عديم الإحساس، سكان القرية؛ صغاراً وكباراً، أن يكسّروا قطع الصخور الكبيرة إلى قطع صغيـرة مناسبة للبناء. بعد ذلـك، يروي لك كيف ساعدت بعثة العدالة الدولية على تحرير هؤلاء العبيد. وعرفاناً من أهل القرية بما فعله جاري من أجلهم، أهداه أحد أطفال القرية هذين الحجرين تذكاراً.

وعندما تعيقه الإخفاقات، يذكره الحجران بالأخطار الكبيرة التي ينطوي عليها عمل البعثة.

نارايان؛ الخديعة الأولى

لم يفارق نارايان Narayan حظه السيئ طوال حياته، لدرجة أن معروفه انقلب لعنة عليه. كان ناريان قد زار السيد فاسو Vasu بنيّة طيبة، وكلمات أخته مايا Maya لا تزال ترن في أذنيه: نارايان، لا نقود لدينا، حاول إيجاد عمل لنا. كان نارايان يعمل في فـرن للطوب، وقد أخذ قرضاً من صاحب الفرن لشراء بقرة. وكان عمه (آمار) وابـن عمه (بيشو) قد أخـذا قرضاً نقديّاً من الرجل ذاته. وقد عمل الرجال الثلاثة في الفرن لأكثر من سنة، ولكنهم فشلوا في سداد الديون المتراكمة عليهم.

كان معظـم أقـارب نارايان يعيشـون في القريـة نفسها التي وُلـد فيها. وكان صاحـب الفرن يسمح للرجـال الثلاثة بزيارة أقاربهم فـي المهرجانات الدينية. لم يكن المهرجان يعني بالنسبة إلى عائلاتهم الاحتفال ببذخ، ولكن مجرد الذهاب إلى النوم بمعدة ممتلئة كان سبباً كافياً لحضور الاحتفال.

لقد أثبت التعاضـد العائلي أنه أفضل دفاع أمام عضّة الجوع والفقر. ولذلك، عندمـا سأل صاحب المصنع إن كان نارايان يعـرف أحداً يبحث عن عمل، سرعان ما فكّر في أخته مايا.

قــال صاحــب المصنع: لي صديق يدير فــرن طابون له، وسـوف يوفر المأوى والمأكل في الموقع. وفي اليوم اللاحق، زار نارايان وعمه آمار صاحب العمل الجديد السيد فاسو. أظهر لهما الرجل من الترحيب والاحترام أكثر مما قد يحلم به أشخاص مثلهما ينتمون إلى الطبقة المنبوذة. ولم يتذكر الرجلان، وهما يتناولان الرز المخلوط بالدجاج، آخر مرة أكلا فيها وشبعا. بعدئذٍ، تطرق السيد فاسو إلى الموضوع مباشرة، وقــال لهما: أريد أكثر من عشرة عمال يستطيعــون العمل مباشرة. ردّ عليه نارايان: سـوف تأتــي أختي وزوجها، وعدد آخـر من أقاربنا. ولكنهم يحتاجـون إلى ست مئة وخمسين دولاراً دفعة أولى؛ ليستطيعوا تدبّر بعض الاحتياجات الضرورية. ردّ السيد فاسـو: موافق. ولكنهم سوف يعملـون عندي، وعندي فقط، إلى أن يسددوا كل دولار من هذا المبلغ. انتظر الرجل حتى هزّ نارايان وعمه رأسيهما بالموافقة، ثم أضاف شرطـاً آخر: وإذا ما هربوا دون أن يسدّدوا هذا المبلغ، فسوف أحملكما المسؤولية. وعليكما كفالتهم.

غـادر نارايان وآمار مزرعة الرجل بمعنويـات عالية جدّاً وهما يطيران فرحاً. فإذا وزّعنا ست مئة وخمسين دولاراً على العائلة، فتلك هبة من السماء. إضافة إلى ما أبداه السيد فاسو من دماثة تشير إلى أنه سوف يعتني بأقاربهما كثيراً. وكان نارايان يحثّ الخطى متحمساً لإبلاغ شقيقته بتلك الأخبار السارة.

جاري هاوجن: «أريد شخصاً ينقذني!»

يتمتـع جـاري بخبـرة كبيـرة فـي مناطـق الاضطرابـات. ففي عـام 1989، حينمـا كان يكمـل دراسـة الحقـوق، قضــى أربعـة أشهـر فـي الفلبيـن يحقـق في

الفظائع والانتهاكات التي اقترفتها قوات الجيش والشرطة بحقّ المدنيين. وفي أثناء إقامته في مانيلا، اتصل بالأشخاص الذين يعملون في الأحياء الفلبينية الفقيرة، في مجالات الرعاية الصحية، ومحو الأمية، والمشروعات الإسكانية والاقتصادية.

ومع مرور السنين، ظل جاري على اتصال مع أصدقائه هؤلاء الذين أبلغوه أنهم يواجهون صعوبات في تنفيذ أعمال الإغاثة والتنمية. وأخبره هؤلاء عن كيفية استغلال الأقوياء للفقراء، وكيف يستخدمون العنف لترحيل الفقراء إذا ما قاوموا الاستغلال. ومع أن قوانين البلاد تنص على حماية حقوق المواطنين، فإن جهاز الشرطة والمحاكم لا تطبق القوانين بعدالة. واعترف هؤلاء الأصدقاء بأنهم عاجزون عن فعل أي شيء عند انفجار العنف، فطلبوا نصيحته: ما الذي علينا فعله عندما يستغل القوي الضعيف؟

وتحدث هؤلاء الأصدقاء عن مشكلة مخيفة أخرى تواجههم، هي اختطاف الأطفال، وقالوا: إن البنات الصغيرات من عمر عشر إلى أربع عشرة سنة غالباً ما يختفين من مراكز الإغاثة. وعندما كان أحدهم يسأل الأطفال: لم أرَ روزا منذ مدة، هل تعرفون ما حدث لها؟ كان الأطفال يهزّون أكتافهم دون أن ينبِسوا ببنت شفة. ولا يكاد يمضي يوم لا تختفي فيه إحدى البنات. ويتكرر السؤال، ولكن لا جواب.

وأخيراً، استطاعوا اكتشاف الحقيقة، وهي أن البنات كن يُختطفن ويُجبرن على بيع أجسادهن في بيوت الدعارة. وعندما تعمّق أصدقاء جاري في التحقيقات، وجدوا أن الشرطة وسيطاً في إدارة هذه المواخير. سأل جاري نفسه: ما الذي على أصدقائي الطيبين فعله لإنقاذ هؤلاء التّعساء؟ لا يمكنهم الاكتفاء بتسجيل هؤلاء الفتيات بأنهن ضحايا لفساد الشرطة. وعلى أي حال، إنّهم لا يملكون الخبرة الكافية في التعامل مع الشرطة هؤلاء.

أدرك جاري أن ما يواجهه أصدقاؤه يقع في مجال تخصصه، وأن باستطاعته التعامل مع هذه القضايا والفوز بها؛ فقد تدرّب أصلاً على كيفية تفكيك أيّ مشكلة اجتماعية، ومن ثَمَّ وضع إستراتيجية مناسبة لحلها.

إنّ هذه المشكلة هي التي أرشدته إلى تكوين منظمة تعنى بإنقاذ ضحايا العنف، والاستغلال الجنسي، والعبودية، والظلم. وكان هو الموظف الأول في مكتب صغير في العاصمة الأمريكية. أمّا اليوم، فهناك نحو ثلاث مئة موظف يعملون مع بعثة العدالة الدولية، بدوام كامل، يتوزعون إلى أربعة عشر مكتباً في الدول النامية، إضافة إلى مكتب واشنطن. ويؤمن جاري بالقول المأثور: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك. قال مرة في إحدى المناسبات: ما الذي أريده فيما لو كنت حبيساً في بيت دعارة؟ أجاب: شخصاً ينقذني! فلو كنت عبداً في مصنع للطوب لتمنيت شخصاً يفكّ قيدي! ولو خُطفت من تجار البشر، لاحتجت إلى شخص يخلّصني. وهذا ما نعمل من أجله: مساعدة الناس ليكونوا أحراراً.

استعد خمسة أزواج – جميعهم على هذا النحو أو ذاك – للعمل في فرن الطوب، بعد أن زيّن لهم نارايان العرض قائلاً: لقد عاملَنا السيد فاسو أفضل مما يعاملنا رئيسنا الحالي. إضافة إلى أنه شخص متديّن؛ لقد بنى معبداً في القرية من ماله الشخصي، ويقوم شخصيّاً بالعناية به. لا يمكن أن تحظوا بصاحب عمل أفضل منه!

لم تتوقع مايا أن يجد لها نارايان عملاً بهذه السرعة. لذا، جاء هذا العرض نعمة غير متوقعة؛ فقد كانت الأزمة المالية تنذر بدوامها، ثم إن موجة الجفاف الأخيرة استنفدت كل ما ادخرته هي وزوجها أجاي للأوقات العصيبة، وجُففت قطعة الأرض الصغيرة المزروعة بالخردل الأخضر. ولم يكن هذا حالهم وحدهم، بل إن المزارع الكبيرة في المنطقة شهدت تلف المزروعات، وأصبح عمال المياومة عاطلين من العمل.

وفي الوقت الذي نضبت فيه مواردهم بين عشية وضحاها، بقيت الأفواه الجائعة التـي كان يتعيـن عليها وعلى زوجها إطعامها كما هي. لقـد كان عليهما إعالة والديّ أجاي وابنهما البالغ من العمر ثماني سنوات، إضافة إليهما. وكانت الأجيال الثلاثة تتكدس في كوخ طيني صغير.

وعلـى الرغم من حاجتهما الماسة إلى النقود، فإنهما تعاملا مع قرض السيد فاسو بحذر شديد: فالجفاف لن يستمر إلى الأبد، وسوف يقفان على أقدامهم ثانية عندمـا يهطل المطر. ولهذا، عندمـا جلست العائلة لتتقاسـم القرض، اكتفت مايا وأجاي بثلاثين دولاراً فقط بدل حصتهما، حيث إن هذا المبلغ يمكن أن يعيلهم لبعض الوقت. وكانا واثقين أن باستطاعتهما سداد هذا المبلغ الزهيد في مدة قصيرة.

بعـد أسبوع، غادر اثنا عشـر عامل طوب، وفيهم مايا وأجاي، القرية يحدوهم الأمل بمستقبل أفضل.

أحضـر زوجان من المجموعة ابنتهما ذات السنـوات العشر، في حين رافقت زوجـان آخـران ابنتهما ذات السنوات الخمسـ، وترك الباقـون أطفالهم في رعاية أقاربهـم. وقالوا: إنهم سوف يأتـون لزيارتهم في الأعياد، وربما قبل ذلك بكثير. إن مـا أكده لهم نارايان عن الرجل جعلهم يذهبـون مطمئنين، دون أن يخامرهم أدنى شك في نزاهته.

استغرقت رحلة العمال نصف يوم، بدّلوا فيه الحافلات ثلاث مرات حتى وصلوا إلى مصنع الطوب. وقف العمال بخنوع أمام البوابة الحديدية العالية، ثم وقفوا لربع ساعة بانتظار من يفتح لهم. وأخيراً، أخذوا يقرعون البوابة إلى أن خرج إليهم شاب، وفتح لهم الباب قائلاً: أنا ابن السيد فاسو، لقد ذهب والدي إلى المدينة لقضاء بعض الحاجات. وأردف: لن يغيب طويلاً. وفي هذه الأثناء أخذهم في جولة داخل المصنع.

لاحظت مايا أن الابن أغلق البوابة بقفل من الداخل بعد ولوجهم المصنع. ولفت نظرها الجدار الأسمنتي العالي الذي يحيط بالنصف الأمامي من المجمع. وكان الجدار يتصل بسياج من الأسلاك الشائكة يحيط بالنصف الخلفي. وفي المنطقة الممتدة وراء السياج، رأت مايا صفوفاً من نبات الأرز المزروعة حديثاً.

أخذهم الابن أولاً إلى مهاجع النوم في مبنى مستطيل الشكل وسط المجمّع. وفي الطريق، أشار إلى بيت محاذٍ للسياج الأيسر، وقال: أسكن مع أبي في ذلك البيت، ولكننا قضينا معظم وقتنا مع أمي في القرية.

ثم توقف كأنما كان يفكر في انتقاء كلماته، محذّراً: لا تقتربوا من ذلك البيت؛ إنه منطقة محظورة.

تبين للعمال الجدد أن مهاجع النوم ليست أكثر من غرفة واحدة، محاطة بإطار خشبي يشبه ذلك الذي يوضع عادة حول الإسطبلات. وفي الحقيقة أن المجموعة سوف تطلق على هذا المسكن اسم الإسطبل من الآن فصاعداً. كانت الأرضية قد نُظّفت حديثاً، وكانت الجدران من الطين، والسقف من القش، ما جعل الغرفة تظل باردة رغم الحر الشديد في الخارج.

وضعت مايا وأقاربها متاعهم المتواضع في الغرفة، والتحقوا بالجولة. كانت مدخنة فرن الطوب ترتفع عالية في الفضاء، وتبعد نحو خمس أقدام، والنار لم تكن مشتعلة فيه. قال لهم الابن: نحتاج إلى بعض الوقت لإشعال النار إلى درجة الحرارة المطلوبة لتجفيف الطوب. لم يكد الابن ينهي كلامه حتى سمعوا صوتاً من خلفهم: وأنا متأكد أن هذه هي آخر مرة سنرى فيها هذا الفرن مطفأً.

أدارت مايا وأقاربها رؤوسهم إلى الوراء، فرأوا رجلاً بديناً يقف خلفهم على مسافة قصيرة. كان يرتدي سروالاً وقميصاً بلون زعفراني أو برتقالي فاقع، كتلك التي يرتديها رجال الدين الهندوس.

قدّم الرجل نفسه قائلاً: مرحباً، أنا السيد فاسو، أنتم الآن تعملون عندي. بعد أن تلفظ الرجل بهذه الكلمات ببطء، أمسك الرجل بمجموعة من الأوراق، وقال: هذا هو العَقْد الذي يجعل اتفاقنا رسمياً.

سار الرجل متبختراً مثل طاوس، نحو أجاي وسلّمه الأوراق. شعر أجاي بحرج شديد وهو يأخذ الأوراق؛ لأنه، مثل بقية أقاربه، أميٌّ.

وكما ستقرؤون في العَقْد، أضاف السيد فاسو كما لو كان غير مدرك للإهانة التي ألحقها بهم، يجب عليكم أن تسددوا لي النقود التي اقترضتموها مني، إضافة إلى الفائدة. سوف أوفر لكم الطعام وأضيف ثمنه إلى المبلغ الذي استدنتموه. سوف تحصلون على أربعة دولارات ونصف لكل ألف طوبة تنتجونها، وسوف اقتطع هذا المبلغ من الدين. وبعد سداد ديونكم، سوف أدفع لكم نقداً مقابل عملكم، وإلا فستكونون أحراراً في البحث عن عمل آخر، سوى هذا الفرن. هل من أسئلة؟ وقف العمال صامتين. وفي الحقيقة أن ما قاله الرجل كان مثلما قاله لهم نارايان بطريقة أو بأخرى، لكنّ ما حيّرهم هو أنهم لم يفهموا معنى (الفائدة)، ولكنهم في الأحوال جميعها كانوا سعداء؛ لأنهم حصلوا على عمل يدر عليهم دخلاً.

كرّر السيد فاسو ما قاله سابقاً: سوف تجدون أن كل شيء مكتوب عندما تقرؤون العَقْد. سوف أعود إليكم خلال نصف ساعة لأجد كلّاً منكم وقّع عقده. وفي هذه الأثناء، أريدكم البدء في إشعال الفرن.

عندما كان الرجل يتحدث إليهم، شعرت مايا بأن النار تحرق جسدها. ولكنها قالت لنفسها: هذا محض خيال.

بدأ العمل في الفرن الساعة السادسة من صبيحة اليوم اللاحق. عملت العائلة الكبيرة على نحو جماعي، ولكن إدخال قوالب الطوب إلى الفرن وإخراجها منه كان يتطلب قوة بدنية كبيرة. لذا، تولّى الرجال هذه المهمة. وفي الحقيقة أن كلّاً منهم شارك في تصنيع الطوب. قضت مايا معظم اليوم في وضع الطين الطري والقش في صف تلو الآخر. وعند الضحى، عندما كانت الشمس ترتفع في كبد السماء، تبدأ في حمل قوالب الطوب على رأسها، وتضعها في ساحة مكشوفة بحيث تستطيع أشعة الشمس الوصول إليها. كان قالب الطوب يحتاج إلى ساعتين ليجف تحت الشمس، ويأخذ شكله النهائيّ بعد جفافه. بعدئذٍ، استراحت العائلة مدة ساعة واحدة لتأكل ما يتوافر لها من طعام. وبعد الانتهاء من تناول الغداء، واصل بعضهم صبّ الطوب، في حين حمل آخرون القوالب إلى الساحة لتجف، ومن هناك حملها آخرون إلى الفرن لتأخذ شكلها النهائي. لقد عمل الجميع ما بوسعهم لحرق الطوب قبل غياب الشمس.

تناوب الرجال على تغذية الفرن، وكان العمل في الخارج والوقوف قريباً من الفحم المحترق يعني التعرض إلى حرارة لا تُحتمل. كان الطين والغبار يلتصقان بالأجساد التي ترشح عرقاً، ثم تجفّ بعد مدّة، ما يجعل الجسد متشققاً. ومع نهاية اليوم، كان مَن يعمل في الفرن يبدو كقالب من الفحم الحجري يمشي على رجلين.

كان السيد فاسو متقلباً ومزاجيّاً في تعامله معهم. فإذا ما أنتجوا أقل من ألف طوبة في اليوم، كان يصرخ فيهم قائلاً: يا كلاب، يا كسالى. لِمَ أنتم متقاعسون هذا اليوم؟ وإذا ما عملوا بسرعة أكبر وأنتجوا ألفاً ومئتي طوبة في اليوم، فهذا أيضاً لا يرضيه. حيث يشتمهم ويسبهم، ويقول لهم: يا ملاعين، يا غشاشين، ألم أدفع لكم أكثر من أجر ألف طوبة. لقد كان دائماً يحاول أن يجد سبباً للتذمّر؛ فكان، مثلاً، يبحث عن أي طوبة فيها عيب بسيط، ليتهمهم بعدم إجادة عملهم. لقد بدأ السباب

والشتائـم منذ أول يوم وصلوا فيه إلى الفـرن. ومع انتهاء الأسبوع الأول، تحول سوء المعاملـة إلى عنف جسدي؛ فـكان يضرب الرجال بعصا، ويلطـم النساء بيده على وجوههـن. وفي أحد الأيـام، حينما كانت مايا ذاهبة إلى البئـر لتجلب ماء للشرب، صفعها على وجهها، فسقطت على الأرض. لِمَ لا تقومين بعملك؟ سألها السيد فاسو بفظاظة. ردت عليه مايا قائلة: الحَرُّ لا يُطاق هذا اليوم، أكاد أموت عطشاً!

لـم تلحظ يـده وهي تهوي على أذنهـا وجانب وجهها الأيمـن، ففقدت توازنها وسقطت على الأرض. تركها الرجل على هذه الحال، وابتعد متمتماً: قد يُنسيك هذا عطشك.

كثيـراً ما تحتفظ السلطـة، بجميع أشكالها، بحقها فـي التصرف وفقاً لتقلّب مزاجهـا؛ فأحياناً كان قالب الطوب يسقـط دون قصد من على رأس إحدى النساء، وهـذا ما يجعل السيد فاسو يضحك كثيراً كمـا لو كان يشاهد مسرحية هزلية. وإذا ما تكرر هذا الأمر مرة أخرى، كان يجلد تلك المرأة بقسوة. وفي عصر أحد الأيام، ضـرب أجاي بقســوة؛ لأن حرارة الفرن كانـت أعلى من المطلوب مـا أدى إلى تلف مجموعـة كاملة من الطوب. ولكن، دُهش العمال في اليـوم اللاحق عندما قدّم لهم السيد فاسو وجبة جاهزة من الدجاج على أدائهم الجيد.

كان ذلـك اليـوم من الأيام التـي لا تنسى؛ لأن تقديم الدجـاج للعمال لم يكن معتاداً داخل المجمع، وكانت الوجبة اليومية التي تتكرر ثلاث مرات هي حساء الشعير والخردل الأخضر. ونادراً ما كانوا يتناولون الخضراوات أو اللحم؛ لأن ميزانية الأكل لا تكفـي لمثل هذا الترف. كان السيد فاسو يعطيهم نقوداً ليشتروا طعاماً في الوقت الـذي يحلو له. وكثيراً ما كانوا يقضون أيامـاً يتضورون جوعاً لأنه لم يعطهم نقوداً. وعندما حدث ذلك أول مرة، قال ابن عم مايا للسيد فاسو بأنهم لم يذهبوا إلى السوق منذ أسبوع، فنظر إليه السيد فاسو نظرة غاضبة، ثم غاب لبضع دقائق، وعاد حاملاً عصا، وضرب ابن عمها ضرباً مبرّحاً. وقال له وهو يهوى بالعصا على ظهره: أنا الذي

يقــرر ذهابك إلى السوق أو عدمه. كان صاحب الفرن يسمح لأفراد قليلين بالذهاب إلــى السوق، وكان يجبر الأطفال أن يعملوا بــدل والديهم إلى أن يرجعوا من السوق. وكان يحــذر الذاهبين إلى السوق بالقول: إذا لم ترجعوا، فسأجعل حياة الموجودين في هذا المكان جحيماً.

افترضت مايا أن الجشع هو ما يدفع هذا الرجل إلى تقييد حركتهم، وأنه يريد الاحتفاظ بأكبر عدد منهم يعملون لأطول مدة ممكنة. لكنها غيّرت رأيها عندما رفض السمــاح لهم بالعودة إلى قريتهم في إحدى المناسبــات الدينية. لأنكم أيها الكلاب كنتم كسالى، ولا أستطيع تلبية طلبات الزبائن كلها من الطوب، ولذلك سوف تمكثون وتشتغلون. هكذا كان ردّه.

ومع مرور الوقت، اقتنعت مايا أنهم في الحقيقة لم يلتحقوا بعمل، بل بمعسكر للأشغال الشاقة.

جاري هاوجن: ما معنى الإغاثة؟

في بداية تأسيس بعثة العدالة الدولية، أجرى جاري وفريقه دراسة شاملة عن الاحتياجــات اللازمة. وغطت الدراسة نحو سبعين منظمــة تعمل في مجال الإغاثة والتنميــة في أنحاء العالــم قاطبة. وكانت هذه المنظمــات مجتمعة تساعد عشرات آلاف العمال في أنحاء العالم.

وقــد أفــادت هــذه المنظمــات جميعهــا أنهــا وثقــت انتهــاكات خطيــرة لحقــوق الإنســان، مثــل عمــل السخــرة، والاتّجــار بالجنــس، والاستيــلاء القسري علــى الأراضــي، والفســاد فــي الجهــاز القضائــي الرسمــي. وعندمــا حاولــت هــذه المنظمــات إيقــاف هــذا الظلــم، لــم تجــد التعــاون الكافــي مــن الشرطــة والمحاكم.

لقد أكدت نتائج الدراسة ما توصل إليه جاري في تحقيقاته السابقة في انتهاكات حقـوق الإنسان، وهي أن من يمارسون هذه الانتهـاكات يستخدمون العنف لاقتراف أعمال الظلم، ولسدّ الطريق بوجه أي نجدة يقوم بها المتطوعون في محاولة مساعدة الضحايا.

يضـاف إلى ذلـك أن النظام القضائـي الرسمي يحبـط أي محاولة يقوم بها الفقـراء لتغييـر أوضاعهـم الاجتماعية. فمثلاً، أفـادت منظمة إغاثـة معروفة بأن أعمـال السخـرة انتشرت فـي دول جنوب شرق آسيـا لتصل إلى أطفـال المدارس. وقالـت فـي تقريرهـا إلـى بعثـة العدالـة الدوليـة: إن الأطفـال الصغـار يُجبرون علـى لـفّ السجائر مدة تتـراوح بين سبعين إلـى ثمانين ساعة أسبوعيّـاً، أو حياكة السَّجّـاد فـي مصانع متنقلـة. ومع أن هـذه الممارسات تعدّ غيـر قانونية في عموم المنطقـة، فـإن القائميـن علـى تنفيـذ القانـون يتغاضون عنهـا. فـإذا كان هؤلاء يرفضـون وضـع حد لتجارة الرّقيـق، فإلى من سيلجأ الأطفال طلبـاً للمساعدة؟ زد علـى ذلـك أنّ محامي منظمة الإغاثـة الدولية هذه عاجزون عـن تقديم المساعدة للمظلومين.

لقـد أبلغـت منظمـة إغاثة أخرى تعمـل في الهند عـن مشكلة أكثـر خطورة، وهـي أن عيـادات الصحة أخذت تستقبل حديثاً مجموعات مـن الأطفال المصابين بمرضـ نقص المناعة المكتسب - الإيـدز - وكان هؤلاء الأطفال يأتون مباشرة من (المنطقة الحمراء) في المدينة. ومع أن المنظمة قدمت مساعدات للمصابين بهذا المرضـ، فإنها رأت ضرورة القيام بعمل وقائي لمعالجة المشكلة. غير أنها أضافت بأن أي محاولة لإنقاذ هؤلاء الأطفال من بيوت الدعارة يعني الاصطدام بالعصابات الإجرامية، وجمود جهاز الشرطة العاجز.

أمّا بعثة العدالة الدولية، فقد استمدت سمعتها من نجاحها في إنقاذ الضحايا. وهـي تعتقد أن تغيير الصورة العامة يمكن أن يُعزى إلى وسائل الإعلام. فقد تعرّف

كثير من الأمريكيين إلى بعثة العدالة الدولية أول مرة عام 2004، بعد عرض برنامج تلفازي عن غارة قادتها البعثة على بيوت الدعارة في منطقة سفاي باك Svay Pak في كمبوديا. ونجحت تلك الغارة في إنقاذ سبع وثلاثين بنتاً بين عمر خمس سنوات وسبع عشرة سنة، وإلى إنقاذ عدد من أصحاب بيوت الدعارة، وإلى طرد عدد قليل من ضباط الشرطة الفاسدين. إنّ مهمة إنقاذ الضحايا خطيرة ومثيرة ورائعة في آن واحد. ومما يُؤسف له أن أي مخرج تلفازي أمريكي لا يخصص الوقت الكافي للحديث عن المشروعات الصغيرة الناجحة التي يمكن أن تحصّن المجتمعات الضعيفة أمام تجار الجنس.

وفي حقيقة الأمر أن الإغراء المرافق لإنقاذ الضحايا يمتد إلى أبعد من مجرد الإثارة: إنه استجابة طبيعية للرغبة في إنقاذ الذين يقعون في ذاك الأسر. فعندما ينضم الناس إلى حركة مناهضة الاتّجار بالبشر، فإنهم في الأغلب يتصورون أنفسهم يهاجمون معسكر عمل لإنقاذ أفراد أسرى في داخله. أما الذين لا يحلمون بالمشاركة في هذه الهجمات، فيتساءلون عن كيفية عِتْقِ فتاة صغيرة من بيت دعارة ومساعدتها على بدء حياة جديدة.

واستناداً إلى هذه النظرة الرومانسية، قد يُساء فهم عمليات الإغاثة التي تشرف عليها بعثة العدالة الدولية. وأودّ هنا توضيح أن هذه الوكالة لا تدير عمليات مطاردات جماعية كتلك التي تصورها أفلام رعاة البقر، بل على العكس من ذلك تماماً، فإن تدخلاتها ترتبط ببرنامج وسطي يهدف دعم المجتمعات الضعيفة من جهة، وتقوية نظام العدل الرسمي من جهة أخرى.

وفي هذا السياق، يجب تمييز جهود بعثة العدالة الدولية عن النيّات الطيبة لبعض الوكالات الغربية لشراء حرية المُستَعبدين. وقد طبق تحرير الرقاب في السودان بنجاح، وبين مجموعات قليلة من المنظمات الدولية التي تحرر النساء من بيوت الدعارة.

وبالتأكيـد أن هنــاك بعض القضايا الصعبة جدّاً التـي يكون فيها فداء العبيد ضرورياً. ولكن شراء حرية العبيد يمكن أن يؤدي إلى عواقب عدة غير مقصودة. كأن ينجم عن ذلك إيجاد سوق رائجة في الاتّجار بالبشر. حيث إن تجار الرّقيق يتعاملون مع البشر كأي سلعة مادية أخرى. فإذا ما زاد الطلب وقل العرض، فسوف يلجأ تجار الرّقيق بكل بساطة إلى البحث عن أهداف سهلة، وزجها في العمل القسري، إلى أن تأتي وكالة غربية تفتديهم.

أضف إلى هذا، فإنّ فداء العبيد يقلل من فرص محاكمة تجار الرّقيق؛ فأجهزة الشرطـة تبدي رغبة في التدخل فقط بعد أن تكـون الجريمة قد حُلّت. فإذا ما أُنقذ المُسْتَعْبد دون تدخل من الشرطة، فإن أنظمة القضاء تتردد أيضاً في متابعة القضية الإجرامية تلك.

ويدرك جاري هاوجن أن جهود افتداء العبيد لا تحل المشكلة. بل تدور حولها. وأن فكرة قصاص المجرمين ستكون مجدية لو كان النظام القضائي يعمل بصورة سليمة. يضاف إلى ذلك أن فداء العبيد يتحول إلى إستراتيجية هادمة للذات. فلو افترضنا أننا مكان الأشخاص الخارجين على نظام العدالة، فإن ممارسة اللعبة على وفق قوانينهم سوف تجعلهم ينتصرون دائماً. فإذا لم يكن لدينا سلطة القانون، يقول جاري، فسوف تكون لدينا سلطة الذين يطبقون القانون على هواهم. تستخدم بعثة العدالة الدولية طريقة تسمّى (تحليل ممثل السلطة) لتحديد وكلاء تنفيذ القانون الذين يمكن التعامل معهـم لتحقيق العدالة. ويطرح هذا الأسلوب أسئلة عـدّة، مثل: ما آلية عمل الجهاز القضائي في المجتمع؟ كيف يجري حل قضايا المحاكم الرسمية بطريقة غير رسمية؟ من الشخص المسؤول رسمياً عن تطبيق العدالة؟ من أفضل شخص في شبكة بعثة العدالة الدولية يستطيع التعامل مع أفضل شخص مرشح لتطبيق العدالة؟ في معظم الحالات، لا تلجأ بعثة العدالة العالمية إلى الاتصال بالرتب الدّنيا في جهاز الشرطة. وغالبـاً ما يكون ضبــاط النوبات مرتبطين مع المجرم بعلاقة اجتماعية أو عائلية أو

ماليـة. ونادراً ما يمكـن العثور على ضابط كبير يستطيع اتخـاذ إجراء دون موافقة قائده. عند تحديد ممثل السلطة المناسب، تقدّم إليه بعثة العدالة العالمية ما تملكه من أدلة وإثباتات، وتعطيه الفرصة للقيام بالإجراء الصحيح والحصول على التقدير والإشـادة. ويقول جاري: إن الحقيقة هي أكبـر حافز يدفع ممثل السلطة إلى تطبيق القانـون. إضافة إلـى أن مجرد تقديم الدليل من قبل منظمة حقوقية دولية قد يفيد أيضاً في دفع ممثل السلطة إلى التصرف. وهناك عدد قليل من ضباط الشرطة الذين قد يخاطرون بإخفاء الدليل، ويمتنعون عن اتخاذ إجراء بحق المخالفين. وفي الوقت ذاتـه، قد يؤدي تدخل المنظمات الأجنبية إلى نتائـج عكسية؛ لأن المسؤول قد يرى ذلك مسألة كرامة. فتجده ينظر إلى هذه المنظمات بازدراء واحتقار، مع أن معظم موظفي بعثة العدالة الدولية، مثلاً، من مواطني المنطقة نفسها. ولذلك، يجب أخذ هذه الاعتبارات كلّها في الحسبان عند تحليل ممثل السلطة.

ويعتـرف جاري أن التدخل يحتاج إلى عمل تحضيري كبير، ولا سيّما إذا كانت أي منظمـة ستبدأ مـن الصفر، على العكس من بعثة العدالـة الدولية التي تعمل في المنطقة منذ مدة طويلة، بنت خلالها علاقات قوية مع عدد من القضاة الملتزمين.

مايا: انتهاك يقود إلى آخر

على الرغم من أن السيد فاسو كان يذكّرهم بديونهم باستمرار، ولكن لم يكن لدى مايا أدنى فكرة عن قيمة المبلغ الحقيقي الذي يدينون به إليه. وقد احتاجت إلى ستة أشهر لتستجمع شجاعتها وتطلب إليه كشف حساب. لقد ذكر لهم من قبل أنهم سـوف يحصلون علـى أربعة دولارات ونصف مقابل كل ألف طوبة. وإذا ما قُسّم هذا المبلـغ على خمس عائلات، فإن الأجر لن يكـون مجزياً. ومع ذلك، رأت مايا إمكان سداد دينهم. لذلك، صُعقت عندما أبلغها السيد فاسو أن دينها قد تضاعف، فردّت عليه بغضب: هذا مستحيل، لقد عملنا هنا طوال ستة أشهر!

وكما لو أنه قد توقع مسبقاً مثل هذا الرد، أخرج السيد فاسو ورقة مليئة بالخطوط والأرقام، وقال بابتسامة ساخرة: كما ترين، فقد تراكمت الفائدة على الدين. إضافة إلى المبلغ الكبير الذي أعطيتكم إياه لشراء الطعام.

حملقت مايا في الورقة، ولكن الأرقام لم تعنِ سوى أنها خطوط عشوائية لا معنى لها. وبعد أن تأكد أن لا مجال أمامها للاحتجاج، قال: عليكم مضاعفة جهدكم.

عندما أبلغت مايا أقاربها بما عرفته، ضجوا بالشكوى، ولم يصدّقوا ما سمعوا. وبعد مدة من الصمت، قال أحد أبناء عمومتها، وكأنه كان يتحدث بما يدور في رؤوس الجميع: كيف سنخلّص أنفسنا من هذا السجن؟

كان من المستحيل بالنسبة لهم بوصفهم بشراً مضاعفة إنتاجهم اليومي، وحتى لو زاد إنتاجهم عن ألف طوبة في اليوم، فإن السيد فاسو لن يحتسب هذه الزيادة لهم.

ومما زاد الأمور سوءاً، إغلاق الفرن أسابيع عدّة بناء على أوامر خارجية، كما قال لهم السيد فاسو. وفي أثناء مدة الإغلاق هذه، أُرغم الرجال على العمل حول المجمّع؛ تنظيف الفرن، جمع القش، إصلاح الجدار، وهلم جرّا. ولم يحصلوا على أي أجر مقابل هذا.

أما النساء، فقد طُلب إليهن تنظيف المعبد الذي بناه في القرية. وفي أول مرّة، أخذ ثلاث نساء فقط؛ مايا واثنتين من بنات عمها. بدأن العمل منذ الصباح الباكر، فكنسن أرضية المعبد، ولمّعن الأصنام الموجودة فيه. وبعد أن أنهين عملهن عند الظهر، جلسن ينتظرن السيد فاسو ليعيدهن إلى المجّمع.

عندما عاد، لم يكن وحده، بل كان معه خمسة رجال، اعتقدت مايا أنهم من المشرفين على المعبد.

بادرها السيد فاسو قائلاً: مايا، عندي لك عمل في الغرفة الخلفية، تعالي. اتجه إلــى الغرفة، وتبعه أحد مرافقيه، فسارت خلفهمــا. عندما دخل الغرفة، أغلق فاسو الباب وطلب إليها بهدوء خلع ملابسها. مرت لحظات على مايا وهي تحاول استيعاب ما أمرها به، وتساءلت بينها وبين نفسها: كيف يمكن لرجل دين أن يتصرف بدناءة فــي معبده؟ وعندما تيقنت من حرج موقفها، استدارت محاولة الهرب، لكن مرافقه ســد الطريــق أمامها، وطرحها أرضــاً، وأمسك ذراعيها بقوة، فــي حين كان السيد فاسو يمزق ثيابها ويغتصبها. ثم تبادل الموقف مع مرافقه ليساعده على اغتصابها.

عندما انتهــى الرجلان من اغتصابها، قال لها فاسو: ارتدي ملابسك، سوف نعــود إلى المجمّع في عشــر دقائق. كان يتحدث بصوت طبيعي كأن شيئاً لم يحدث، لدرجة جعلها تستهجن سبب غرقها في عارها في حين لا يظهر عليه أي شعور بذلك.

عندمــا ارتــدت ملابسها وعادت إلى قاعة المعبد، عرفــت فوراً أن بنات عمها تعرضن أيضاً إلى الاغتصاب؛ خيّم الصمت عليهن. لم تتحدث إحداهن إلى الأخرى، ولم يبحن بشيء عندما عُدن إلى المجمّع، واحتفظن بسرّهن خشية الفضيحة.

الكرامة أقوى من الأسر

إنّ إنقاذ الرهائن لا ينتهي بمجرد تحريرهم من الأسر؛ لأن التخلي عنهم وتركهم يتدبرون أمورهم بأنفسهم يجعلهم عرضة للوقوع ثانية في شباك أعمال السخرة مع تاجر آخر. ولذلك، يجب على مناهضي الرق أن يجيبوا عن هذا السؤال قبل الإسراع في تنفيذ خطة إنقاذ ما: ماذا بعد؟

وربمــا لن يكمــن الحل في إعادتهم إلــى بيوتهم وكفى، لأنهــم سيكونون هدفاً للذين اختطفوهم أصلاً من قراهم. ومع أن النّاشطين في مجال الرعاية الاجتماعية يستخدمون مصطلحات، مثل الدمج في المجتمع والتأهيل النفسي، لكن عملية الرعاية اللاحقة أكثر تعقيداً، ولا سيّما إذا علمنا أن الفتيات المراهقات المحررات من بيوت

الدعارة يفضلن البدء بحياة جديدة بعيداً عن قراهن الأصلية، في بيئة داعمة خالية من التجريم، وبعيداً عن مجتمع يلاحقهن بوصمة العار.

وقد اكتشفت هذا التعقيد في أثناء مقابلاتي للعمال المُحررين من مصنع للأرز في الهند. كان خمسة وعشرون من هؤلاء العمال المُحررين يرتبطون بعلاقات عائلية. وعندما سألت المرأة، كبيرة العائلة، عن المنطقة الأصلية التي جاءت منها، رمقتني بنظرة حائرة، وقالت: من مصنع الأرز. ثم أوضحت أن والدها أُجبر على العمل في المصنع وهو في العشرين من العمر. ولذلك، عملت في ذلك المصنع طوال حياتها، وربّت أطفالها ليرثوا العمالة في المصنع ذاته.

وبعدما حكت لي الأم الكبيرة مأساة أربعة أجيال في العبودية، والتي بدأت بقرض قيمته عشرة دولارات، جاء دور ابنتها، البالغة من العمر خمسة وثلاثون عاماً، لتحكي قصتها. قالت: إنها التقت زوجها في المصنع، وإنهما كانا يربّيان ثلاثة أطفال ينتظرهم مستقبل طويل في غلي الأرز وتجفيفه. وقد تعاونت بعثة العدالة العالمية مع أحد القضاة المحليين لتغيير مصير هذه العائلة الممتدة بين عشية وضحاها. فما الذي سيعنيه إعادتهم ثانية إلى بيوتهم بالنسبة إلى هذه العائلة، وإلى ملايين عمال السخرة الذين عايشوا المأساة نفسها؟

تساعد بعثة العدالة العالمية اليوم ألفي شخص في جنوب آسيا من المُستَعبدين السابقين وعائلاتهم من خلال برامج رعاية لاحقة. ويقوم المتعاونون مع البعثة في المدّة التي تعقب عملية الإنقاذ، بالتعاون مع شبكة شركاء إغاثة، بتوفير المأوى للمُستَعبدين السابقين، والغذاء، والتوجيه النفسي، والحماية من انتقام مالكيهم. وباستثناء الحالات الملحة جدّاً التي يكون فيها العنف وشيك الحدوث، فإن البعثة سوف تؤجل تنفيذ خطة الإنقاذ إلى حين الانتهاء من إعداد خطة الدعم طويلة المدى. وتساعد البعثة العبيد السابقين على الحصول على قروض أو مساعدات مالية من السلطات المحلية، وعلى أراض حكومية لغايات السكن. إضافة إلى أنها

تساعدهم على تسجيل أطفالهم في مدارس حكومية. وهذا من أهم الحقوق التي يفتقرون إليها بشدة.

والسؤال هو: ما مدى فاعلية الرعاية اللاحقة؟

لقد توصلت البعثة من خلال مراقبة برامجها إلى أن 94% من العبيد السابقين الذين تضعهم في بيئة داعمة لا يعودون إلى العبودية أو الرق مرة أخرى.

مايا: الهروب الجريء

مثل الذئاب التي ذاقت طعم الدم وعادت إلى فريستها، ظل السيد فاسو وأصدقاؤه يعتدون على هؤلاء النساء جنسيًّا في كل فرصة تتاح لهم، ويضربوهن ويحرقون أجسادهن. وعادة ما كان المالك وابنه يتصرفان وحدهما. كان السيد فاسو كثيراً ما يقول للنساء: لقد حان الوقت لتنظيف المعبد. كان يقول ذلك أمام أزواجهن بصوت خافت كأنما كان يريد من الجميع مشاركته في واجب مقدس.

ومع أن النساء احتفظن بعارهن سرّاً، فإنهن أعددن خطة للهروب. رفض أزواجهن منذ البداية هذه المحاولة اليائسة؛ لأن عواقب أي محاولة هروب فاشلة كانت ترعبهم أكثر بكثير من سوء المعاملة التي يتعرضون لها يوميًّا. وإذا ما هربوا، فسوف يعمل المستحيل من أجل إعادتهم. في إحدى الليالي، أحضر السيد فاسو معه أصدقاء المعبد إلى المجمّع بعد حفلة سكر صاخبة في حانة محلية. اقتحم السكارى مهاجع نوم العمال، وأخذوا يجرّون النساء إلى الخارج. وعندما قاومهم الأزواج بشدة، ضربتهم العصابة بالعصي وقيدتهم لشلّ حركتهم. ظل الرجال يتلوّون على أرض الإسطبل الترابية، في حين تناهت إلى أسماعهم همهمات المغتصبين وهم يعتدون على نسائهم. وأخيراً، انكشف اللغز أمامهم، وغرقوا في عارهم، وعرفوا سبب إصرار زوجاتهم على الهروب. وبعد أن أشبع الرجال شهوتهم، عادت النساء الكسيرات وتكوّمن في الإسطبل: قدّر الأزواج آلامهن، وخيّم صمت مطبق.

عندمـا ذهبت العائلة في اليوم اللاحق لتصنيع الطين في القوالب الخشبية، أعدت خطة للهرب. تنصت أجاي إلى المالك وهو يتحدث مع ابنه عن مهرجان سوف يحضرانه في القرية. بعد أيام عدة، انطلق فاسو ورجاله إلى ذلك المهرجان عصراً، وفي ذلك المساء، تسلقت العائلة البوابة الحديدية. ومع أن تخطي الخوازيق في أعلى البوابة لم يكن سهلاً، فإن كلّاً منهم ساعد الآخر على النزول إلى الأرض بسلام.

ولأنهم يعرفـون أن فاسو سوف يستجوب سكان القريـة، فقد استغل الهاربون ظلمـة الليل في الابتعاد عن المجمّع إلى أبعد مسافة ممكنة دون أن يشاهدهم أحد. ومع حلول الفجر، استقلوا حافلة متوجهين صوب قريتهم.

عندما وصلوا القرية، استقبلهم أقاربهم بحرارة. كان الأقارب يعتقدون بأنهم اختفـوا من على وجه البسيطـة، وأمطروهم بأسئلة كثيرة عـن فقدانهم طوال تلك المدة. وبعد أن هدأت حرارة الاستقبال، سردت مايا والآخرون حكاياتهم في الأسر.

ومع أن الهاربين كانوا سعداء بالعودة إلى بيوتهم، لكنهم كانوا متيقنين أن هذا المـكان سيكـون أول من سيرسل إليه السيد فاسو بصائـدي الجوائز للبحث عنهم. كان بعض أقاربهم يعيشون في الجانب الآخر من مقاطعتهم، فاتفقوا أن من الأفضل الذهـاب إلى هنـاك والاختفاء عندهـم، وأنهم سوف يفعلون مـا يستطيعون لتجنب الإمساك بهم وإعادتهم إلى فرن الطوب.

هل هذه عبودية؟ أكاذيب وحقائق

عندمـا يُقدّم مالكو العبيد إلى المحاكمة، فإنهم عادة ما يحاولون التّستّر على جرائمهم بمجموعة من الأكاذيب. وقد أعدت بعثة العدالة الدولية نشرة مخصوصة بجنـوب آسيا لتصحيح هـذا الوضع. وتورد النشـرة أكثر التبريـرات المعتادة التي يستخدمهـا مالكو العبيد، ومقارنتها بالحقائق. وقد أعيدت صياغة القائمة اللاحقة من هذه النشرة:

الأكذوبة: لقد أنقذ القرض الذي أعطيته لهؤلاء الناس من محنتهم.

الحقيقة: مع أن القرض الأولي ربما يكون قد أسهم في تخفيف محنة هؤلاء الناس، لكن أعمال السخرة تضعهم في وضع أصعب من محنتهم. ونظراً لأنهم يتلقون أجراً متدنياً، وغالباً ما تُفرض عليهم فوائد عالية، فإنهم يعجزون عن سداد الدين، وربما يظلون يعانون طوال حياتهم سداد قرض واحد.

الأكذوبة: العامل هو الذي طلب قرضاً ماليّاً مني.

الحقيقة: سواء طلب العمال قرضاً أم لا، فإن صاحب العمل لا يستطيع، قانونيّاً، أن يسلبهم حريتهم.

الأكذوبة: لولاي، لأصبح هؤلاء الناس مشردين.

الحقيقة: إن توفير المسكن، على رداءته، لا يخفف من أثر الظلم الناجم عن استعباد الضحايا. يضاف إلى ذلك أن القوانين ذات العلاقة تنص على عدم إخلاء العاملين من مساكنهم.

الأكذوبة: إذا أخرجتم هؤلاء الناس فسوف يصبحون بلا عمل.

الحقيقة: إضافة إلى إعادة التأهيل التي يستحقها الضحايا قانونيّاً بعد تحريرهم، فإنهم يتخلصون من الدين، ومن وضع يحطّ من إنسانيتهم، ويستطيعون البحث عن فرصة عمل أفضل.

الأكذوبة: إن لم يعيدوا لي القروض التي أعطيتها لهم فسوف أخسر مبالغ كبيرة.

الحقيقة: لأن القرض كان غير قانوني من أساسه، فإنه لاغ وباطل. وعليه، فإن قبول دفعات عن هذا القرض يعد مخالفة قانونية. وبغض النظر عن هذه الحجة،

فإن الضحايا في معظم الحالات يدفعون ثلاثة أضعاف قيمة القرض، وهذا يعني أن صاحب العمل قد حصل على أموال كثيرة بسبب هذه الفوائد.

الأكذوبة: سوف تتوقف الصناعة لو لم تعتمد على أعمال السخرة.

الحقيقة: أساليب العمل السليمة ضرورية لأسباب قانونية وأخلاقية واقتصادية. صحيح أن نفقات القضــاء على العبودية قد تتحملها الطبقات الغنية، ولكن القضاء على العبودية سوف يؤدي أيضاً إلى تحديث أساليب التصنيع، وقد يدعم تقدم البلاد الاقتصادي.

الأكذوبة: بإمكان العمال ترك العمل إذا ما سددوا قيمة القرض أولاً.

الحقيقة: تحظر القوانين ذات العلاقة أصحاب العمل منع الأفراد من البحث عــن عمل في مكان آخر. ولذلك، فإن عدم القدرة أو عدم الاستعداد لإعادة القرض لا يلغي هذا الحق.

الأكذوبة: أنتم تستهدفونني شخصيّاً: فالمصالح الأخرى كلّها تفعل الشيء ذاته.

الحقيقـة: القانون ملزم للجميع. إن عدم التزام أي صناعة بالقانون لا يعطي الحق لأي صاحب عمل حرمان العمال من حقوقهم الأساسية.

الأكذويـة: الوسطــاء هم الذين أحضروا لي هـؤلاء الناس. لم أكن أعرف كم كانوا يتقاضون، أو ما هي الحريات الممنوحة لهم.

الحقيقـة: يفترض القانون أن القائمين على الشركة يعرفون عملياتها. وعلى هــذا الأساس، فإن القانون يــرى أن المسؤولين عن الشركة مذنبون في حال حدوث مخالفة، بغض النظر عن معرفتهم الشخصية.

الأكذوبة: لن يعملوا عندي، إذا لم أعطهم قرضاً.

الحقيقة: صحيح أنّ القرض المالي قانوني، ولكن القضية هي فيما إذا كان العمال قد أُكرهوا على العمل أم لا.

الأكذوبة: حتى وإن نصّ القانون على إلغاء القرض النقديّ، فإن العمال يتحملون التزاماً أخلاقيّاً بسداد الدين.

الحقيقة: مثلما أن العمال غير ملزمين قانونيّاً بدفع الدين، فإنهم أيضاً غير ملزمين أخلاقيّاً؛ إذ لا يمكن أن يُبنى الالتزام الأخلاقي على عمل غير أخلاقي.

نارايان؛ رهائن المعبد

استغرب نارايان عدم عودة شقيقته وزوجها أجاي إلى القرية بمناسبة الأعياد الدينية. ولطالما عرف أن مايا تكره أن تكون تحت وصاية أي إنسان أو كفالته. ولذلك، اعتقد أنهما قررا أن يعملا أياماً أكثر ليتمكنا من سداد دينهما. وقرر بينه وبين نفسه أن يزورهما في فرن الطوب قريباً للاطمئنان عليهما. ولكن في صبيحة أحد الأيام، وقع بصره على السيد فاسو وهو يعبر بوابة فرن الطوب. بعد مدة قصيرة، خرج مدير نارايان من مكتبه وأبلغه أن السيد فاسو يريد التحدّث إليه على انفراد. تحول حب الفضول لديه إلى خوف؛ فهذا الشخص لا يحمل أخباراً سارّة البتة.

عندما دخل نارايان، كان السيد فاسو يذرع المكتب جيئة وذهاباً. وعندما رأى نارايان، اندفع تجاهه ومد رأسه حتى كاد يلتصق برأس نارايان، وقال: لقد نقضتْ عائلتك عهدها. لقد هربوا، إن كنت حريصاً على مصلحتك، فعليك إخباري بمكانهم.

كان نارايان يعرف أن أخته لا تتصرف بتهور، ولذلك طمأن السيد فاسو قائلاً: أنا على يقين بعودتهم، ربما ذهبوا في زيارة قصيرة إلى قريتنا.

ردّ السيد فاسو قائلاً: لقد عرفت أنك لن تتعاون. لقد حذرتك أنت وعمك بأنني سأحملكما مسؤولية تصرفاتهم. اذهب وأحضر عمك وابنه، ستغادرون معي الآن.

كان السيد فاسو ينفث كلماته بغضب لدرجة أدرك معها نارايان أن من العبث مناقشته، فهز رأسه وخرج.

خارج المكتب، كان مدير نارايان بانتظاره، فهمس بأذنه: لا تقلق يا نارايان. سوف تعود في أيام قليلة. السيد فاسو سوف يفعل المستحيل ليعثر على عائلتك.

جرت قشعريرة في أنحاء جسده، لكنه استعاد اتزانه وهز رأسه بأدب جمّ، ثم اتجه مباشرة إلى حيث يعمل آمار وبشنو وأخبرهما بما جرى. خرج الثلاثة من البوابة على خطا السيد فاسو الذي أشار إلى الكرسي الخلفي لسيارة الشحن، فقفزوا إليه.

حينما كانت سيارة الشحن الصغيرة تسير مسرعة على الطريق السريع، أخذ الرجال الثلاثة يخمنون ما يُتوقع: إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب أقاربهم إذا لم يعودوا إلى القرية؟ وما السبب الذي جعلهم يعصون أوامر سيدهم؟

توقفوا عن الحديث ليتبينوا سبب وقوف السيد فاسو أمام معبد القرية، فقد اعتقدوا أنه سوف ينقلهم إلى المجمّع.

برز ستة رجال من المعبد ساعة وصولهم. انحنى رجلان ضخمان وحملا آمار بخشونة إلى المعبد، وتبعهما الرجال الباقون، فأخذوا نارايان وبشنو إلى الداخل.

كوّن الرجال الستة حلقة حول العمال، وبدؤوا بضربهم بالعصي واللكمات والأحذية بوحشية. بعد أول ركلة على أنفه، أغمي على نارايان. وعندما أفاق، وجد قريبيه ممدّدين على الأرض بجانبه ملطخين في بركة من الدماء.

عندما حل الظلام، عاد السيد فاسو وعصابته، وسأل الرجال الثلاثة بلهجة تهديد: هل أنتم مستعدون للحديث الآن؟

لقد قلت لك منذ البداية: إننا لا نعرف أنهم قد تركوا المجمّع إلا عندما أتيت إلى فرن الطوب هذا اليوم، قال نارايان ووجهه إلى الأرض خوفاً من النظر في وجه من يعذبه، ثم أضاف: أعتقد أنهم توجهوا إلى قريتنا.

غير صحيح، صرخ السيد فاسو وهو يعاجل نارايان بركلة على أضلاعه، وأضاف قائلاً: لقد أرسلت بعض رجالي إلى القرية صباح هذا اليوم، ولم يعثروا عليهم. ولم يعترف أحد في القرية أنه رآهم. فأين يمكن أن يكونوا؟

أدلى المُختطَفون بكل ما لديهم من إجابات، فمزّق رجال فاسو ثيابهم، ثم حلقوا شعر رؤوسهم. بعد ذلك، طلب فاسو إلى رجاله أن يرفعوهم ورؤوسهم إلى الأسفل لالتقاط صورة لهم في هذا الوضع المهين.

نام الرجال الثلاثة عراة على أرضية المعبد الأسمنتية. ظل نارايان يتقلب طوال الليل لأنه لا يوجد في جسده جزء لم يتعرض لإصابة. وعندما كان يحاول النوم، أخذ يجول ببصره في أرجاء المعبد. لقد اعتاد منذ طفولته الذهاب إلى المعبد مرة في الأسبوع. ثم تساءل: ألا ترى الآلهة التي يعبدها الهندوس ما يجري داخل المعبد!

جاري هاوجن

يكتشف جاري مرة بعد أخرى أن المجرمين يستخدمون أداتين لتنفيذ مأربهم: الإكراه والخداع. ويعني الإكراهُ إجبارَ شخص على أداء عمل ضد رغبته، بالتهديد أو ممارسة العنف البدني. أمّا الخداع فيلجؤون إليه لإخفاء سرائرهم الحقيقية وللتغطية على جرائمهم. والجمع بين الإكراه والخداع يصعّب مُهِمَّةَ تقديم مالكي العبيد وغيرهم من منتهكي حقوق الإنسان إلى المحاكمة.

وما ساعد جاري كثيراً في مجال مكافحة العبودية هو عمله السابق: محقق في انتهاكات حقوق الإنسان. ففي 1989، فوضته لجنة المحامين لحقوق الإنسان في قضاء أربعة أشهر في الفلبين للتحقيق في جرائم حقوق الإنسان في ذلك البلد

الـذي تحرر حديثـاً من حكم تسلّطي طويل. تولت زعيمـة المعارضة كورا زون أكينو رئاسـة البلاد بعد الإطاحة بالرئيسـ فرديناند ماركوس، وحمل التغيير معه أحلاماً كثيـرة للشعب الفلبيني. ولسوء الحظ، فإن انتهاكات حقوق الفقراء لم تتوقف، وظل المجرمون يسرحون ويمرحون دون رادع.

عندما استقرَّ جاري في الفلبين، قرر أن يشدّد أولاً على مذبحة حظيت بتغطية إعلاميـة كبيـرة في قريـة لوباو، التـي اتهم فيها جنـود فلبينيون بقتـل سبعة عشر قرويّـاً، من بينهم ستـة أطفال. وقد تضمنت معظم الأدلة التـي حصل عليها جاري شهـادات سبعة من الناجين الذين قالـوا: إن الجنود أعدموا القرويين العزّل. وعلى الرغـم من رجحان الدليل، فإن المحكمة العسكريـة أفرجت عن الجنود المتهمين. وخرجت الرئيسة الجديدة المنتخبة ديمقراطيّاً بعد الإفراج مباشرة لتبرير النتائج أمـام الشعب، مدعيـة أن الشهود على المذبحة رفضوا التعـاون مع المحكمة. وكان تبريرهـا شبيهاً برواية المدعين العامين العسكرييـن، ورئيس المحكمة العسكرية، الذيـن قالوا: إنهـم لم يستطيعوا إثبات الجرم على الجنـود المتهمين دون مساعدة من الشهود.

بعـد مراجعته لملف القضية، شك جاري أن هناك أمراً مريباً، فهو يعرف من خبرتـه أن الأشخاص الذين يشهدون مقتل إنسان عزيز عليهم يحرصون بشدة على الإدلاء بشهادتهـم ضـد القتلة، وتقديمهم إلى العدالة. فَلِـمَ، إذن، تغيب الشهود في هذه القضية عن جلسات المحاكمات.

وبـدلاً مـن الاستناد إلى وثائـق المحكمة، اختار جاري الذهـاب بالحافلة إلى القرية في رحلة استغرقت تسع ساعات، في محاولة كشف الغموض هذا. عندما وصل القرية، التقى بعدد من الشهود، وعرف أن الناجين السبعة جميعهم قد شهدوا أمام المحكمـة العسكرية بما حدث، وتعرفوا إلى أربعة مـن المتهمين. وكما توقع جاري، فقد كانت التقارير الرسمية عن المحاكمة محض افتراء وكذب.

وعلــى الرغم من تغيّر الوجــوه والأمكنة، فإنّ جاري لا يــرى فرقاً بين الآليات المستخدمة في الماضي والآليات الحالية: فالأقوياء في كل مكان يستخدمون الإكراه والخداع لانتهاك حقوق الفقراء والمساكين. إنهم يستخدمون قوات أمنهم الخاصة، ويحلّون النزاعات على طريقتهم. أما الفقراء والبائسين فلا يستطيعون حماية أنفسهم أو تطبيق عدالتهم. ولا سبيل أمامهم سوى الاحتكام إلى القانون، إذا ما نُفّذ على نحو صحيح. ويستطيع الأقوياء التحايل والتعامل مع المشكلات، وتحقيق أهدافهم في ظل الأنظمة الفاسدة، في حين يتسمّر الفقراء عاجزين.

نارايان: الالتزامات العائلية

ظـل السيد فاسو يحقق مع العمال ليومين متتالين. ولأنهم لم يغيروا أقوالهم، استمرّ التعذيب دون توقّف.

وفــي اليوم الثالث، نقلهم إلى المجمّع، وغيــر أسلوب التعامل معهم: أعطاهم ملابســ لا تناسبهم، وأجبرهــم على أداء أعمال سخرة لا معنــى لها. كان يجبرهم علــى العمل طوال اليــوم في إنزال حمل شاحنة من الرمل، ثــم تكويمه على الأرض، ومن ثم إجبارهم في اليوم اللاحق بتحميل كومة الرمل في الشاحنة. لم يعرف أحد الغاية من هذا الأسلوب سوى السيد فاسو، لأنه كان يلتقط صوراً للرجال الثلاثة وهم يقومون بهذا العمل.

في اليوم السادس من الحجز، أيقظ السيد فاسو آمار من نومه، وأمره بركوب الشاحنة، ثمّ أخذه إلى المعبد. خشي آمار من جولة تعذيب أخرى، لكن السيد فاسو أخبره بأن عليه الذهاب للبحث عن الهاربين، وقال: إنه سوف يواصل تعذيب نارايان وبيشو إلى حين عودته.

ولكنني بصدق لا أعرف أين أبحث عنهم، احتج آمار قائلاً: لأنه كان على يقين بفشل مهمته.

سوف تتصل بي هاتفيّاً كل يوم وتبلغني بأي تقدم، رد عليه السيد فاسو دون اكتراث باعتراضاته. وأضاف: وإذا لم تهاتفني في يوم من الأيام، فسوف أعاقب قريبيك بدلاً منك. وإن حاولت الهرب، فالموت مصيرهما.

أعطى المالك آمار مبلغاً زهيداً من النقود لتغطية نفقة أجرة الحافلة والمكالمات الهاتفية، وتركه ينطلق في مهمته.

لم يتلق السيد فاسو أي مكالمة هاتفية من آمار في ذلك اليوم، ولا في اليوم الذي بعده؛ بل ولا في أي يوم آخر. وأمّا تهديد السيد فاسو، فإنه صادق في ذلك، وهو على أتمّ الاستعداد لتنفيذ تهديده دائماً. ولذلك، كان يضرب نارايان وبيشو بقسوة كل ليلة وهو يسألهما: أين آمار هذا؟ إن عائلتكما بأكملهما ستدفعان ثمن الإخلال بالوعد.

جاري هاوجن: التدخل المنظم

أواخر عام 1994، أعارت وزارة العدل الأمريكية جاري إلى الأمم المتحدة ليعمل مديراً لتحقيقات الإبادة الجماعية في رواندا. وقبل تعيينه بأشهر قليلة، ذبح مسلحون من قبيلة الهوتو سكان قرية كاملة من قبيلة التوتسو في موجة الجنون التي اجتاحت البلاد.

بدأ جاري تحقيقاته بقائمة من مئة قبر، حيث ذكر شهود عيان، وعملاء مخابرات عسكرية تابعون للأمم المتحدة أنها ربما تكون نتيجة لمذبحة جماعية. لقد كانت مهمة صعبة فوق التّصوّر. أخذ جاري وفريقه يخرجون الجثث من القبور ويصنفونها، ويبحثون عن أي دليل يمكن أن يدين القتلة.

كانت التقارير قد ذكرت أن ما لا يقل عن ثماني مئة ألف شخص من قبيلة التوتسي قُتلوا في غضون ثمانية أسابيع. عثر جاري وفريقه على مقبرة جماعية خلف كنسية كاثوليكية في قرية كيبويي في جنوب البلاد، قرب الحدود مع بوروندي. كان نحو أربع مئة وخمسين شخصاً قد التجؤوا إلى الكنسية في إبريل 1994، بعد أن

سمعوا بهجوم العصابات المسلحة (الميليشيا) في المنطقة. وعندما وصل أفراد هذه الميليشيات، ذبحوا كل إنسان وجدوه أمامهم، حتى المختبئين في الكنيسة.

غاصت قدما جاري في وحل المقبرة، في حين كانت رائحة الجثث المتعفنة تزكم الأنوف. كاد يتملكه اليأس. فما الذي قد تعنيه العدالة لهؤلاء الضحايا؟ ما فائدة إدانة المجرمين بعد توقف العنف؟

أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسه، وصل بعدها إلى استنتاج مُفاده أن البحث عن العدالة يوجد إرثاً اجتماعيّاً. لقد اعتُمدت الأدلة التي جمعها فريقه من قبل المحكمة الجنائية الدولية الرواندية لإدانة قادة المتورطين في المذبحة؛ حاكم المنطقة، ورئيس البلدة، والمتعاونين معهما. ولذلك، فإن محاكمة السّفاحين على جرائمهم ضد الإنسانية لا يخفف من عذابات الضحايا فحسب، بل يوجد الثقة لدى الناجين في حكم القانون. إضافة إلى ذلك، بعثت إدانة المجرمين برسالة إلى الأجيال القادمة من الروانديين في أن العدالة ستأخذ مجراها لا محالة، وأن المجرمين لن يفلتوا من القِصاص.

لقد ترك هذا السعي الحثيث لتحقيق العدالة أثره العميق من خيبة الأمل في عمل جاري ضمن بعثة العدالة الدولية. وعلى الرغم من أن البعثة قد سعت جاهدة مع القضاة المحليين في الهند إلى إدانة مالكي العبيد على جرائمهم، فإن أحداً من المجرمين لم يقض ليلة واحدة في السجن لإدانته بجريمة أعمال السخرة.

ولذلك، فإنه لا يُفاجأ عندما يثنيه الواقعيون الاجتماعيون عن محاولته لتحقيق العدالة في دول لا دور للقانون أو القضاء فيها. وكثيراً ما يسمعهم يقولون: إنهم شعب فاسد، تلك طبيعتهم التي جُبلوا عليها. وعليه، لا مجال لتغييرهم: دعهم في حلمهم.

لكن جاري يرفض الاقتناع بهذه الحجة: فعندما يقرأ كتب التاريخ السياسي، يدرك أن المجتمعات الديمقراطية الغربية جاءت نتيجة لتجربة طويلة في كبح السلوك

العنيـف. ويهدف النظام القضائي في هـذه الدول إلى ضمان عدم لجوء المواطنين إلـى حـل نزاعاتهم من خلال اللجوء إلـى القوة البدنية الوحشيـة. وهذا لا يعني أن شعـوب المجتمعـات الديمقراطية دمثون بالفطرة أو أكثر تعقّـلاً من غيرهم. ولكن كلّ مـا في الأمر أن مواطني هذه الدول يتمتعـون بالحقوق المدنية، وحرية الحركة: بسبب وجود نظام قضائي فاعل. صحيح أنه لا يتّصف بالكمال، لكنه البديل الأفضل للحدّ من العنف.

ويروي جاري حكاية وقعت له عندما قام بدور عميل سري في التحقيقات المتعلقة بتجارة الأطفال الجنسية في كمبوديا؛ في أحد الأيام، قاده أحد السماسرة إلى غرفة كانت تضم اثنتي عشرة بنتاً تتراوح أعمارهن بين خمس إلى عشر سنوات. وكان على أولئك الفتيات القاصرات إشباع أي رغبة جنسية للزبائن مقابل بضعة دولارات.

يقـول جـاري: لا تنس أن الاستغـلال الجنسي للقاصرين مخالـف للقانون في كمبوديـا. ولكنك تجدني هنـا أتفاوض بصراحة على انتهاك حقـوق هؤلاء الفتيات القُصَّر. ومثل هذه الصفقات تحدث بسبب عدم تطبيق القانون. وما يزيد من رواج سوق العبودية في العالم هو أن السلطات المسؤولة عن تطبيق القانون تتغاضى عنها.

لهذا السبب ، يؤمن جاري أن السعي لإدانة المجرمين يعدّ إحدى الأدوات الفاعلة لمنـع أي جرائم تحدث مستقبلاً ، من خلال إشعار الأفـراد الذين يتاجرون بالبشر أو ينتهكـون حقوقهم بالتّوقّف أو تحمّل العواقب. وفي هذا السياق، فإن برنامج عمل مناهضي العبودية الحاليين يختلف كثيراً عن حركة مناهضة الرق في القرن التاسع عشر ، التي واجهت تجارة الرّقيق الإفريقي عبر المحيط الأطلسي. كانت تجارة العبيد في ذلك الوقت مرخّصة من الدولة ، ومتشابكة مع مصالح الدولة المالية. وقد استطاع قادة الحركة، آنذاك، رفع غطاء الشرعية عن هذه التجارة.

الآن، لا توجـد دولـة واحدة في العالـم ترى العبودية مشروعـة. ومع ذلك ، ما تـزال العبودية موجودة. ولو أن هذه الدول طبقت القوانيـن الموجودة في الدّساتير

لاختفت العبودية من يومها، لكن القوانين غير مطبقة. أيضاً، يعرف تجار العبيد أن باستطاعتهم الاعتماد على نظام القضاء الأعرج للتهرب من المحاكمة. إضافة إلى اعتمادهم على عدم اهتمام السلطات المحلية، وعرقلة عمل المحاكم، واستغلال الروابط العائلية، والنفوذ الاجتماعي.

يقول جاري آسفا: حاليّاً، لا يشعر تجار الرّقيق والجنس بأي خوف، لكن من يخاف هم ضحايا هذه التجارة. إننا بصدد قلب هذه المعادلة. وبعبارة أخرى، فإن عملنا قد بدأ توّاً.

مايا: جمع شمل العائلة

رأت مايا رجلاً حليق الرأس يعبر الحقل متجهاً إلى كوخها. وعند اقترابه منها، اعتقدت أنه ربما تعرض إلى حادث سيئ، فقد غطت الكدمات السود والزرق كلّ جزء من وجهه المتورم.

السلام عليك يا مايا، قال الرجل بصوته المألوف عندما وصل الكوخَ. وعندما لاحظ ارتباكها، هدّأ من روعها، قائلاً لها بصوت رقيق: أنا عمّك آمار.

شهقت مايا، ثم ركضت إليه واحتضنته وهي تقول: عمي العزيز، ما الذي جرى لك؟

الرواية ليست مسلّية يا ابنة أخي، قالها بحزن. أحضري أجاي وأبناء عمك لأروي ما حدث للجميع.

تركته في الكوخ ينال قسطاً من الراحة، ثم ركضت عبر حقل الأرز الذي كان معظم أفراد العائلة يعملون فيه. تناقشوا فيما بينهم ما إذ كان آمار قد جاء من تلقاء نفسه، أم أن السيد فاسو قد استخدمه طعماً لإيقاعهم في المِصْيدة. وبعد المداولة، قرروا أن يبعثوا مجموعة تطوف حول أطراف القرية للتأكد من عدم وجود صائدي

جوائــز مختبئين بانتظار القبض عليهم. ومع انتصــاف النهار، اجتمعت العائلة في كوخ ما. ساد صمت مطبق في الوقت الذي كان آمار يروي ما جرى له ولناياران وبيشو في الأيام القليلة الماضية، ثم عرض على الحاضرين الصور التي بعثها السيد فاسو معه. لقد أراد للعائلة أن تكون شاهدة على الذل، وأن تعرف أنّ ما تعرض له الرجال الثلاثة كان بسبب هروبهم.

وعندمــا شعــر آمــار أن الجــو أصبــح مشبعــاً بالقلــق والتوتــر، قــال: نحــن لا نحمّلكــم مسؤوليــة مــا حــدث لنــا. بــل نحــن مــن يتحمــل هــذه المسؤوليــة بطريقــة أو بأخــرى. فمــن كان يتصــور أن السيــد فاســو بهــذه الوحشيــة والقسوة؟

تمتم الجميع بالموافقة، فواصل آمار حديثه: ولكننا الآن نواجه مشكلة حقيقية، فالسيد فاسو هدد بأنه سوف يقتل نارايان وبيشو إذا لم نرجع، ونحن نعرف أن علينا عدم الاستخفاف بتهديده. توقف آمار عن الكلام ليرى إن كان هناك من يريد التعليق، لكن جميع من كانوا في الحلقة أطرقوا صامتين وعيونهم محدقة إلى الأرض. عندها، تابـع حديثه قائلاً: بقدر حزني الشديد على نارايان وبيشو، فإنني لا يمكن أن أعود. وأعتقد أنكم سوف ترفضون العودة كذلك. ولكن لا يمكننا التخلي عن أقاربنا. علينا التصرف، أن نفعل شيئاً ما!

أجـل! نحــن نوافقك الرأي يا آمــار، قال أجاي بصوت خافــت، ثم أضــاف: إن الناس محظوظون في هذه المقاطعة؛ لأن لديهم قادة مخلصين. لقد التقيت أحدهم بالأمس وقصصت عليــه ما مررنا به، وقــد أرشدني إلى وكالة تُدعــى بعثة العدالة الدوليــة، تحمــي المُستَعْبدين مثلنا. لــذا، أرى أن نطلب إليه إيصالنــا بهذه الوكالة فــوراً، فربما كان لديها حلول ما لمواجهة السيــد فاسو. أما إذا تصرفنا وحدنا فإن الفشل مصيرنا.

مايا تلتقي البعثة: عملية الإنقاذ

تسارعت الأحداث فور ذهاب مايـا وأجاي إلى مختار القرية طلباً للمساعدة. فقـد زارا بيـت الرجل في الصباح، وما إن جاء العصـر حتى قدم لهما حلّاً، يقضي بسفـر ثمانية من أفراد العائلة إلى مكان آمن يستطيعون فيه الإدلاء بإفاداتهم لبعثة العدالة الدولية. وأعرب المختار عن ثقته بإطلاق سراح الرهينتين إذا ما تعاون أفراد العائلة، وقاموا بما هو مطلوب منهم.

أكد الرجل لمايا وزوجها أنّ بإمكانهما أن يثقا بهذه المنظمة: فقد نجحت في تحرير عمال كثيرين في مقاطعته حتى من بين براثن أكبر العتاة.

درجت بعثة العدالة الدولية على استخدام عملاء سريين في تحقيقاتها، للتأكد أنها تتعامل مع قضية رهائن، إضافة إلى أن جمعها للحقائق في الظروف العادية كان يستغرق أشهراً عدة لضمان إدانة المجرمين.

وعلى الرغم من طبيعة الاستعجال في هذه القضية، فهناك عامل واحد لمصلحة البعثـة، وهو أنها تتعلـق بنحو عشرة عمال أو أكثر، في حيـن شملت قضايا العبودية السابقة التي حققت فيها أعداداً كبيرة من العمال تتراوح أعدادهم بين مئة إلى مئة وخمسين عاملاً.

لـم تكـن العائلة في حاجة إلى إقناع لتتعاون، فحيـاة نارايان وبيشو في خطر، إضافة إلى أن السيد فاسو لن يتوقف عن ملاحقة الهاربين حتى يقبض عليهم، وإذا لم يوقفوه عند حده الآن، فسوف يلازمهم الخوف طوال حياتهم.

في إفادتها أمام بعثة العدالة الدولية، لم تكن مايا في حاجة إلى تدريب لتتمكن من سرد التفاصيل، فقد كانت لحظات الألم كلها التي مرت عليها طوال الأشهر العشرة الماضيـة حاضرة في ذاكرتها كما لو أنهـا حدثت بالأمس. لم تكن في أول الأمر قد قررت أن تأتي على ذكر الاعتداءات الجنسية، ولكن، عندما سألها المحامي فيما إذ

كانت قد تعرضت للاغتصاب، لم تصدق نفسها وهي تقول: أجل! مرات عدّة، وعلى أرض المعبد أيضاً.

في خـلال ثمان وأربعين ساعة، رافق موظفو البعثـة قوة من الشرطة الهندية فـي غارة علـى فرن الطـوب. وجدت القـوة صعوبة في العثـور علـى الرهينتين في البدايـة، وفتّشـت مهاجع النـوم ولكن دون جـدوى. لكنّ فريـق إسناد تابعـاً للبعثة كان يراقـب الغارة. مـن بعيد، شاهد أحد أتبـاع السيد فاسو يتجـه إلى كوخ صغير فـي حقل مجاور. اتصل الفريـق المساند لا سلكيّاً بالفريـق الميداني وأبلغوهم بما رأوه. سـارع الفريق الميداني إلى الكوخ، وعندما اقتـرب منه سمع صراخاً مكتوماً. وعند اقتحامهـم الباب، وجدوا نارايان وبيشو جالسيْـن القرفصاء على الأرض في رعب شديد.

فـي اليوم الثاني، أحضرت البعثة العبيد المُحرّرين جميعهم إلى مكتب قاضي المقاطعة الذي أصدر وثيقة لكل واحد تنصّ على أنهم لا يدينون للسيد فاسو بشيء، وأنهـم أحـرار في متابعة مسيرة حياتهـم. وأوضح لهم القاضـي أن الوثيقة تؤهلهم للحصول على مزايا كثيرة، منها مساعدة مالية نقدية لمرة واحدة. وفي عصر ذلك اليوم، عادت العائلة إلى قريتها بسلام.

وعلى الرغم من الأدلة المقدمة ضد السيد فاسو، فإن قوة الشرطة التي أغارت على المجمّع لم تعتقله. لكن بعثة العدالة الدولية استمرت في القضية، وقدمت للشرطة قائمة بالمخالفات الإجرامية التي اقترفها صاحب الفرن، وفيها حبس أشخاص بصورة غير قانونيـة، والإساءة الجسدية، والتعذيب، والاغتصاب، وإكراه العبيد على العمل دون مقابل. وعلى الرغم من التوثيق الدقيق والإفادات الموثّقة من شهود متعددين، فـإن السلطات لم توجـه إليه أي اتهام. وبعد عامين من الجهود المضنية التي بذلها فريـق البعثة، اعتقل السيد فاسو، ولكن أطلـق سراحه بانتظار محاكمته. ولم يقض يوماً كاملاً وراء القضبان من جرّاء جرائمه.

لا تزال مايا وأجاي يكدحـان لتأمين لقمة عيشهما. وعندما يحالفهما الحظ، يجـدان عملاً فـي إحدى المزارع المحلية. وقد استطاعا شـراء عدد قليل من البقر والضأن. ومع أنهما لا يدّخران نقوداً كثيرة، فإنهما يكسبان ما يكفي لإعالة عائلتهما وكسوتها. وقد أقسما أنهما لن يحاولا الحصول على قرض من أحد مرة أخرى.

وعلى الرغم من تحسن ظروف الحياة، فإن مايا تعترف بأنها لا تشعر بالأمان. إنها تخشى ظهور السيد فاسو في حياتها في أي لحظة، ويجبرها على العودة إلى مصنع الطوب. ولهذا، فهي لا تبتعد عن بيتها كثيراً، إضافة إلى أنها تخشى زيارة أي مدينة في المنطقة. صحيح أن الحكومة تعترف بحريتها، لكن الفزع الدائم قد تمكّن منها.



ثالثاً

إنقاذ الأطفال المحاربين

أوغندا

هنــاك تنظيم مسلح متمرد في شرق إفريقيــة، ظل يستعبد الأطفال لأكثر من عقديــن. ويجبــر الأطفال الصغــار، ومنهم مــن لا يتجاوز عمره سبــع سنوات، على العمل جنوداً، وعبيدَ جنسٍ، وحمّالين. وتقدّر مجموعات حقوق الإنسان عدد الأطفال المُسْتَعْبدين بنحو ستة وستين ألفاً [1].

مــا يجــري في تلك المنطقــة يسمى الحــرب المنسية، التي لا يعــرف عنها معظم المواطنين الغربيين شيئاً، إضافة إلى أن حكوماتهم لا تبذل جهداً كبيراً من أجل وقفها؛ لأن تلك المنطقة لا تتمتع بأي أهمية (جيوسياسية) في نظر الغرب. وتتعامل معها الدول الغربية دون مبالاة؛ مجرد إفريقيّ يقتل إفريقيّاً آخر في حروب عصابات لا تنتهي. ولربما أهتم بها الغرب أكثر لو أن المتمردين كانوا يسرقون النفط بدلاً من الأطفال. كان المُنفِّذ الرئيســ لهذه الجرائم هو ما يسمى بجيش الرب للمقاومة Lord's Resistance Army، وهــو جماعات (ميليشيا) مسلحة روّعت المنطقة الشمالية من أوغندا منذ ظهورها عام 1986. وقد بدأت الحركة تمرداً ضد السلطة الحاكمة، ولكنها تحولت إلى عقيدة عسكرية مسيحيــة. يزعم رئيســ الحركة جوزيف كونــي Joseph Kony أنه ســوف يبني مجتمعاً قائمــاً على الوصايا العشر. والمضحك أنه مصمم هو وجنوده على انتهاك كل وصية من هــذه الوصايا. وما يفعله هذا الرجل، الــذي كان يعمل وهو صغير خادم مذبح في كنيسة كاثوليكية، هو حفظ آيات من القرآن الكريم وكتاب العهد القديم معاً، إضافة إلى الطقوس

القبلية التقليدية؛ خلطة دينية غريبة. ومع مرور السنين، أصبحت أهداف كوني السياسية أقل وضوحاً، وأساليبه أكثر وحشية.

ويمثل الأطفال المختطفون ما يقارب 90% من مجموع قوات جيش الرب هذا[2]. يجبر قادة الجيش هؤلاء الأطفال على إعدام الأسرى، والاصطدام مع الجيش الأوغندي الرسمي. وقد أفاد أطفال مجندون سابقون، وشهود عيان، أن قادة جيش الرّبّ كانوا يدفعون بالأطفال دائماً إلى الخطوط الأمامية من جبهات القتال.

وفي زيارة له إلى شمال أوغندا عام 2003، قال وكيل الأمين العام للأمم المتحدة للشؤون الإنسانية جان إيجلاند: إن على المجتمع الدولي إعطاء أولوية قصوى للوضع في ذلك البلد الإفريقي. ومما قاله: إنها فضيحة أخلاقية أن نرى آلاف الأطفال يُخطفون، وتُساء معاملتهم، ويُعذّبون من الحركة المتمردة ... ولا أجد أي منطقة منكوبة في العالم مثلما هي عليه الحال في أوغندا. ومع ذلك، فالعالم لا يعيرها اهتمامه[3].

تشارلز: الاختطاف

علمت عائلة أشانا أن كتيبة من جيش الرب للمقاومة بدأت تتجمع في المقاطعة. وكان المتمردون قد هاجموا قرية قريبة لا تبعد أكثر من مسيرة عشرين دقيقة.

لم تكن بيتي أشانا مستعدة للمخاطرة. عندما اختطفت الملاريا اثنتين من بناتها الصغيرات، شعرت يومها أنها عاجزة عن فعل أي شيء. أما الآن، فلن تجعل ابنيها يلاقيان مصير أختيهما.

طلبت الأم إلى ابنها الأكبر تشارلز اصطحاب أخيه إلى الغابة، والنوم في مكان آمن بعيداً عن القرية. وقد أطلعت الأم جيرانها على خطتها، فاعترفوا بحصافة رأيها. ولذلك، ما إن حل الظلام حتى كان كل ولد من أولاد القرية يحمل بطانية وحقيبة مدرسية، مبتعداً عن القرية، باحثاً عن مكان يختبئ فيه.

كان شعــور تشارلز ذي العشر سنوات وهو فــي الغابة كشعور أي طفل آخر من أترابه. كان يشعر أنه ذاهب في مغامرة. ولم يكن الأمر غريباً لديه؛ فقد اعتاد النوم فــي العــراء تحت النجوم، وكان يتسلــل من الكوخ في الليالي الحــارة، ويستلقي على الأرضــ دون حراك، ويتعرف المخلوقات من نداءاتها الليلية. وفي الليلة الأولى التي قضاها خارج البيت، ظل تشارلز يسامر رفاقه حتى غلبه النوم.

طلع النهار فجأة، فأدار تشارلز ظهره إلى الشمس. لكنه تذكر أن اليوم ليس يوم عطلة، وأن عليه الذهاب إلى المدرسة. ولأنه يعرف أن الأولاد الآخرين لا يشاطرونه حماســه للدراسة، فإنّه لم يكلــف نفسه عناء إيقاظهم من نومهــم، فطوى بطانيته، وانطلق صوب المدرسة.

ســار تشارلز في الطريق المؤدية إلى المدرسة غارقاً في أفكاره، ولم يشعر إلا وقد أصبح بين الجنود. كانوا يجلسون حول نار متقدة، يتناولون حساء الشعير. وعلى الرغم من هذه المفاجأة، فإن تشارلز لم يشعر بالخوف، لأنه كان معتاداً رؤية جنود الجيش الوطني عندما كانوا يقومون بجولات في المقاطعة. حافظ تشارلز على سرعة خطواته وهو يمر بجانب الجنود. وفجأة، سمع من يأمره: قف مكانك. تسمّر تشارلز، ثــم استدار ليلقي نظرة علــى الجنود. شعر بشيء غريب، فهــؤلاء الجنود لا يرتدون زيّ الجيشــ النظامي. ومع أن بعضهــم كان يرتدي قمصاناً عسكرية، فإنّ السراويل لــم تكن مطابقة لها. وبعدما أنعم النظر، لاحظ أن بعضهم كانوا بمثل سنه. عندها فقــط، شعر بقشعريرة تسري في أنحاء جسده. إلى أيــن أنت ذاهب؟ سأله أحدهم وهو يحمــل بندقية بيده اليمنى. لاحظ تشارلز في أثناء البحث عن جواب أن معظم الأطفال الصغار كانوا يحملون سواطير أو سكاكين كبيرة.

صرخ الرجل قائلاً: لقد سألتك: لِمَ تسير مسرعاً؟

ظنّ تشارلز أنه لم يجاوبه في أول مرّة، فقال بصوت ضعيف: إلى المدرسة.

لن تذهب إلى المدرسة بعد الآن، قال القائد بضحكة مدوية: يا ولد! لقد التحقت لتوّك بجيش الرب للمقاومة.

فلورنس لاكور؛ درب الآلام

عنـد الحديث عن الأزمة فـي شمال أوغندا، لا بد مـن التشديد على الأطفال المُستَعْبدين في جيش الرب للمقاومة. ولو قُدّر لك الالتقاء بفلورنس لاكور Florence Lacor، فسوف تعرف الألم الذي ينتاب آباء هؤلاء الأطفال.

تحاول فلورنس مساعدة الآباء على تحمل مصيبتهم، فهي نفسها فقدت ابنتها منذ ثماني سنوات، دون أن تعرف عنها شيئاً. وهذا ما قد يؤدي بالإنسان إلى الجنون. وعن ذلك تقول:

يتألم الآبـاء كثيراً عندما يُختطف أطفالهم ويُؤسرون. ومع حلول الليل، يزداد ألمهم؛ لأنهم على يقين بأن أطفالهم ينامون في العراء. وعند هبوب عاصفة رعدية، يتوقعـون إصابتهم بالبلل. وحـال سماع قصف مدفعيّ، يرتعـدون خوفاً من تساقط القذائف عليهم. عندما يموت طفلك، فأنت تعرف أنه قد مات فتندبه، وتتقبل حقيقة الموت. ولكن، عند اختطافه، فستظل تتساءل عما آلت إليه أحواله، ولن تنساه أبداً؛ فمصيره مجهول تماماً[4].

اختطفـت ابنـة فلورنس في واحدة من أبشع الهجمـات التي شنها جيش الرب للمقاومة. ففي أكتوبر 1996، هاجم المتمردون كلية سانت ماري Saint Mary Col-lege الداخلية للبنات في مدينة أبوكي Aboke شمال أوغندا. وقد أثار الهجوم غضباً شعبيّاً عارماً: لأن المتمردين اختطفوا مئة وتسعاً وثلاثين بنتاً مرة واحدة. كانت تلك الفتيات من أفضل البنات المتفوقات في شمال البلاد. وساد بين الناس شعور بعدم الأمن. فإذا لم تسلم بنات المدارس الداخلية، فإن بناتهم في خطر أيضاً.

فـي ليلـة الاختطاف، ركضـت مديرة المدرسـة الراهبة راشيـل فاسرا خلف المتمردين، وتبعتهم إلى الغابة دون كلل ولا يأس. توسلت إليهم إطلاق سراح البنات، وعرضت عليهم الدواء والنقود، بل وحياتها أيضاً: خذوني وأطلقوا سراح البنات، أو اقتلونـي واتركوهن. هكذا تتذكر إحدى الفتيات المُختطفات ما قالته الراهبة لقائد المتمردين[5].

حـاول القائد تهدئتها، فطلب إلى البنات الجلوس، وأمر الضباط أن يختاروا من بينهن أجمل ثلاثين. عندما سمعت البنات ذلك، حاول بعضهن تشويه وجوههن بالحجارة، أو أي شيء حاد تقع أيديهن عليه. وتظاهرت الفتيات الأخريات بالإعاقة كي لا يقع الاختيار عليهن.

بعـد اكتمال عملية الاختيار، تـرك القائد البنات الباقيـات، وأمر الراهبة أن تأخذهـن وتذهب بسرعة قبـل أن يغيّر رأيه. بعد ذلك، حذّر من وقع عليهن الاختيار بأنه إذا ما حاولت إحداهن الهرب، فسوف يعدم زميلاتها التسع والعشرين.

عندمـا علمت فلورنس بعملية الاختطاف، ذهبت مسرعة إلى المدرسة، وظلت تنتظـر عودة الراهبة على أحرّ من الجمر، وأخذت تدعو مع الآباء الآخرين ألا تكون ابنتهـا من اللواتي وقع عليهن الاختيار؛ ليكنَّ محظيّات لكبار الضباط. لسوء الحظ، كانت ابنتها منهن.

على الرغم من أن فلورنس قرأت أخباراً في الصحف عن اختطاف الأطفال في المناطق الريفية، ولكن لم يخطر ببالها أن المتمردين قد يستهدفون مدرسة خاصة. وبعدما اختطفت ابنتها، كانت مستعدة لفعل أي شيء لإنقاذها، ولكن دون جدوى.

حاولـت الأم معرفة مزيد عن جيش الـرب وما يفعلونه بالأطفال المخطوفين، فقصـدت معسكر أطفـال الحرب الذي تشـرف عليه منظمة إغاثـة دولية تُدعى وورلد فيجين World Vision. كانت هذه المنظمة تدير معسكرين مؤقتين للعبيد

المُحرّرين في جولو، أكبر مدن شمال أوغندا. أحدهما يضم الفتيات والأولاد الصغار، في حين خُصِّص الآخر للشباب ممن هم فوق ثمانية عشر عاماً. كان الضحايا في كلا المعسكرين يتلقون الرعاية الصحية والنفسية، والتدريب المهني أيضاً. ومنذ انطلاقها عام 1995، ساعدت هذه المنظمة أكثر من خمسة عشر ألف عبد محرر على التخلص من أثر الصدمة، وبداية حياة جديدة.

قضت فلورنس ساعة في المخيم. ولكنها غادرت؛ لأنها لم تحتمل سماع مزيد من الروايات التي يسردها الأطفال المحررون عن تجربتهم المريرة. وقررت ألاّ ترجع إلى المعسكر مرة أخرى.

مرت شهور وهي تحزن، وتصلي، وتغضب، وترثي لحالها. وشيّدت في داخلها سجناً لا مكان فيه للسعادة.

وفي يوم ما، خطرت لها فكرة: عندما كانت في معسكر المنظمة الدولية. قيل لها: إن المتمردين يجبرون الأطفال عند اختطافهم على قتل آبائهم، فقالت لنفسها: ربما لا أستطيع إنقاذ ابنتي، ولكن يمكنني أن أدافع عن الأطفال العبيد الذين أصبحوا يتامى.

عادت فلورنس إلى معسكر المنظمة، وقررت الانضمام إلى جهود مكافحة العبودية.

مارجريت: أوامر الزحف

في عصر يوم مشمس من أيام شهر نوفمبر، كانت الساعة تشير إلى الثانية. استغربت كيف لا تزال تتذكر ذلك الوقت تماماً بعد كل هذه المدة الطويلة. قضت مارجريت ثماني سنوات ونصف السنة في الأدغال حيث لا معنى للوقت هناك. ولكن لحظة اختطافها ظلت محفورة في ذاكرتها، وشاهداً على براءتها.

كان عمرهــا ثماني سنوات عندما هاجم المتمردون القرية. لم تكن هناك أي حراسات، فالمتمردون لا يهاجمون في وضح النهار، ولكنهم جاؤوا ذاك اليوم معلنين عن وصولهم بطلقات رشاشاتهم وصيحاتهم العالية.

التصقت مارجريت بكوخ عائلتها، وهي تدعو الله أن تخفيها جدران القصب عن عيونهم. سمعت صخباً في مركز التدريب المهني الذي شيدته وكالة إغاثة دولية في قريتها. كان المتمردون يستولون على المعدات فيه. انتقل الضجيج إلى بيت مجاور، وما تزال ملتصقة بحائط الكوخ. وفجأة، فُتح الباب على مصراعيه.

وقــف طفل بمثل عمرها عند مدخل الكــوخ، وأخذ يتفحص المكان كما لو كان يبحــث عن شيء بعينه. ثم وقعت عيناه عليهــا. أمسك الساطور المتدلي على جانبه الأيمن وأشار بطرفه إليها، ثم أمرها قائلاً: انهضي واتبعيني فوراً.

أخذ مارجريت إلى وســط القرية. وأحست باليأس عندما رأت أخاها من بين جميع أطفال القرية تقريباً الذين تجمعوا في المكان. كان الجنود الذين يحرسونهم يحملون هراوات – لم تكن في الحقيقة أكثر من أغصان أشجار مشذّبة قليلاً. سارت مارجريت وهي تجر قدميها إلى حيث يقف الأسرى الآخرون.

وبعد أن اطمأنوا أنهم نهبوا كل شيء نفيس في القرية، كدّس المتمردون غنائمهم في كومة واحدة، ووضعوا معظم البالغين في مركز التدريب، ثم اختاروا عدداً قليلاً من رجال القرية من بين المواطنين وأمروهم بالجلوس متعاضدين بجانب الأطفال.

أطلّ قائد المتمردين من باب المركز، ثم صرخ في السجناء داخله: سوف أحرق هذا المكان بمن فيه إن سمعت همسة واحدة، ولن يخرج منكم أحد حيّاً.

بعدما أغلق المسلحون الباب، ذهب القائد إلى حيث الأطفال، توقف فجأة على بعد خطوات منهم، ثم رمقهم بنظرة قاسية، وصرخ بوجوههم: أنتم لستم أبناء هذه القرية بعد الآن. أنتم ملك جيش الرب للمقاومة.

ثـم ألقى خطابـاً يبدو أنه قد تدرب عليه جيداً: إذا حـاول أحدكم الهرب هذا اليوم أو غداً، أو في أي يوم آخر في المستقبل، فسوف نعثر عليه ونقتله. وأنتم تعرفون أننـا سوف نعود أيضاً إلى هذه القرية ونقتل كلّ من فيها عن بكرة أبيهم. ولن نرحم فيها صغيراً ولا كبيراً.

أمـا البنات، فأمرهـن القائد السير في صف إلى حيث كومـة الغنائم. أعطى الجنود كل بنت حملاً يتناسب مع حجمها. كان نصيب مارجريت مجموعة آنية مربوطة بسلـك أعطاها إياها متمرد مراهق يرتدي قميصاً عسكريّـاً بالياً. ألقت مارجريت علـى كتفيهـا حمولتهـا، وتحركت إلـى الأمام بسرعة كـي لا تعطي المتمـرد فرصة لزيادة حملها.

كانت الشمس لا تـزال في كبد السماء عندما غادروا القرية. سار الأسرى في صـف واحد، في حيـن كان الجنود يحرسون الصف من الجانبين. ظل الصف يسير طوال الظهيرة. أحست مارجريت بالألم من وخز الحجارة المدببة والأعشاب الجافة لباطن قدميها العاريتين. لم تجرؤ على الشكوى أو التوقف؛ لأن الحراس كانوا يعاجلون من يقف بهراواتهم.

وأخيراً، عند الساعة الرابعة عصراً، أمر القائد المخطوفين بالتوقف. تهاوت مارجريـت ورفاقها الآخرين إلى الأرض ليريحوا أجسادهم المتعبة. عندما تخففت مـن حملها، شعرت أن الدم يـكاد يتفجر من قدميها، ولكنها في تلك اللحظة، ورغم ألمها، أرادت لو تغرق في سبات عميق.

هيا، أيها الكسالى المعوّقون، انهضوا! أمامكم عمل كثير لتقوموا به، هكذا جاء صوت القائد قاطعاً عليها غفوتها المُخْتلسة القصيرة.

رمى القائد ثلاث صحاف لثلاث بنات، كانت مارجريت من بينهن، وقال: هناك بئـر تبعـد دقائق قليلة أسفل ذلك الـدرب. اذهبن واملأنها. عندمـا نهضت البنات

المكلفات بجلب الماء، استدار إلى البنات الأخريات، وقال: اذهبن واجمعن الأعواد الصغيرة، وأشعلن ناراً للطبخ.

سارت مارجريت عبر الدرب ببطء. رأت أمامها ما بدا لها بقايا مساكن مهجورة. كانــت الأكواخ الرئيسة بلا سطــوح، أما الحيطان فحملت آثار حريق حديث. اتجهت إلى البئر الكائنة وراء دائرة الأكواخ، ودهشت عندما اكتشفت أن مضخة البئر لا تزال تعمل، ولم يستغرق ملء الصّحفة بالماء وقتاً طويلاً.

لم تــدرك صعوبة العودة بالصّحفة المملوءة بالماء إلى المعسكر. حاولت أول الأمر أن تمسكها على جانبها، ولكنها كادت تسقط بعد خطوات قليلة. وفي المرة الثانية حاولــت رفعها ووضعها على كتفها الأيمن، ولكن دون جدوى؛ لم تنجح هذه الطريقة أيضاً سوى لخطوات قليلة؛ لأن قدميها المُتعبتيْن من المسيرة الطويلة لم تقويا على حملهــا. ومع ذلك، ظلــت تحاول قطع أطول مسافة ممكنــة. وفجأة، ارتطمت قدمها بجذع شجرة، فوقعت القَصْعة (الصّحفة) بعيداً عنها وتدحرجت هي الأخرى وراءها.

ظلــت جالسة على الأرض في ذهول بلا حراك، في الوقت الذي كان فيه الماء ينســاب من القصعة المقلوبــة. وبعد أن أحست ببلل ثيابهــا، انتفضت على قدميها، ومدت يديها لتعدلها وتوقف انسكاب الماء منها.

في تلك اللحظة، ظهر الجندي المراهق فجأة، وقال: ارجعي إلى الطريق. وأتبع ذلك بصفير كأنما يخاطب كلباً ضالاًّ.

أمسكت مارجريت بالصّحفة سريعاً، وأسرعت لتقف إلى جانب الصبي، حيث أعادها إلى المخيم، وأخذها مباشرة إلى القائد الذي كان يتجاذب أطراف الحديث مع مجموعة من الضباط تحت شجرة.

لقــد أمسكت هذه البنت وهي تحاول الهــرب، لكنها لم تبتعد كثيراً، قال الولد المُجنّد.

أرادت مارجريت أن تدافع عن نفسها، لكن الخوف عقد لسانها. وقفت كما لو أنها تقف خارج ذاتها، مجرد متفرج فضوليّ ينتظر ما سيحدث بعد ذلك.

أحسنت يا صموئيل، قال الضابط بابتسامة استحسان. وعندما نقل عينيه إلى مارجريت، اختفت الابتسامة عن شفتيه وسألها: هكذا إذن، فأنت لا تحبيّن عائلتك الجديدة!

ظلت مارجريت منكسة الرّأس، ولم تجرؤ على النظر في وجه سجّانها الذي أمسكها من ذراعها بقوة، ودفعها إلى الأمام قائلاً: دعونا نري أصدقاءك ما يحدث لمن يحاول الهرب من جيش الرب. ثم صاح على الولد الواقف خلفه: اذهب وأحضر تيلور وولتر، وأحضر أعواد الثقاب معك أيضاً.

دفع الضابط مارجريت بقوة تجاه البنات اللواتي كن يحاولن إشعال حزمة من الأغصان الصغيرة. كان الأولاد جالسين مقيدين على بعد خمسة أمتار من دائرة الحجارة التي أعدتها البنات لإشعال النار فيها.

هذا وقت تصفية الحساب، زعق القائد. أما الفتيات فقد اندفعن مذعورات إلى الوراء للانتباه لما سيقوله.

طرح القائد مارجريت أرضاً، وقال بلهجة انتقامية: سوف تتعلمون أننا لا نتسامح مع الخيانة. فكل شخص يحاول الهرب فهو في عداد الخونة. لقد حاولت هذه البنت الغبية الهروب وأخذ إناء الماء معها. وواصل حديثة ناظراً إلى مارجريت وهي منكسة الرأس: لحسن حظها أننا لم نضطر للبحث عنها، وإلا لكانت ميتة الآن.

توقف لثوانٍ ليتأكد أن الأسرى قد فهموا رسالته، ثم التفت إلى الأطفال المُجنَّدين الذين كانوا شاهرين سواطيرهم بانتظار أوامره، وقال: يا صموئيل، لأنك قبضت على هذه البنت الغبية، فلك شرف الضربة الأولى.

تقدم الولد بكبرياء، وسار حتى كادت قدماه تلامسان رأس مارجريت، ثم رفع السّاطـور بذراعه الأيمن عالياً وهوى بطرفه الأملس على ظهرها. من هول الضربة، عجزت عن الصراخ. كان الألم أشد من وضع قطع فحم مشتعلة على عمودها الفقري. ولكنها أخذت تصرخ عندما أخذ المتمردون الصغار يمطرونها بالضربات على أجزاء جسمها كلّه. فقدت مارجريت وعيها. ومع ذلك، واصلوا ضربها.

مسافرو الليل

أصبح الأطفال الذين كانوا يسمّون (مسافرو الليل) Night Commuters أكثر أماناً في بيوتهم بعد تحسن إجراءات الأمن في شمال البلاد.

قبـل زيادة أعداد قوات الجيش في الشمال، كان الأهلون يضطرون إلى إرسال أولادهـم إلى أمكنة آمنة قبـل حلول الظلام؛ لأن متمردي جيش الرب كانوا يفضلون الإغـارة ليلاً. كان ما يزيد على ثلاثين ألفاً من مسافري الليل يذهبون إلى مسافات تبعد نحو عشرة أميال؛ ليكونوا في مكان قريب من أي ثُكنة عسكرية للجيش النظامي. ومع ذلك، كان كثير منهم ينامون في مواقف الحافلات، أو الحدائق العامة، أو شرفات المحال التجارية، أو في البنايات المهجورة. وكان هؤلاء جميعهم يقطعون هذه المسافة سيـراً علـى الأقدام عند العودة إلـى بيوتهم مع بزوغ الفجر. كانـت حركة مسافري الليل تزيد أو تنقص بحسب وتيرة هجمات المتمردين. وقد لاحظ معظم المراقبين الدوليين أن الرحلات الليلية هذه قد توقفت عام 2007.

تشارلز: البداية

بعـد القبض على تشارلز، لم يظهر المتمردون ما يدل على أنهم في عجلة من أمرهـم. كانت نقطة تمركزهم، الواقعة على مفترق طرق عدة يستخدمها القرويون في العادة، مصيدة مثالية. وما كان عليهم سوى الانتظار، وسوف تأتي الطرائد إليهم.

ومع أول إشراقة للشمس، كانوا قد قبضوا على ستة أطفال وثلاثة رجال، جلس الأسرى صامتين قرب النار لا يجرؤ أحدهم على التحدث مع الآخر، وظلوا يحدقون فـي اللهب الـذي يخبو أمامهم. كان عمـر أحد الأولاد نحو عشـر سنوات، وهو عمر تشارلـز، في حين كان الباقون أكبـر بسنتين. لم يسبق لتشارلز أن تعرّف إلى هؤلاء الأولاد، ولكنه عرف الرجلين الآخرين، فهما من قريته.

عندما بدأ المتمردون يخلون المكان، طلب الرجل الذي يحمل البندقية ويصدر الأوامر من الرجلين التّحرّك إلى ساحة مكشوفة تبعد عن النار مسافة ثلاثة أمتار. تحـرك الرجلان دون تردد إلى حيـث أشار إليهما الرجل المسلح. أمرهما بعد ذلك أن يركعا على ركبتيهما على خط واحد، ثم صاح فيهما أن يتركا مسافة بينهما. بعد أن فعل الرجلان ما أمرهما به، استدار إلى الأولاد وقال: أيتها الجراء! استمعوا إليّ جيداً، فما سأقوله مسألة حياة أو موت.

أشار بيده إلى كومة من أغصان الأشجار التي قطعت إلى أطوال تقارب المترين، وقـال: سوف يمسك كل واحد منكم عصاً من هذه العصيّ، ويضرب هذين الرجلين حتى الموت؛ لأنهما خائنان لشعب الأشولي.

نهضـ الأولاد واحداً تلو الآخـر. واتجهوا إلى كَوْمة الأغصـان. وبعد أن اختار كلّ منهـم عصا، ذهبوا ووقفوا خلف الرجلين اللذين أطرقا صامتَيْن كالخراف التي تنتظر الذبح.

والآن، عليكم أن تضربوا هذين الخائنين على رأسيهما، أمر الضابط الأولاد. وعندما لم يتحرك أي منهم، اختطف العصا من يد تشارلز، ولوّح بها في الهواء، ومن ثـم ضرب بها أحد الفتية على ظهره، فصرخ صرخـة تقشعر لها الأبدان، ثم سقط على الأرض ميتاً. لوّح بالعصا ثانية ونظر إلى الفتى الثاني في الصف. لم يكن الفتى في حاجة إلى مزيد من التحريض؛ فرفع هراوته ثم هوى بها على رأس الرجل الراكع أمامه مباشرة، وعندما انفجر الدم من رأس الرجل الذي أخذ يتلوى من الألم، حدث

ما هو غير متوقع؛ إذ انضم الأطفال الآخرون إلى عملية الذبح. أعاد الضابط الهرواة إلى تشارلز، ثم ابتسم وهو يراه يشارك الآخرين في قتل الرجلين.

في دقائق قليلة، كانت ثلاث جثث ملقاة عند أقدام الأولاد. شعر تشارلز بخدر يسري في بدنه. أراد البكاء، لكن دموعه لم تسقط كما لو أنها جفت.

هــذا كل ما في الأمــر يا أولاد. ولكنّ هناك أمراً آخــر عليكم القيام به قبل أن تكونوا أهلاً للانضمام إلى جيش الرب، أعلن الضابط أمامهم، ثم أضاف: من أجل أن تكتسبوا قوة المقاتل، عليكم لَعْقَ دم ضحاياكم ليجري في عروقكم.

بعــد كل مــا فعله هؤلاء الأولاد، بدا هذا الطلب بسيطــاً في نظرهم، أو هذا ما اعتقــده تشارلز إلى أن تــذوق طعم الدم بلسانه. عندها، استفــاق من الحلم، ورأى الواقع على حقيقته، وانقبضت معدته، وكان على وشك أن يتقيّأ.

أحسنتم يا أولاد. أهلاً بكم إلى جيش الرب، قال الضابط بعد أن أكمل الأولاد هذه المهمة المروّعة. وللتأكد أن الأطفال قد أدركوا المغزى الكامل لاحتفال التعميد بالــدم، قال لهم: لا مجــال الآن لعودتكم إلى قريتكم. أنتــم الآن قتلة، وسوف يطلب أهل الرجال الذيــن قتلتموهم ثأرهم منكم. سوف تكونون أغبياء لو حاولتم الهرب، فإلى أين تذهبون؟

فلورنس لاكور؛ فرحة لم تخطر على البال

لا أدري مــا الذي أعطاها ذاك البهاء، ربما كانــت تلك الثقة الهادئة، أو ذلك التّفــرّد، أو ربما عيناها اللتان تنفذان إلى عمق الــروح. ومهما يكن ذلك السر، فإن فلورنســ تستخدمه بقوة لمواساة الأطفال المحررين الذين يأتون إلى المركز بحالة نفسية يرثى لها.

عندمــا بــدأت العمل في المركز أول مرة، وجدت أن مــن الصعب عليها سماع الأطفــال: الجنــود السابقيــن وهم يصفون كيــف هاجموا القرى واختطفــوا أطفالاً آخريــن. كانت تشعر بأنهم يتحدثون عن ابنتها فيغلي دمها في عروقها. لكنها كانت تتغلب على غضبها، وتدرك أن هؤلاء الأطفال أبرياء، وأنهم أجبروا على القيام بدور الجنود.

أخيراً، استطاعت تخطّي تلك المرحلة، وأصبحت بطريقة أو بأخرى، الأم البديلة للأولاد والفتيات من الأعمار جميعها. كانوا يأتون إليها باحثين عن الحب والنصح، بل والتأنيب أيضاً.

وبيــن هــذا وذاك، لم تتوقف أبداً عــن الأمل في رؤية ابنتهــا ثانية في يوم من الأيــام. وكلمــا كان الجيش النظامي يبلّغ منظمة الإغاثــة العالمية أنه سوف يسلمها دفعــة مــن الأطفال المحررين، كانت تسأل إن كانت ابنتهــا من بينهم. وكانت تتلقى الجواب نفسه طوال ثماني سنوات: كلا، ليست معهم.

كان بعض العبيد المحررين يقولون لها: إنهم رأوا ابنتها، وكان ذلك يكفي لإحياء الأمل عندها، ولكنها مع ذلك تخشى أن تكون قد قتلت منذ آخر مرة شُوهِدتْ فيها.

وفــي صبيحة يوم من أيام شهــر أكتوبر 2004، استيقظــت فلورنس من نومها وهــي تشعر بسعادة غامــرة لا تعرف سبباً لها، لكن هذا الشعــور ظل يلازمها طوال المدّة الصباحية.

عندما وصلــتْ إلى مكان عملها، علمتْ أن الجيش قد أنقذ عدداً من الأطفال، فذهبــت إلى المطار العسكري فــي مدينة جولو لاستقبالهم. هنــاك، أبلغها طفلان مــن المحررين أن ابنتها كانت موجودة معهما في معسكر المتمردين عندما هاجمه الجيش النظامي، وقالا: إنهما لا يعرفان الجهة التي فرت إليها، ولكنها لم تكن معهما عندما ألقى الجيش القبض عليهما.

تقول فلورنس عن ذلك: بعدما ساعدت الأطفال المحررين على الاستقرار في المعسكر، عدت إلى البيت وخلوت إلى نفسي، واسترجعت تفاصيل ذلك اليوم كلّها. والحقيقة أن الإحساس بالسعادة ظل يصاحبني طوال اليوم، وهذا أمر عجيب؛ لأن قلبي كان ينفطر عند سماع أي خبر سيئ عن ابنتي.

في اليوم اللاحق، تلقت فلورنس مكالمة هاتفية من صديق لها في الجيش النظامي، أخبرها فيها أن الجيش عثر على ابنتها في جنوب السودان، ثم جعلها تتحدث إليها، وكانت هذه أوّل مرّة منذ ثماني سنوات. وبعد يومين، كانت فلورنس تحتضن ابنتها في مطار جولو.

كان جمع شمل الأم بابنتها نهاية سعيدة أعقبت أيام الحزن والأسى. ولكن فلورنس لا تزال تتألم من أجل الأمهات اللواتي لم يعد أبناؤهن من الغابات.

الحرب في شمال أوغندا؛ خلفية تاريخية

توالت على أوغندا انقلابات عسكرية وثورات مسلحة منذ استقلالها عن الاستعمار البريطاني عام 1962، وقد ارتبط اسم المتسلِّط (الديكتاتور) السابق عيدي أمين دادا، عند معظم الغربيين، بصور التعذيب، وعمليات القتل غير القانوني، والمذابح الجماعية. كان الجنرال عيدي أمين قد قاد انقلاباً عسكريّاً في يناير 1971 ضد سلفه ملتون أوبوتي الذي ألغى الدستور، وفرض الحكم العسكري طوال خمس سنوات. وعلى مدار ثماني سنوات، حوّل عيدي أمين البلاد إلى ثكنة عسكرية، وزاد عدد القوات المسلحة إلى أربعة أضعاف، واستغل الانقسامات العرقية لإحكام سيطرته على ذلك البلد الإفريقي. ويقدر عدد المدنيين الذين قتلوا في أثناء حكمه بثلاث مئة شخص، معظمهم من المدنيين[6].

ولسوء الحظ أن هذا الجنرال يمثل حلقة في سلسلة من الأنظمة التي حكمت أوغندا بقبضة من حديد. وكان الأسلوب المتبع في الحكم مأساويّاً؛ إذ لجأ النظام

الجديد، بعد الإطاحة بالنظام السابق، إلى الانتقام من الجنود والمدنيين (أو القبائل) الذيـن كانوا يدعمون النظام السالف. وكانوا يرتكبون هذه الجرائم ضد شعبهم في مأمـن من العقاب. وعند الإعـلان عن إنشاء جيش الـرب للمقاومة عام 1987، بدا وكأنّه مثل أي تمرد آخر يدافع عن مصالحه القبلية. وكان العام السابق لهذا التمرد قد شهد انقلاباً دموياً قاده الجنرال يوري موسوفيني الذي أطاح بنظام الجنرال تيتو أوكيلو لوتوا الذي حكم البلاد ستة أشهر فقط.

لا يوجد حدث في أوغندا يمكن أن يتجاوز السياسات القبائلية. فقد كان الجنرال أوكيلو من عرقية الأشولي، وهي قبيلة تنتشر غالباً في المقاطعات الشمالية الثلاث: كتغوم، وجولو، وبادير. وقد ظل الأشوليون يشعرون بالاضطهاد من القبائل الأكثر غنى في جنوب البلاد وغربها. وكان هذا الظلم نتيجة للسياسات الاستعمارية البريطانية فـي القرن التاسع عشر، التـي أدت إلى تهميش قبائل الشمال. ولذلك، اتقدت جذوة الأحقاد القبلية القديمة عندما استولى موسوفيني على السلطة، وشنت قواته هجمات على القرى الشمالية، على وفق ادعاء الأشوليين.

التفت بقايا قوات أوكيلو والانفصاليون المدنيون من الشمال حول قيادة أليس أومـا Alice Auma، المرأة المشعوذة ذات الطموحـات السياسية (المعروفة أيضاً باسـم لاكونيا). كانت أليس تدّعي أن روحاً قد تلبّستهـا. وتعني كلمة لاكونيا في لغة الأشولي الرسولَ أو الوسيط.

زعمتْ أليس أن لاكونيا حملتها رسالة تأمرها فيها أن تطهّر شعب الأشولي من خطاياهم، وأن تحشد لانقلاب عسكري ضد حكم موسوفيني. وأطلقت المشعوذة على نفسهـا اسم أليس لاكونيا، وعلـى الميليشيات التي شكلتها اسم حركة الروح القدس the Holy Spirit Movement. ومـن الغريب، مثلما كانـت القصة غريبة بكاملها، أن هـذه الحركة أبدت مقاومة صلبة أمام قـوات موسوفيني قبل تراجعها إلى كينيا. وهنـاك، قضت أليس لاكونيا نحبها في ينـاير 2007 في معسكر للاجئين.

بعد هزيمة حركة الروح القدس، ادعى جوزيف كوني أنه ابن عم أليس، على الرغم من عدم وجود رابطة دم بينهما، وأنه مكلف بإتمام رسالتها السماوية. كان جوزيف يأمل أن يلتف شعب الأشولي حول قيادته، لكنّ مسعاه باء بالفشل، حيث رفضه الشعب، ما دفعه إلى الانتقام منهم، وتنظيم حملة لتطهيرهم من خطاياهم. ورداً على رفض انضمام البالغين إلى حركته، أخذ على عاتقه تنشئة أطفال الأشولي بنفسه وتعليمهم معنى التحرير، وكان يؤمن أن الجيل الجديد سوف يكون مخلصاً له، ولن يخونه أبداً.

مارجريت؛ التضحية

عندما أمر القائد بإيقاع العقوبة على مارجريت، تجمع المتمردون جميعهم لمشاهدة الحدث. لم يبتهجوا ولم يضحكوا، ومع ذلك كانوا منجذبين إلى العنف انجذاب الفراش إلى الضوء.

غالباً ما تؤدي حرية إنسان في أوغندا إلى معاناة إنسان آخر. لم يجعل أطفال القرية تضحية مارجريت تذهب هباءً، فقد استغلوا انشغال المتمردين، وتعاونوا على فك أيديهم من القيود. وفي لحظات، كان شقيق مارجريت وخمسة من رفاقه يتسللون هاربين إلى الغابة، وبقي الأطفال الآخرون في أمكنتهم على الرغم من أن أيديهم غير مقيدة. لقد كانت العقوبة التي طبقّت على مارجريت هي ما حفّزهم إلى التخلص من قيودهم والهرب من محتجزيهم؛ ربما كان قرارهم صائباً.

عندما فوجئ القائد بهروب الفتية، أرسل أفضل قصّاصي الأثر وراءهم، فألقوا القبض على أربعة منهم، وأعدموهم فوراً.

استطاع شقيق مارجريت وطفل آخر الإفلات من ملاحقيهم، وعادوا إلى قريتهم. انتاب أهالي القرية اليأس من رؤية أولادهم مرة أخرى، ولكن الآمال انتعشت لديهم عند رؤيتهم لاثنين من الأطفال المُختطفين يخرجان من الغابة.

لكن فرحتهم لم تـدم طويلاً؛ إذ إن الطفلين أبلغوهم بتهديد قائد المتمردين بقتـل سكان القرية كلهم في حـال هروب أي طفل من الأطفـال المُختطفين. سارع الأهلـون عند سماع ذلك إلى أكواخهم، وجمعوا مـا خف حمله وغلى ثمنه، وانطلقوا إلى عاصمة الإقليم.

وبعد ساعات قليلة، وصل المتمردون إلى القرية، وطوّقوها. ولكنهم حال دخولها، وجدوهـا مهجورة، فأشعلوا فيها النار. وما إن انتهـى النهار، حتى كانت القرية أثراً بعد عين؛ دخاناً متصاعداً من بقايا الأكواخ.

طريق الحرية الصعب

فـي عصر يوم من أيام يونيو 2006، دخلت ثلاث فتيات في السادسة عشر من العمـر إلى مركز منظمة وورلد فيجين لأطفال الحرب. كانت الفتيات يشبهن هياكل عظمية متحركة بعيون حائرة. وحال دخولهن، استقبلهن بعض الجنود السابقين الذين عرفوهن في جيش الرب بترحيب حار، في حين لم تبد فتيات المركز أي تعاطف معهن.

وصلت الفتيات حليقـات الرؤوس تماماً، وكانت إحداهن مصابة بحرق شديد في رأسها، كشف عن جزء من جمجمتها، كان المتمردون يعدّون العشاء عندما شن الجيشـ النظامي هجوماً عليهم. وفي أثناء عمليـة الانسحاب، أمر قائد المتمردين هـذه الفتاة المصابة أن تحمـل قدراً ساخناً على رأسهـا، ولكنها تعرقلت وسقطت، فسالـت محتويات القدر الحـارة على رأسها فحرقته. تركها القائد في مكانها ولحق بالمتمرديـن الفارّين. وعندما دخـل الجنود النظاميون المعسكـر، عثروا على هذه الفتاة المصابة.

وهناك شيء آخر ميز أولئك الفتيات الثلاث، وهو أن غالبية الفتيات المراهقات فـي المعسكر كـن أمّهات صغيرات، أما هـنّ فلم تحمل أي واحـدة منهن طفلاً بين ذراعيها.

يرغم جيش الرب بعض الفتيات على القتال مجنّدات، ولكن الضباط الكبار يتقاسمون معظم الفتيات ليكنّ محظيّات لهم. وكان من الطبيعي أن يكون عند أحدهم أربع محظيّات أو خمس، بل إن شهود عيان ذكروا بأن جوزيف كوني كان يحتفظ بستين جارية صغيرة.

أحياناً، يفلح الأطفال العبيد في الهرب من أسر جيش الرب مستخدمين مهاراتهم الذاتية، على حين يجري إنقاذ آخرين في غارات الجيش النظامي على معسكرات المتمردين. واعترافاً منها بأن الأطفال الجنود لم يلتحقوا بجيش الرب طواعية، فقد أصدرت الحكومة الأوغندية عام 1999 قانون العفو العام الذي نصّ على وقف ملاحقة أي مقاتل في جيش الرب؛ وفيهم كوني وكبار ضباطه إنْ سلّم نفسه إلى الحكومة الرسمية.

عند احتجاز الجيش النظامي الأطفال الجنود، يسلّمهم إلى وحدة حماية الأطفال الموجودة في ثكنة الجيش في جولو. هناك، يبقيهم الجيش أياماً عدة: للتحقيق معهم، من أجل جمع معلومات استخباراتية تتعلق بالمتمردين. ويعرض ضباط الجيش على الأولاد الكبار في السن الانضمام إليه في الحرب ضد جيش الرب، وقد قبل عدد كبير منهم هذا العرض.

لكن إجراءات الجيش النظامي، ومنها طول مدة التحقيق، والتجنيد الإجباري للأولاد الكبار في السن، أدت إلى انتقادات من منظمات الأطفال، وقالت: إن وجود مدنيين في هذه الوحدة يوفر حماية أفضل لحقوق الأطفال.

بعد انتهاء هذه الإجراءات، يرسل الجيش النظامي هؤلاء الأسرى إلى مركز تأهيل. ولأن أولياء الأمور يعرفون تسلسل هذه الإجراءات، فإنهم يترددون بانتظام على مراكز منظمة وورلد فيجين؛ أملاً في العثور على أطفالهم المُختطفين. وقد تنقلب فرحتهم إلى غمٍّ وهمٍّ عند رؤية أولادهم بأطراف مبتورة، أو بناتهم حاملات أطفالاً.

إنّ معظم الأطفال المجنّدين يعرفون اسم منظمة وورلد فيجين، ولكن في محاولة لتثبيط هؤلاء الأطفال عن الهرب، يبثُّ قادة جيش الرب معلومات مغرضة غير صحيحة عن المنظمة؛ كادعائهم بأنها سوف تعطيهم السّمّ أو البطاطا المخلوطة بشظايا الزجاج.

ومن أجل إزالة خوف القادمين الجدد، ينظم موظفو المنظمة حفل استقبال لهم. فعندما يدخلون المركز، يخرج إليهم الأطفال المحررون بأذرع مفتوحة لاحتضانهم، ثم يغنون معاً ويرقصون.

وبعد الانتهاء من حفل الاستقبال مباشرة، يبدأ فريق طبي متخصص بالكشف الطبي لتقدير الوضع الصحي لهم. قد يكون بعض الأطفال مصابين بجروح خطيرة، ما يستدعي رعاية طبية في المستشفى. وغالباً ما يكونون مصابين جميعهم بفقر الدم، وبداء الجرب، والديدان، وتشقّق الأقدام.

ومع مرور الوقت، وعندما يتكيف العبيد المحررون حديثاً مع البيئة الجديدة، يخضعون إلى إرشاد نفسي.

في البداية، يرفض الأطفال الحديث. ولمساعدتهم على التنفيس عن ذكرياتهم المؤلمة، يستخدم المرشدون: التمثيل، والرّقص، والغناء، والرسم. وكثيراً ما يرسم معظم الأطفال الأعمال المقيتة التي شاركوا فيها قبل البدء في الحديث عنها.

مارجريت تصبح مجنّدة

قبل بلوغها الحادية عشرة، انضمت مارجريت إلى الأولاد في التدريبات العسكرية، حيث تعلّموا كيفية تفكيك البندقية الآلية واعادة تجميعها، وكيفية إمساكها والتصويب بها، وتلقي ارتدادها بالكتف.

إضافة إلى ذلك، علّمهم الضباط الأساليب القتالية وفنون الانسحاب. ومع مرور الوقت، تحول الأطفال المختطفون إلى أطفال مجنّدين.

أما الرجال الأكبر سنّاً الذين يُلقي جيش الرب القبض عليهم، فيُستخدمون لحمل الأسلحة الثقيلة وخيام الضباط، وأيّ أشياء ثقيلة أخرى. وكان هؤلاء الحمّالون يثيرون دهشة مارجريت دائماً لصبرهم على أعبائهم دون شكوى.

ولكن يبدو أن أحد الحمّالين لم يعد يستطيع تحمل مزية من هذا العمل المضني، فحاول الفرار في صبيحة أحد الأيام. كان فريق الدورية الليلية قد عادوا إلى المخيم، وكانوا منشغلين في تناول الإفطار. زحف الحمّال نحو خمسين متراً، ثم انتصب على قدميه، وأخذ يعدو بأقصى ما لديه من سرعة. رآه طفل مجنّد كان يجمع الحطب لإشعال النار، فأطلق صفارة الإنذار. تحول المعسكر الغارق في سباته إلى دوامة من الحركة. وما إن صاح الضباط بالأوامر حتى أخذت موجات من الأطفال المجنّدين يركضون إلى خارج المعسكر بحثاً عن الحمّال الهارب. في تلك الأثناء، استغلت إحدى البنات - التي عرفتها مارجريت من المدرسة - حالة الفوضى السائدة لتفر في الاتجاه المعاكس.

ولسوء الحظ أن الحمّال والفتاة لم ينعما بحريتهما لأكثر من عشر دقائق؛ لأن الأطفال المجنّدين قبضوا عليهما وأعادوهما إلى المعسكر.

أعلن أحد كبار الضباط أن الهروب أعظم خيانة يمكن أن يقدم عليها العبد. وما إن أنهى بيانه المختصر حتى بدأ عدد من الضباط الأصغر رتبة في طعنه بحرابهم في مؤخرته. بدا الأمر بالنسبة إليهم لعبة مسلية؛ فكلما علت صيحاته ألماً، زادت متعتهم في تعذيبه. بعد ذلك، تناوبوا على ركله في أنحاء جسده كله، فانقلب على ظهره، فسارع أحدهم بقطع عضوه الذكري. وأخيراً، قرر أحد الجنود وضع نهاية لهذه اللعبة بعدما أزعجه سماع صرخات الألم، فهوى بحربته بقوة مخترقة صدر الرجل، فتوقفت الصرخات إلى الأبد. بعدئذٍ، انتقل التعذيب إلى الفتاة، حيث طعن الضباط

ثدييها مـرات عدة. وعندما كانوا يهمّون بتوسيع نطاق التعذيب، أمرهم أحد القادة بالتوقف، وقال بصيغة آمرة: يجب أن يتولى زملاؤها تعذيبها.

جال ببصره في البنات المُختطفات حديثاً، واختار اثنتين منهن، وطلب إليهما التقـدم إلى الأمام. فجأة، وكأنمـا خطرت له فكرة ما، نظر مباشرة إلى مارجريت، وقال: أنتِ، تعالي إلى هنا. أعتقد أنك قد تعلمت درساً من عقوبة الضرب التي مررت بها.

لم ينتظر طويلاً، فأمر الأولاد المُجندين بإعارة هراواتهم إلى القاتلات اللواتي اخترهـنّ. في البدايـة، أخذت البنات يضربن جسم الضحيـة، ولكن هذه الطريقة أطالت مدة عذابها. ولذلك، أخذن بضربها على رأسها حتى هشّمن جمجمتها وتركنها جثة هامدة.

فلورنس لاكور: احتفال الحريق

بعد ساعات من وصول الأطفال المحررين من قبضة جيش الرب، كانت فلورنس تـوزّع عليهم مجموعة من الثياب الجديدة، وتأخذ منهم الثياب التي كانوا يرتدونها، محتفظة بها في المخزن. وغالباً ما يكون الأطفال قد غنموا تلك الثياب من الضحايا الذيـن قتلوهم. والغريب في الأمر أنهم كانـوا مترددين في تسليم هذه الثياب. فهم لم يكونوا يملكون أشيـاء كثيرة وهم بالأدغال، ولذلك كانت هذه الملابس غطاءهم الأمنيّ نوعاً ما.

كانـت فلورنس تترأس اجتماعاً شكليّاً كل شهر: تجمـع الأطفال في حلقة، ثم تضـع كومة في وسطهـا، وتسأل الأطفـال إن كانوا يعرفون ما فيهـا. كانوا يتقدمون إلـى مـكان الحزمـة واحـداً تلو الآخـر، فيتعرفـون إلى شـيء كان جزءاً مـن زيّهم الرسمي في الأسر.

بعـد الانتهاء من هذا الاستعراض، كانت ترشدهم ألّا يظلوا أسرى لماضيهم، وأن لا أحد يستطيع إرغامهم على أداء أعمال فظيعة، وأنهم أحرار في اتخاذ قرارات وخيارات تهديهم إلى طريق الصواب.

وفـي ختام هذا الاجتماع، كانت تطلب إلى إحدى الفتيات أن تسكب الكاز على الحزمة، ثم تعطي علب ثقاب إلى الأولاد لإشعال النار بالحزمة في ابتهاج احتفالي.

تشارلز؛ طقوس التعميد

كان القائـد العـام جوزيف كوني ينتـزع خوفهم من خلال طقوس دينية. بعد اعتقالـه بمدّة قصيـرة، اقتيد تشارلز والمُختطفون الجدد إلـى معسكر كوني، وقرأ عليهم صلوات، وأدى طقوساً استخدم فيها الزيت المُستخرج من جوز الشيا.

عندما تمسحون أجسادكم بهذا الزيت، لن تستطيع رصاصات الأعداء اختراقها، كان يقـول وهـو يلطخ جسمه بالزيـت. ويضيف: لقد أصبحت روحـي الآن جزءاً من أرواحكم، ولدي القدرة على سبر غوركم ومعرفة ما تفكرون فيه. فإن حاولتم الهروب في أثناء معركة ما، أو إذا أخذتم تفكرون في عائلاتكم التي تركتموها وراءكم، فسوف تتوقف روحي عن حمايتكم، ومن ثَمَّ، سوف يقتلكم أعداؤنا.

وكان كوني يوحي إلى الأطفال أنهم قد اختيروا بالذات لهدف خاص هو تطهير أوغندا، وإنشاء مملكة جديدة؛ لأن الله قد لعن موسوفيني وجنوده، ولن يمضي وقت طويل إلّا وهم منهزمون: فنحن نقاتل من أجل سلام شعب الأشولي.

كانـت التعاويذ والطقوس الروحية تهيمن تقريباً على جوانب حياة المتمردين كلهـا. وقد أوكلت إلى تشارلز مهمة تعميد الأطفـال روحيّاً: كان يأخذهم إلى النهر، ويصـب فـوق رؤوسهم خليطاً من الأعشاب الخضـراء المنقوعة في الماء. وكان في أثناء ذلك يدعو أن يتطهر الأطفال من دنس المعصية.

السودان والصراع الأوغندي

مثلما كانت تغذي الحرب في دارفور، قامت الحكومة السودانية بدور كبير في إثارة النزاع في شمال أوغندا.

وافق جيش الرب للمقاومة علــى مساعدة الحكومة السودانية في الحرب ضد الجيشــ الشعبي لتحرير الســودان، مقابل تزويده بالســلاح والأغذية بانتظام. وفي منتصف تسعينيّات القرن الماضي، كان الجيش الأوغندي النظامي قد طوّر من قدراته القتالية في ملاحقة مقاتلي جيش الرب الذين كانوا ينسحبون دائماً إلى مناطق الريف الأوغندي. ولذلك، قرر الجيش نقل قواعده إلى جنوب السودان.

وقد أدى تورط السودان في الصراع الأوغندي إلى تدخل الدول الغربية بصورة أو بأخــرى؛ حيث صعّدت الولايات المتحدة حملتها ضد الإرهاب في أعقاب هجمات الحــادي عشــر من سبتمبــر 2011. ولتبرير هــذا التدخل، أعلن الرئيسـ الأمريكي جــورج بوش جيش الرب للمقاومة منظمة إرهابية. وبعــد أن تعرضت إلى ضغوطات كبيرة لإثبات عدم مساندتها للإرهاب، قالت الحكومة السودانية: إنها أوقفت الدعم الاستعلامي (اللوجستــي) لجيش الرب. لكنّ هذا الدعم عاد إلى التدفق عام 2002، عندما ساعد جيش الرب السودان في استعادة بلدة توريت الإستراتيجية من الجيش الشعبي لتحرير السودان.

وفــي عام 2002، أطلق الرئيس الأوغندي موسوفيني حملة واسعة النطاق ضد قواعــد جيش الرب في جنوب السودان. ومــع أن الجيش النظامي كان معدّاً للقضاء على جيش الرب كله، فإن العملية، بدلاً من ذلك، أثارت عشّ الدّبابير.

لقــد كان هجوم الجيش الأوغندي النظامي على قواعد جيش الرب شرساً، ما اضطر مقاتلي هذا الجيش إلى الانقسام في وحدات صغيرة، استطاعت التسلل إلى جنوب أوغندا مرة أخرى. وفي خلال عام ونصف من هذه العودة، خطف جيش الرب

عشرة آلاف طفل، وعاث في الأرض فساداً. ولم يتمكن الجيش النظامي من استعادة شـيء من السيطرة العسكرية الرمزية إلا في نهايـة عام 2004، فعاد متمردو جيش الرب يتدفقون إلى جنوب السودان مرة أخرى.

وفي أغسطس 2006، وقعت الحكومة الأوغندية وجيش الرب للمقاومة هدنة في الحرب الدائرة بينهما. وقد نصّت شروط الهدنة على مغادرة المتمردين لقواعدهم فـي جميع أنحـاء السودان والكونغـو، والتمركز فـي قاعدتين في جنـوب السودان. فـي حين تعهدت حكومة جنـوب السودان بحمايـة جيش الـرب، والتزمت الحكومة الأوغنديـة بعدم مهاجمة المتمردين. ولم يمض أكثر من شهر حتى انتهك الجانبان شروط الهدنة[7].

وزادت المحكمة الجنائية الدولية الأمور تعقيداً عندما أصدرت مذكرات اعتقال بحـق قيادات جيش الرب، وهذا يعني محاكمة جوزيـف كوني وأربعة من كبار قادته بارتـكاب جرائم حرب. يومها، طالبت منظمات سياسية بوجود لائحة اتهام إذا كنا نريد تحقيق العدالة، في الوقت الذي قالت فيه منظمات أخرى بأن لائحة الاتهام قد سـدّت الطريق أمام قيادات جيش الرب، ولم تعطهـم أي خيار لوقف الحرب، وهذا مـا دعا جوزيف كوني إلى الإعلان بعدم إلقاء السـلاح وعدم الاستسلام طالما ظل هو وقادته مهددين بالاعتقال.

وظهـرت بادرة أمل في السلام عام 2008، عندما أُشيع أن كوني على استعداد لتوقيع اتفـاق سلام. انتظر مندوبو الأمم المتحدة وآخرون أيّاماً عدة بانتظار قدوم كونـي، لكنـه لـم يفعل. وما حدث، بـدلاً من ذلـك، أن مقاتلي جيش الـرب هاجموا قريـة في الكونغـو في عيد الميلاد عام 2008. فاختطفـوا الأطفال وقتلوا المدنيين. حينهـا، بـدا أن جيش الـرب أخذ يطبـق أساليبه فـي شمـال أوغندا علـى أجزاء من الكونغو.

مارجريت؛ زوجة ضابط في جيش الرب للمقاومة

عند بلوغها السنة الحادية عشرة من العمر، لم يعد يُسمح لمارجريت بمشاركة الأولاد في العمليات القتالية، فقد استدعاها ضابط كبير وقال لها: آن الأوان لتصبحي زوجة.

لم يكن لديها أي فكرة عن معنى أن تكون زوجة، فقد كانت تعتقد، بعد ملاحظة الفتيات الأكبر عمراً، أن ذلك يعني إعداد الطعام للضابط وغسل ثيابه.

في اليوم اللاحق، سُلّمت مارجريت إلى مايكل، وهو ضابط في العشرين من عمره، أمضى تسع سنوات مع جيش الرب. كانت لديه زوجة أخرى تولت تعريف مارجريت بواجباتها المنزلية. في تلك الليلة، قال مايكل لزوجته الأولى: اذهبي ولا تعودي إلا بعد ساعة، ثم أمر مارجريت بدخول الخيمة. حال دخولها، أمسكها من رقبتها وحسر عنها ثوبها. استطاعت مارجريت التحرّر من قبضته، وانطلقت هاربة من الخيمة إلى الغابة، ونامت تلك الليلة في العراء.

في صباح اليوم القادم، عادت إلى الخيمة. كانت زوجة مايكل الأولى منهمكة في غسل سراويل وسخة. جلست مارجريت إلى جانبها، ثم تناولت سروالاً متسخاً لتغسله: وخيّم الصّمت عليهما.

شعرت مارجريت بالارتياح لعدم رؤية حذاء مايكل خارج الخيمة، فاعتقدت أنه قد غادر في مهمة ما.

بعد ساعات قليلة، جاء ضابط كبير إلى الخيمة، وقال لمارجريت: إنها في حاجة إلى توجيه، وإن مايكل قد أخذ مجموعة من الأولاد للتأكد من إشاعات عن تحركات العدو على الضفة الأخرى من النهر، وأنه لا يتوقع عودته حتى مساء الغد.

هزت مارجريت رأسها، وشعرت بفيض من السعادة لحصولها على مدة إمهال ليوم واحد في الأقل.

لكن الضابط أضاف بنبرة حادة: لقد أبلغني مايكل بما حدث الليلة الماضية. إن تصرفك هذا غير مقبول؛ لأنه لا يحق لك رفض ممارسة الجنس مع ضابط في جيش الرب.

أحست مارجريت بالخوف، واكتفت بهزّ رأسها بالموافقة عندما قال لها غاضباً: عليك فعل أي شيء لإرضاء زوجك. هل هذا مفهوم؟

ومع أن مارجريت هزت رأسها مرة أخرى، فإن الضابط لم يترك أمامها أي فرصة للرفض، فقال: سوف تُحرمين من الطعام إلى أن تنامي مع زوجك. وإذا سمعتُ أنك قد عصيت أمري، فسوف يكون عقابك أشد مما تتصورين.

ظلت مارجريت دون طعام بقية اليوم، واليوم الذي تلاه أيضاً. وفي ليلة عودة مايكل، دخلت خيمته، فاغتصبها؛ صامتة خانعة.

حينها فقط، عرفت معنى أن تكون زوجة في جيش الرب، وكان عليها أن تقضي السنوات الست القادمة عبدة لشهوة مايكل.

فلورنس لاكور؛ مجتمع الناجين

قدّمت خمس وسبعون امرأة شابة رقصة شعبية في الساحة الرئيسة لمركز منظمة وورلد فيجين. حملت كل واحدة منهن في يدها فأساً خشبيّة صغيرة، وحرّكن أقدامهن وأيديهن حركة جماعية متناسقة. وأمام هذا التشكيل، جلست امرأتان القرفصاء يقرعان الطبول بأكفهما بحماسة شديدة.

وقفت فلورنس بين ضاربتي الطبول، وهي تهز جسدها إلى الأمام وإلى الخلف. ومع أنها كانت متوسطة الطول، فإنها بدت في تلك اللحظة أطول من مترين. كانت تردّد كلمة بلغة الأشولي بين حين وآخر، على إثرها تبدِّل الفتيات اتجاه الرّقص. ثم تحركت فلورنس بهدوء وثقة إلى مقدمة التشكيل الجديد.

استمر الرّقص على هذه الشاكلة أكثر من ساعة. وكان أداء النساء مذهلاً على الرغم من الحرارة العالية والغبار المتطاير من الساحة الترابية. كانت أولئك الفتيات الشابات قد تخرجن من المركز، ويعشن الآن حياة مستقلة في مدينة جولو. وكنّ يعدن إلى المركز مرة في الأسبوع للمساعدة في إعداد الطعام والملابس، والدعم المعنوي.

وكانت الأنشطة، مثل هذا الرّقص، تذكر النساء أنهن لسن وحيدات، بل ينتمين إلى قبيلة روحانية من الناجين.

تتــراوح أعمار هؤلاء الفتيات بين ستــة عشر عاماً وأربعة وعشرين، وربما كان 80% منهــن يحملن أطفالاً رضّعــاً، أو يصطحبن أطفالاً دارجيــن؛ هم نتاج عبودية الجنس التي عشنها مع ضباط جيش الرب للمقاومة.

كان جيش الرب يعلّم الذكور النظر إلى النساء بأنهن كائنات خُلقن للاستمتاع بهــنّ، وأن يعاملوهن بقسوة إذا عصينهم. ويمكن أن نتصور هذه القسوة من شهادة إحدى المُختطفات المُحرَّرات.

لقد أفادت هذه المرأة بأنها شاهدت جوزيف كوني يصدر أوامره بإعدام اثنين من ضباطه الشباب لأنهما كانا يُحسنان صحبة عشيقتيهما. وأعلن عند إصدار الأوامر أن هــذه القدوة السيئة ستكون مثل السرطان الذي سيقضي على العلاقات الطبيعية في المعسكر. وبعد تنفيذ الإعدام، وزع كوني عشيقتيهما على ضباط أكثر استحقاقاً؛ كقطعة أثاث.

يؤمــن المتمــردون أن الجنس حقّ من حقوق الرجل، وهــم لا يلتزمون بتحديد النسل أو بالوقاية. ولذلك، فإن معظم البنات في جيش الرب معرضات للحمل في أي وقت. ولأن الضباط يخشون الإصابة بالأمراض الجنسية، مثل مرض نقص المناعة المكتسب، فإن ذلك يغريهم على اختطاف البنات العذارى.

في مركز منظمة وورلد فيجين، تتلقى النساء توعية عن فيروس الإيدز والوقاية منـه. وكثيراً ما ترفض بعض النساء الخضوع لاختبار الكشف عن هذا الفيروس، ما يؤكد أنهن لم يُصبن به في المناطق الريفية. ولهذا، فإنهن يشعرن بالعار، ويرفضن الاعتراف بإصابتهن بهذا المرض.

إنّ الأمهات الصغيرات يُفضّلن البقاء في مدينة جولو؛ لأنهن يجدن صعوبة في التأقلم ثانية مع مجتمعاتهن الأصلية، التي تلصق بهنّ وصمة الاغتصاب. يُضاف إلى ذلـك افتراضـ أن الأب الغائب عضو في جيش الـرب المكروه، وهذا يزيد من عزلة الأم الصغيرة؛ فأي رجل يلتقيها، ويبدي رغبة في الارتباط بها، سوف يخشى أن يأتي ضابط في جيش الرب، في يوم ما، لاستعادة زوجته.

ولا تزعم فلورنســ أن طريق هؤلاء النسوة بعد التحرير مفروش بالورود. وهي تقـول: إن واحدة مـن بين ثلاث نساء ترجع إلـى أب أطفالها - الرجـل نفسه الذي اغتصبهـا واستعبدهـا - عندما يُلقـى القبض عليه ويُمنح العفـو. وتفضل كلّ منهن العيشـ مع الشيطان الذي عرفته على مواجهـة شيطاني الفقر والعزلة الاجتماعية؛ وحيدة منبوذة.

فـي المقابل، يرى ضباط جيشـ الرب رقيق الجنس ملكيـة شرعية لهم؛ فقد طلـب أحد هـؤلاء الضباط المُفرج عنهم جمـع شمله مع زوجاته فـي مركز منظمة وورلد فيجين. وعندما رفضت النساء أن تكون لهن أي علاقة به، اجتاحته نوبة غضب شديدة، ولم يقتنع أن مجرد اختطاف هؤلاء النساء لا يعطيه الحق في امتلاكهن.

تشارلز: العريف الشاب

حلَ القتل والنهب مكان القراءة والرياضيات في حياة تشارلز. لقد تعلم كيفية إطـلاق النار، وتنفيذ الأوامر العسكرية، واستكشاف تحركات العدو، وطمس أثر أيّ هدف مدني.

كان للغارات على القرى والعزّل المدنيين هدفان رئيسان، هما: الاستيلاء على الأغذيـة، واختطاف أطفال جدد لتجنيدهـم. كان للمتمردين خططهم الخاصة في الغـارات؛ فعند اقترابهم مـن القرية، يصطفون في صفّ طويـل لمنع أي مدني من الهـرب. كانت العـودة إلى المعسكر دون طعـام هي الحافز الذي قـد يعطي الطفل المجنّـد مبرراً للقتل والفوضى التي ترافق الهجـوم. لقد أصبح تشارلز ورفاقه قتلة بلا ضمير.

ما كان يشغل بال تشارلز هو الجوع والعطش؛ فالقادة كانوا يستأثرون بالحصة الكبـرى من الطعام بعد كل عملية هجـوم ناجحة على أي قرية ونهبها. كانوا يعطون حصـة واحـدة إلى أكثر مـن اثني عشر مُجنَّـداً، فكان الأطفال يجلســون في حلقة، ويتناوبـون الحصول علـى لُقيمات قليلة لا تسدّ جوعهم. ومن يـأكل أكثر من حصته يُطرد من المجموعة، ولا يُسمح له بتناول مزيد من الطعام.

أمـا ندرة المياه فكانت أصعب من مشكلة الطعام؛ ففي الأقل، كان المتمردون فـي أوغنـدا يجـدون ينابيـع جاريـة. أما فـي السـودان، فقـد كان تشارلـز يقضي ثلاثـة أيـام على جرعة واحدة مـن المـاء. وكان الأطفال المجنّـدون يضطرون في أحيـان كثيرة إلى شـرب بولهم. أمّا الضعـاف منهم فمصيرهم المـوت عطشاً في صحراء السودان.

ومع مرور الوقت، أخذ ضباط جيش الرب يلاحظون براعة تشارلز العسكرية. فعندما كان عمره ثلاث عشرة سنة فقط، كافأه ضابط كبير عرفاناً بقيادته القوية في الميدان، ورفعه إلى رتبة عريف، ما جعله يقود غارات على القرى الصغيرة، لاختيار الأولاد الذين يرافقونه في تلك الغارات.

عندما كان كبار الضباط يقضون ليلتهم في أحد المعسكرات، كان المتمردون يفرضـون على المعسكر حماية مشددة؛ إذ كانوا يحفرون خنادق في حلقات متتابعة حول المنطقـة التي تنصب فيها خيمة الضباط. كان المُختطفون الجدد ينامون في

الخنادق المكشوفة في الحلقات الخارجية، في حين يرابط الأولاد الأقدم خدمة في الحلقات الداخلية. وعليه، فقد انتقل تشارلز إلى حلقة داخلية بعد ترقيته، حتى إنه شارك في إحدى المرات في وضع التفاصيل الأمنية لحماية القائد العام جوزيف كوني.

أخذ تشارلز يشعر بالفخر لكونه يرأس أطفالاً أكبر عمراً منه. وكان يمارس سلطة على الحمّالين، لكنه احتاج إلى بعض الوقت ليعتاد إصدار الأوامر للرجال الكبار في السن. وكان يقول لنفسه بأنه سيأتي اليوم الذي يصبح فيه ضابطاً، وتكون له زوجات يطبخن له ويغسلن. كان الطريق واضحاً في نظر تشارلز، فإما أن يظل ضعيفاً وعرضة للضرب، أو يصبح قويّاً، وحينها يمارس عملية ضَرْب الآخرين.

إيدان لاجوم لومورو؛ اختراق عقلية العبيد

لسوء الحظ، كانت الإساءة البدنية والنفسية المستمرة التي يتعرض لها الأطفال العبيد على أيدي جيش الرب تؤدي إلى نتيجة: فقد كان معظم ضباط الجيش الحاليين أطفالاً مُختطفين، تشرّبوا الولاء لقائدهم جوزيف كوني.

بعد أسرهم وإطلاق سراحهم، وإرسالهم إلى مركز منظمة وورلد فيجين، يحاول ضباط جيش الرب إنشاء ترتيب قيادي، وإصدار أوامر للأولاد والبنات الصغيرات لأداء خدمات لهم. وفي المثل، فعندما يقابلون نساءً كن محظيّات لهم في السابق، فإنهم يتوقعون استمرار هذه العلاقة.

ولهذا، أنشأت منظمة وورلد فيجين عام 2003 مركز تأهيل منفصلاً لليافعين الذي بلغوا ثمانية عشر عاماً من العمر، تولت إدارته إيدان لاجوم لومورو Idan Lagum Lumuro. لا يوجد أفراد كثيرون يمكن أن يطلق عليهم لقب (قوة الطبيعة) ولكن إيدان تستحق هذا اللقب بجدارة. وهي لا تستجدي الاحترام من الآخرين، بل تفرضه عليهم. لقد كان اختيار إيدان مسؤولة عن هؤلاء الشباب الذين دُرّبوا على احتقار النساء، قراراً صائباً.

لا تقتصر مهمة إيدان على الواجبات الإدارية، فهي تعقد جلسات إرشاد مع الأطفال المُجندّين السابقين، وتتحدث عن الفرق بين العاطفة والمساءلة. كان جيش الرب قد اختطف هؤلاء الشباب وكافأهم على وحشيتهم. وهي تؤمن أن هؤلاء الشباب غير ملومين على هذا الجرم، ولكنهم إذا رفضوا تحمل مسؤولية سلوكهم في المعسكر، فإن إيدان تؤنبهم بشدة، وتطلب إليهم تناسي ماضيهم وتذكُّرَ حاضرهم.

في بداية شهر يونيو 2006، جمعت إيدان نزلاء المركز جميعهم لبحث احتمالات إنهاء الحرب، وكانت تأخذ في الحسبان أربعة عوامل عند الاستماع إلى تعليقاتهم: أولها أن معظم هؤلاء الشباب كانوا أسرى لدى جيش الرب لأكثر من خمس سنوات. وثانيها أن معظمهم كانوا ضباطاً ذوي رتب عالية. أما ثالثها فهو أنهم حُرِّروا منذ مدة قصيرة فقط. ورابعها إيمان معظمهم بأن جوزيف كوني يمتلك قوة سحرية عظيمة، وأنهم إذا ما تحدثوا عنه بسوء، فسوف يعرف ذلك ويعاقبهم عليه.

كانت تدرك أن عقلية العبيد تعني عدم القدرة على التفكير خارج الإطار الذي يُحشر فيه الإنسان رغم أنفه. ولذلك، كان من الصعب على هؤلاء الشباب الشفاء من غسيل الدماغ الذي تعرضوا له طوال سنوات من الانضباط الصارم.

في ذلك الاجتماع، أعرب أحد هؤلاء الشباب عن اعتقاده بأن كوني هو الوحيد الذي يستطيع تفسير ما يخططه الله لأوغندا. في حين ألقى آخرون باللائمة على موسوفيني لإطالة أمد الصراع، وقالوا: إنّه كان ينتهك وقف إطلاق النار في كل مرة يوافق فيها كوني على مفاوضات السلام، ويحاول تدمير الحركة المعارضة. وأجمع الحاضرون على أن كوني لن يقبل أبداً استسلاماً غير مشروط، أو تقديم نفسه إلى المحاكمة. وأضافوا بأن التدخل الدولي هو وحده الكفيل بحل الصراع؛ لأن موسوفيني لا يمكن الوثوق به.

و ظهـرت عقليـة العبوديـة أيضـاً عندمـا تحـول النقاش إلـى خبراتهم في جيش الـرب للمقاومة. لقد اعترفـوا ببشاعة انتزاعهم من عائلاتهـم وهم صغار، وأعربـوا عن ندمهم علـى الفظائع التي أجبـروا على اقترافها بحـق شعبهم. ولكن كثيريـن اعترفـوا بأنهم سيعـودون إلى جيش الرب إذا مـا سنحت لهـم الفرصة. فهنـاك، كانـوا، فـي الأقـل، يشعـرون بالانتماء إلـى عالم الثـورة، أمـا الآن فإنهم يـرون أنفسهم مثل قطعة مفقـودة في لعبة أحجية المجسمـات: إنهم لا ينتمون إلى أي مكان.

مارجريت؛ لعبة الأرقام

ظـل زوج مارجريـت يتمتع بالحظوة عند كبار الضبـاط الذين نفحوه زوجتين إضافيتين. وهذا أمر ذو دلالات كبيرة؛ لأن امتلاك أربع زوجات يقوي مكانة الضابط في جيش الرب.

وقـد سعدت مارجريت بترقية مايكل لأسبـاب مخصوصة بها. فمع وجود أربع محظيّات يختار من بينهن، سيقل استدعاؤه لها إلى الخيمة ليلاً.

ومع أنه كان يعامل زوجاته بقسوة، فإنه كان ينفس غضبه في واحدة منهن في كل مـرة. وهذا مـا يجعل لعبة الأرقام لمصلحتها؛ لأن سَوْرة غضبه سوف تتوزع على الجميع.

وعندما تفرغت زوجات مايكل السابقات لتربية الأطفال، ازدادت مسؤولياتها. كانـت البنـات كلهن يتحملـن مسؤوليـة رعايـة الأطفـال، وكان مجرد تغيّـر مكان المعسكـر كل يوميـن أو ثلاثـة مهمة صعبـة، وبوجـود الأطفال الدارجيـن، يصبح أكثر صعوبة.

استقرت فرقة المتمردين التي تتابعها مارجريت في جنوب السودان مدة عام تقريباً. ومضت الحياة عادية باستثناء بعض المناوشات المتقطعة مع متمردي جنوب

السـودان. صار العطش والجوع أشدّ أعدائهم، وكانـوا يقضون يومين متتاليين دون طعام أحياناً، وكانوا يسكتون أصوات مِعَدهم بمضغ أوراق الأشجار وأكل جذور بعض النباتات.

في بعض الأحيان، كان الجوع يدفع وحدة مارجريت العسكرية إلى القيام بأعمال يائسـة، كأن تلجـأ إلى نصب كمائن للسيارات. وقد غنمـوا في إحدى المرات حاوية فاصوليـاء عند مهاجمة شاحنة للجيش الشعبي لتحرير السودان على إحدى الطرق القريبة من الحدود. ووصلوا إلى الحد الذي لم يستطيعوا معه تحمل الجوع، فهاجموا قريـة سودانية شديدة التحصين، ولكنهم لم يغنموا شيئـاً، بل خلّفوا وراءهم كثيراً من الأطفال المُجندين قتلى.

ثم شنّ الجيش الأوغندي النظامي عملية (القبضة الحديدية)، فتسللت وحدة مارجريت عائدة إلى شمال أوغندا. ولم تستقر وحدتها في مكان واحد طول العامين اللاحقين.

كان الضبـاط يبقـون زوجاتهم وأطفالهم قريباً منهم خشيـة لجوء البنات إلى الهـرب. وكانوا محقين في خوفهم. فقد حاولت مارجريت الفرار في أثناء غارة على إحـدى القرى. كان مايكل قد كلّفهـا بنهب البيوت في أثناء الهجـوم. وعندما دخلت البيت الأول، وجدت امرأة في العشرينيات من عمرها تقبع مرتعدة في إحدى الزوايا. تصرفـت مارجريت بتلقائية، وطمأنت المرأة بأنها لـن تؤذيها إذا ما ساعدتها على الفرار. أخفت المرأة -شاكرة- مارجريت تحت بطانية، وانتظرت انتهاء الهجوم. مرت ربع ساعة لم تسمعا خلالها أيّ صوت في محيط البيت، فاعتقدتا أنهما في مأمن. لكن حلمهـا تبـدد عندما اقتحم مايكل واثنان من الأطفـال المُجندين هذا المنزل. كانوا يبحثـون عن شيء محدد، ولم يجدوا صعوبة في العثـور عليه تحت البطانية. سحبها مايكل بقوة، لدرجة شعرت فيها أن يدها سوف تقتلع من مكانها، ثم جذبها إلى خارج البيـت، في الوقت الذي تناهت إلى سمعها آهات المـرأة التي كان الولدان يقطّعانها

بسواطيرهم. وعند العودة إلــى المعسكر، ضرب مايكل مارجريت حتى أشرفت على الهلاك، وكانت هذه آخر مرة تفكر فيها بالهرب.

أطلال الحرب

ينبغي أن تكون عبودية الأطفال سبباً كافياً لتدخل المجتمع الدولي، ووضع حدّ لهــذه المآسي الإنسانية، سواء في شمال أوغندا أو في أي مكان آخر في العالم. وقد أثــرت الحرب في أوغندا في السكان جميعهم، ما يحتّم على المجتمع الدولي تحمّل التزاماته الأخلاقية دون تأخير.

وبناء على تقارير وإحصائيات الأمم المتحدة، شُرِّدَ مليون وسبع مئة ألف شخص نسمة؛ نحو 85% من مجموع سكان شمال أوغندا - من بيوتهم، ووضعهم في مخيمات المشرديــن داخلياً. وما يزال ثلث هؤلاء الأشخاص يقيمون في تلك المخيمات، أكثر من نصفهم أطفال[8].

وفي مخيم بابو، القريب من مدينة جولو، هناك أكثر من خمسة وأربعين ألف مشرّد، ما يجعله أكبر مخيم لإيواء المشردين في شرق إفريقية. ولا يوجد في المخيم سوى مصدر واحد لمياه الشرب. وهذا يفرض على قاطنيه الاصطفاف مئات الأمتار للحصول على حصتهم من الماء. أمّا الأكواخ فيه فمتلاصقة؛ ما يجعله قنبلة موقوتة قابلــة للانفجار في أي وقت. هذه الظــروف المأساوية، أدت إلــى ارتفاع معدلات انتشـــار الأوبئة والإيدز، وقــد أدى اشتعال حريق في أحد الأكواخ إلى تدمير أكثر مــن ثلاثــة آلاف كــوخ مطلــع عــام 2004[9].

ويبــذل الممثلــون المُنتخَبون في مخيم بابو قصـــارى جهدهم للتعامل مع هذا الوضع البائس. وهم يعترفون بصعوبة الحدّ من هذا البؤس في المخيم ما لم تتوصل الحكومــة الأوغندية وجيش الرب إلى تسوية نهائيــة. ويقول أحد كبار قادة المخيم: لقد نسينا أننا بشر منذ مدة طويلة.

تشارلز: شراء بندقية

بعدما صار تشارلز في رتبة عريف، أصبحت فرص الهروب أمامه أكثر احتمالاً. فكثيـراً ما كان ينفصل عن المقاتليـن الآخرين وهم في خضم المعركة. وقد تعلّموا كيـف يعيدون تجميع أنفسهم بعد انتهاء القتال. وكان من السهل الهروب في الاتجاه الآخر بدلاً من الانضمام إلى وحدته مرة أخرى.

وعلى الرغم من توافر هذه الفرص، فإن لدى تشارلز أسباباً كثيرة تجعله حذراً مـن محاولة الهـرب. كان الضباط يحذرون مراراً وتكراراً مِـنْ أنَّ الجيش النظامي يقطّـع الأطفـال المُجندين إلى قطع صغيرة، وما يدعم هـذا الادعاء اختفاء الأولاد أحياناً دون العثور على أي أثر لهم.

وحتى لو أنـه كان مستعداً لتحمّل العواقب، فإنه كان يواجه مشكلة أخرى: أين سيذهـب؟ فقبل اختطافه، لـم يعرف تشارلز حياة أبعد من حدود بيته. ولأنه شارك فـي قتل اثنين من رجال قريته، فإنه لا يستطيـع العودة إليها. سوف يكون غريباً في أي مكان يحل فيه. لذا، بقي حيث هو، وتصبّر على معاناته.

وفـي عصر أحـد الأيام، بعد بلوغـه الرابعة عشر من العمر، خـلا إلى نفسه، وتدافعـت الذكريـات أمام عينيه حاملـة وجوه جميع من قتلهـم، ولا سيّما المدنيين العزّل. حينها، أراد محو هذه الفظائع كلّها من ذاكرته، والعودة إلى ابن القرية البريء الذي فقده منذ مدة طويلة. وأخيراً، قرر الإياب إلى قريته. قال لنفسه: نعم سيقتلني جيراني القدامى، ولكني سأحظى بجنازة لائقة، وسيدفنونني باحترام. ولكن إن قُتلتُ في مواجهة مسلحة، فسوف أكون جيفة تلتهمها الضواري، ولن يحزن لموتي أحد.

أخفـى تشارلز كيس نومه في الغابة، حمل بندقية، وانطلق مسرعاً في الابتعاد عـن المعسكر. لم يتوقف عن السير حتى أرخـى الليل سدوله، فاستلقى على الأرض ليستريح تحت السماء الملبدة بالغيوم. أخذ المطر ينهمر كفوهات القِرَب، لكنه ظل

مستلقيــاً في مكانه، ولم يحاول البحث عن ملجأ آخر، بل ترك الماء الطاهر ينساب على جسده ويبارك رحلته.

مع بزوغ أشعة الفجر، أخذت الغيوم تتقشع، فنهض من مكانه وتابع سيره. لم يقابـل في طريقه أي إنسان. ولكن عنـد انتصاف النهار، سمع أصواتاً نسائية عالية آتيـة من أمامه. اختبأ وراء سياج من الشجيرات الكثيفة، ثم أخذ يزحف إلى الأمام ليتمكن من تقدير خطورة الموقف. وعند اقترابه من مصدر الصوت، رأى ثلاث نساء يهوين بفؤوسهن على قطعة أرض منبسطة لإعدادها للزراعة.

أدرك أنه سوف يخيفهن لو ظهر لهن فجأة. لذا، دفن بندقيته، وعاد إلى الممر، وأخـذ يمشي بتُؤدة مـاراً من أمامهن. حيّينه بحرارة، مـع أنهن لم يخفين دهشتهن مـن رؤيـة غريب يسيـر وحيداً في هذه المنطقـة النائية. عرف ذلـك من نظراتهن المتسائلـة، لكنه لم يـدع حيرتهن تدوم طويلاً، فسألهن بلطـف: هلّا ترشدنني إلى أحـد قادة قريتكن، لقد هربت من جيش الرب، وأريـد تسليم نفسي. عند سماعهن اسم جيش الرب، تملكهن الرعب، ثم قالت إحداهن بصوت مرتعش: لا أعرف كيف يمكننـا مساعدتك. أجابها تشارلز مطمئناً: لا أريد إيـذاء أي إنسان. أريد فقط أن أنتهي من هذا الوضع الذي أنا فيه. حسناً. سوف آخذك إلى زوجي، ربما يعرف كيف يساعـدك، ردّت إحداهن. جرى تشارلز عائداً إلى المـكان الذي خبأ فيه البندقية، وعـاد وهي تتدلى من كتفه إلى حيث كانت المرأة في انتظاره. ومع أن رؤية البندقية زادت من توترها، فإنها سارت أمامه.

وجـدا زوجها يحفر بئـراً وراء امتداد دائرة الأكـواخ. عندما رأى الزوج طفلاً مسلحـاً يسير وراء زوجته، أحس بالخوف، وقبض على المجرفة بقوة. هدّأت المرأة من روع زوجها، وشرحت له سبب وجود تشارلز. تفحّص الرجل تشارلز بعينيه، وهو يستعرض أفضل الطرق لمساعدته، ثم قال: لا بأس، عليك التخلص من هذه البندقية

أولا قبـل التّحرّك من هنا؛ فأي شخص يراك حاملاً تلك البندقية سوف يهرب منّا، أما الذين لن يهربوا ... فأنت تعرف ماذا سيفعلون.

على الرغم من تردده، وافق تشارلز على تسليم بندقيته. تناولها الرجل، ومن ثَمَّ رماها فوراً خلف كومة من التراب الذي استخرجه من حفرة البئر، ثم قال: أعتقد أن من الأفضل اقتيادك إلى رئيس مجلس القرية. إنه على بعد مسير عشر دقائق من هنا.

انطلق الرجل أمامه عبر ممر ضيق بعيداً عن الأكواخ. كان يحثّ الخطى سريعاً لدرجة جعلت تشارلز يركض للحّاق به. لم يبتعد كثيراً. فبعد أن قطعا مسافة قصيرة، قابلا جنديين من الجيش النظامي آتيان في دورية من الاتجاه المعاكس. طلب الرجل إلى تشارلز تسليم نفسه لهما. اقتاده الجنديان إلى الحامية العسكرية ولم يتحدثا إليه كثيـراً. أعدّ تشارلز نفسه للتعذيب الـذي ينتظره. ولكنه دهش كثيراً عندما استقبله ضابـط كبير بحفاوة، وصافحه بحـرارة وهو يقول له: أهنئك على شجاعتك وتركك لجيش الرب.

أمضـى تشارلز يومين في الحامية العسكرية، كان في أثنائها ينام على سرير نقال، ويلتهم كل ما يقدّم له من طعام. وفي اليوم اللاحق، نقلوه في شاحنة عسكرية إلـى مقر القيـادة الإقليمية في جولو. في هـذا المقرّ، قضى يوميـن آخرين، أجاب فيهمـا عن قائمة طويلة مـن الأسئلة التي تناولت أنشطة جيش الرب للمقاومة. وبعد الانتهاء من الأسئلة، قال له ضباط الاستخبارات العسكرية: ستُرسل غداً إلى مركز منظمة وورلد فيجين.

كان اسم المنظمة مألوفاً لديه. فلطالما تحدث ضباط جيش الرب عن التعاويذ الشيطانية التي تسحر بها المنظمة المتمردين الأسرى.

وعلـى الرغـم من تخوفه، فإنّ يوم نقل تشارلز إلـى مركز المنظمة كان أسعد يـوم في حياتـه؛ فحال وُلُوجِه بوابة المركز، استقبلتـه مجموعة من الأولاد والبنات،

وأخذوا يحتضنونه، ويعتلون ظهره. وعرف من بينهم كثيراً من المُجندين السابقين الذين كان يعتقد أنهم قضوا نحبهم في المعارك.

لـم يستطع تشارلز التأقلم مع الوضع الجديد بسهولة، وظلت كوابيس عمليات القتـل التي اقترفها تـراوده طوال الأشهر الأولى القليلة التـي تلت وصوله إلى مركز التأهيل.

ولساعـات طويلة، ظلّ يروي إلى فلورنسـ مكنونات صدره في جلسات الإرشاد النفسـي التـي عقدتها له. قال لها في إحدى الجلسات: كنـت أرى الناس يموتون كل يوم، والموت يحكم قبضته حولي. أمرني المسؤول عني أن أدوس على مشاعري، وقال لي بأن الأمرّ سيان: قُتِلتُ أم قَتَلتُ.: فتلك إرادة الله دائماً. كلّا - ردت عليه فلورنس - إرادة الله تقضي أن عليك معرفة الحب؛ فالحب وحده هو الذي يهبك الحرية.

إيدان لاجوم لومورو؛ الغفران الصعب

ظلـت إيدان تعمـل جاهدة من أجل وقـف دورة العنف في أوغنـدا، جالت في القـرى التي خُطِف الأطفال منها، أو التي عانت الفظائـع. حاولت أولاً أن توائم بين الأحداث الجارية والقانون القبلي؛ فالثقافة القبلية ترى أنّ أيّ عملية قتل هـي اعتداء على العائلة بعينها أو القبيلة كلها. وأن على القاتل دفع تعويض (ديّة) المقتول. وإذا لم يُدفع هذا التعويض، فإن الثأر من قبيلة القاتل هو البديل.

كانت إيـدان تحاور زعماء القبائل، وتقول لهم: إن مـن المستحيل حلّ المشكلات مـن خلال عملية التعويض أو الثأر. فالقتل لم يتوقـف في أوغندا منذ عقود، ويمكن لكل قبيلـة أن تجـد مبرراً لطلب الثـأر. ونصحتهم بدلاً من ذلك باللجـوء إلى الصلح القبلي المعـروف باسـم ماتا بوت Mataput؛ والـذي يعني حرفيّاً (شرب عصيـر جذر مُرّ من كأس مشتركة). وبناءً على هذا التقليد، يلجأ زعماء القبائل إلى جمع الأطراف المتحاربة معاً لوضع تظلماتهم جانباً، وتناول وجبة طعام جماعية، والشرب من الكأس المُرّة معاً.

وقد حصلت إيدان على دعم من زعماء قبليين عدة يحكّمون لغة العقل، ومنهم كولينـز أوبوكا، أحد زعماء قبيلـة الأشولي، الذي قال: فـي ثقافتنا، لا نحب معاقبة الآخرين: فهذه طريقة عبثية لا طائل تحتها.

وللتدليـل على تعقيد عملية المصالحة، تشيـر ايدان إلى تجربة ماري: المرأة الأوغندية التي جدع جيش الرب أنفها، وقطع شفتيها وأذنيها. وكان المتمردون يلجؤون إلى هذا الأسلوب المروع لإرهاب المدنيين، وتحذير الذين قد يزوّدون الجيش النظامي بمعلومات عن تحركات المتمردين.

كانت ماري تحرث أرض بستان مشترك مع خمس نساء أخريات، عندما هاجمت قريتهنّ مجموعة صغيرة من المتمردين. كانت ماري حاملاً في شهرها الثامن.

جاء إلى البستان ضابط صغير ومعه ثلاثة أطفال مجندين. أمر النساء بالجلوس علـى الأرض، ثم رفع جهازاً لا سلكيّـاً نحو فمه، وأبلغ رئيسه بمـا وجده في القرية. أبلغـه الرئيس أن يكلف أحـد الأولاد بحراسة النساء، وأن يأخذ بقية الجنود للهجوم على القرية.

بعد انتهاء عملية النهب، عاد الضابط مع مجموعته إلى البستان، وأعفى الولد المكلـف بالحراسة من مهمته، وأخذ يستعد لمغادرة القرية. عند وصول المتمردين طرف القرية، رأت ماري الضابط وهو يرفع جهاز اللاسلكي إلى أذنه. وفجأة، استدار الأولاد المُجنـدون عائدين إلـى البستان، والشروع في تقطيـع النساء بسواطيرهم. قتل الأولاد النساء الخمس، لكنهم لم يقتربوا من ماري التي كانت تتهاوى رعباً، لأن الضابط أمرهم بالإبقاء على حياة المرأة الحامل.

قال لهـم الضابط: سوف نستعملها علامة. ثم إن قتلها قد يسبب لنا النحس. مسكها اثنان من الأطفال المجندين، في حين تولى ثالث مهمة تشويه وجهها. وعندما جـاءت ماري إلى مركز منظمة وورلد فيجين بعـد أشهر عدة لتلقي العلاج، أصابها

خـوف شديد عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه مع الضابط الذي أمر بتشويهها. كان ذلك الضابط قد أصيب في معركة مع الجيش النظامي الذي ألقى القبض عليه. كان هو الآخر يتلقى مساعدة طبية في مركز المنظمة. يومها، طلبت ماري القصاص منه، واحتجت قائلة: يجب عدم تقديم المساعدة إلى هذا المجرم.

فـي دفاعـه عن نفسه، قال الضابـط السابق: إنه كان ينفّـذ أوامر قائده لقتل النساء، ولكنني أظهرت الرحمة بعدم قتل المرأة الحامل.

وقد أكد شهادة هذا الضابط زوج إحدى النساء اللاتي قُتلن في البستان. كان هـذا الزوج قد أُسر في الغارة، وسمع القائد وهو يأمر ذلك الضابط بإعدام النساء جميعهن.

ومهما يكن من أمر، لا يمكن للإنسان أن يتصور صعوبة عفو ماري عن الضابط السابـق. ولكنها سامحته على أي حال، والتقطـت صورة بهذه المناسبة، عُلقت على حائط مكتب المنظمة، تظهر فيها إيدان وماري والضابط وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً.

ومع مرور أعوام على ذلك الحادث، فإنّ ماري تعترف أنها لا تزال تكن الضغينة لذلك الضابط. إن شرب الكأس المرّ لن يكون حلو المذاق أبداً. لكن ماري أسقطت حقهـا في المطالبة بالثأر، ما قد يؤشر على تحول كبير في ثقافة المصالحة القبلية التقليدية.

وهناك اقتناع عام، هو أنّ كل طفل اختطفه جيش الرب للمقاومة قد أُجبر على اقتراف بعض الفظائع. فعلى سبيل المثال، كان الطفل المجند الذي يبلغ من العمر اثني عشر ربيعاً، والذي شوّه وجه ماري، موجوداً في المركز عندما جاءت إليه. لكنها لم تتعـرف إليه، إضافة إلى أنـه لم يطلع أحداً على دوره في الحادث إلا بعد جمع شمله بعائلته، حيث أسرّ إلى إيدان بفعلته.

كانت إيدان تطلب من كل طفل مجند يأتي إلى معسكرات منظمة وورلد فيجين: الضحيــة والجلاد، على حد ســواء، أن يتسامى، وأن يغفر؛ لأنه لا يوجد أمام الشعب الأوغنــدي أي بديل آخر للدخول إلى المستقبــل. فبالوحدة فقط، يمكننا إعادة بناء بلدنا وتحقيق السلام والتنمية. وإذا لم نغفر، فإن مجتمعاتنا ستظل عرضة للانفجار.

مارجريت؛ عملية إنقاذ عسكرية

وأخيــراً، حملت مارجريت بعد خمس سنوات من الاغتصاب. كان عمرها ستة عشــر عاماً، كانت وحدتها قد عادت إلى جنوب السودان مؤخراً عندما تأكد حَمْلها. وشعرت بالرضا؛ لأنهم سوف يقيمون في معسكر واحد لبعض الوقت.

لكــن هذه السعادة لم تدم طويلاً، ففي صبيحة أحد الأيام، عندما كانت حبلى فــي شهرها السابــع، عاد كشافة المتمرديــن مسرعين إلى المعسكــر، وقالوا: إنهم شاهدوا جنود الجيش النظامي يتقدمون بسرعة، وقد يصلون إلى المعسكر في غضون نصف ساعة.

أصدر قائد المعسكر أمراً للاستعداد لانسحاب سريع. ولم يكد ينتهي من إصدار الأمــر، حتى سمعت مارجريت انفجار أول قذيفة هاون، ثم تبعه انفجار آخر لا يبعد عشريــن متراً عن المكان الذي كانت تقــف فيه. ظهر مايكل فجأة، وصاح في نسائه أن يحملن أغراضهن ويهربن، ثم استدار بسرعة وتركهن لحالهن.

كان ضبــاط جيش الرب للمقاومــة يتحدثون دائماً عن الأشيــاء الرهيبة التي سيفعلهــا جنــود الجيشــ النظامــي في حال إلقــاء القبضــ على المتمرديــن. ومما قالــوه: إن الجنــود المصابيــن بمرض الإيدز ســوف يغتصبون البنــات، إضافة إلى أنهــم يشقون بطــون البنات الحوامــل، ويخرجــون أجِنَّتَهُنّ. كانــت مارجريت تفكر فــي هذا كلّه، وحاولت أن تركضــ بأقصى ما تستطيع، لكنها لــم تبتعد كثيراً بسبب حملها المتقدم.

سقطت قذيفة هاون وانفجرت أمامها مباشرة، وتوقفت بعد أن أُصيبت بشظية في ركبتها، فسقطت فوراً على الأرض. حاولت النهوض، لكنها لم تستطع. فظلت ساكنة في مكانها على أمل ألّا ينتبه لها الجنود المهاجمون. ولكن لم تمر سوى خمس دقائق حتى رآها أحد الجنود مصابة، فاعتقلها، ثم حملها جنديان على نقالة إلى موقع عسكري محصّن يبعد مسيرة نحو عشرين دقيقة. وعند وصولها إلى الموقع، وجدت أمامها فتاة صغيرة من جيش الرب تصغرها بسنتين، تحتضن طفلاً، جالسةً على الأرض.

كانت في انتظار الأسيرتين مفاجأة سارة. فبعد أن هدأ القتال، أحضر الجنود إليهم صحناً مليئاً بطعام ساخن، وكمية كبيرة من الماء؛ وهي رفاهية لم يعرفنها منذ سنوات. بعد ذلك، جاء أحد المسعفين، فأخرج الشظية من ركبة مارجريت، وسكب محلولاً أحمر على الجرح.

أخذ الجنود مارجريت إلى حيث كان يجلس ثلاثة رجال بثياب مرقطة. قال لها أحدهم: أنت أكبر من البنت الأخرى، وعليك إخبارنا بكل ما تعرفين.

وهذا ما فعلته مارجريت تماماً؛ كشفت له عن كلّ ما تعرفه عن جيش الرب للمقاومة، وأماكن تخزين السلاح، وعدد الضباط في المعسكر الذي تعرض للهجوم. وأخبرتهم أيضاً بالمعلومات القليلة التي تعرفها عن مكان وجود جوزيف كوني، فقد سبق لها أن سمعت ضباط جيش الرب يقولون: إنه نقل قيادته إلى الكونغو.

أبدى الضباط الثلاثة ارتياحاً للمعلومات التي قدمتها، وطمأنوها على حياتها، ثم نقلوها في اليوم اللاحق إلى حامية الجيش في مدينة جولو. وبعد جلسة تحقيق ثانية للتأكد من عدم نسيانها أي معلومات استخباراتية، سلّموها إلى مركز منظمة وورلد فيجين.

عند البوابة الرئيسة، استقبلتها فلورنس واحتضنتها طويلاً، ثم قالت: حرة أنت الآن. وسوف تستعيدين حياتك الطبيعية قريباً.

بعد مضي شهر على وجودها في المركز، أنجبت مارجريت طفلاً أسمته دانيال؛ تيمناً بالنبي دانيال أحد أنبياء بني إسرائيل، الذي أنقذ- بقدرة الله تعالى- من أفواه الأسود في أيام نبوخذ نصر.

هؤلاء الأطفال في حاجة إلى مستقبل واعد

يتطلب إنهاء عبودية الأطفال المُجنّدين في العالم من مناهضي العبودية اعتماد مبادرات إستراتيجية من أجل تقديم الدّعْمَين: المادي والمعنوي للعبيد المحررين. إضافة إلى أننا في حاجة أيضاً إلى أفراد ومنظمات تشدِّد على التأثير في السياسات العامة.

وفي هذا السياق، قامت منظمة وورلد فيجين في إبريل 2006 بدور رياديّ في إقناع أعضاء في مجلس النواب الأمريكي لعقد جلسة استماع عن الأطفال المُجنّدين في أوغندا.

وقد أدلت المُختطفة السابقة جريس جرال ألكالو بشهادتها في تلك الجلسة. كانت جريس من بين البنات اللواتي اختطفن من كلية سانت ماري في بلدة أبوكي. ومما جاء في شهادتها: لسوء الحظ أن قصتي... أصبحت أمراً شائعاً؛ لأن الخوف هو الذي يطبع حياة الأطفال الذين يعيشون في المناطق المتأثرة بالحروب [11].

وفي تعليقها على الشهادة، سألتها النائبة دايان واتسون: هل تعتقدين أن الأطفال سوف يعودون طبيعيين مرة أخرى؟ لقد تعلمت كيفية استخدام البندقية للقتل. وأنا أتساءل كيف يمكننا معالجة ذلك؟

أبلغت جريس أولئك النواب ما يطمح إليه أطفال شمال أوغندا على وجه التحديد؛ الحب، والأمن، والمستقبل الواعد. إن تقديم الرعاية النفسية للطفل مدة ستة أشهر غير كاف. نريدكم أن تحشدوا المجتمع الدولي؛ من أجل حماية الأطفال وإنهاء النزاع.

وفي عام 2009، أصدر الكونجرس الأمريكي قانون نزع سلاح جيش الرب، وتطوير شمال أوغندا. ودعا القانون، الذي حظي بدعم عدد كبير من ممثلي الشعب الأمريكي، إلى اعتماد إستراتيجية إقليمية لدعم الجهود متعددة الأطراف الرامية إلى حماية المدنيين، ووقف تهديد جيش الرب لهم[12].

بناء مدرسة للجنود السابقين

مع أن مغادرة عشرات الآلاف لمعسكرات اللجوء الداخلي تعدّ مدعاة للاحتفال، فإنّ مركز مراقبة اللجوء الداخلي أشار في تقريره لعام 2007 إلى أن كثيراً من أولياء الأمور يتركون أبناءهم في المعسكرات؛ لأن المدارس معطلة في مناطق كثيرة في شمال أوغندا. ولذلك، فقد أطلقت حملة لبناء مدرسة ثانوية ذات مستوى رفيع في مدينة جولو، تضم ثماني غرف صفية للأطفال الذين يعانون صدمة الحرب.

كما يجري ضمن هذه الحملة تنظيم مهرجانات، واحتفالات فنية وموسيقية؛ لتشجيع المصالحة بين الأطفال الجنود العائدين من جهة ومجتمعاتهم من جهة أخرى. وقد سبق أن طبقت مبادرة المصالحة هذه في رواندا بين القبائل التي مارست عمليات قتل بشعة ضد بعضها.

رابعاً

تقويض اتحاد تجار الجنس

أوروبا

سان فوكا San Foca؛ قرية صغيرة لصيد الأسماك، تقع على الحافة الجنوبية لخارطة إيطاليا التي تشبه حذاء طويلاً. هذه القرية تغويك بسحرها؛ حيث تتلاطم المياه اللازوردية لبحر الأدرياتيك على الصخور الرمادية التي تنتشر على امتداد شواطئها، فتغسلها ثم تتركها للحظات قبل أن تعود لمداعبتها مرة أخرى. وقبل مغيب الشمس، تصطف القوارب متكاسلة على مياه ميناء سان فوكا، في حين ينشغل الصيادون في إصلاح شباكهم. وبعيداً، حيث لا تراه العين، يوجد الساحل الألباني الساحر، وميناء مدينة فلوري.

ومع أن كل هذا قد يبدو مشهداً طبيعياً أخّاذاً، لكنه في الوقت ذاته يضم أشهر ممرات تجارة الجنس المعاصرة. ففي الساعات المتأخرة من الليل، يشغّل رجالات المافيا الألبانية محركات قواربهم لنقل المهاجرين عبر مسافة أربعة وأبعين ميلاً بحرياً، تمتد بين فالوري وسان فوكا.

يدفع بعض الركاب لهؤلاء المهربين مبالغ كبيرة لنقلهم إلى حياة الأحلام في الغرب، لكنّ كثيراً من هؤلاء المُهرِّبين لا يختارون السفر عبر هذا الممر، حيث تتجنبه عصابات الإجرام، وتتبع طرقاً التفافية معقدة لنقل النساء عبر الحدود

الدولية. كانت هذه الخطوط الملاحية تُستخدم أصلاً لتهريب المخدرات والأسلحة، أما اليوم، فتُستخدم لنقل البضائع البشرية أيضاً.

وقد برز ممر البلقان بصفته واحداً من أشهر الممرات سيئة السمعة المرتبطة بالتهريب، إذ يجري عبر هذا الممر تهريب آلاف الفتيات من دول أوروبا الشرقية كل عام، وتوزيعهن على أسواق الدعارة في أنحاء العالم. وغالباً ما تنتمي الضحية إلى دولة كانت عضواً سابقاً في المعسكر السوفيتي. ويجري تهريب هذه الضحية من بلدها الأصلي عبر رومانيا، وصربيا، والجبل الأسود، أو كرواتيا، ومن هناك إلى ألبانيا، ومن ثَمَّ إلى إيطاليا. أما الوجهة النهائية المحتملة للضحية فهي دول الاتحاد الأوروبي في الأغلب، مع أن عدداً كبيراً من الفتيات يجري تهريبهن إلى الولايات المتحدة، والشرق الأوسط، أو منطقة آسيا - الباسيفيكي.

ويمكننا أن نرى في شوارع بانكوك المدى الذي وصلت إليه ممرات التهريب هذه. فمع حلول الليل. تبدأ موجات من الفتيات الشقراوات، بملابسهن القصيرة، وعلى وجوههنَّ زينة مفرطة، في الطواف عبر الحي الإسلامي. ويبدو المشهد غريباً وشاذّاً: حيث تشاهد أولئك النساء من أوروبا الشرقية يتجمعن على الأرصفة وسط بحر من النساء المسلمات المرتديات البراقع السود، والرجال المسلمين الذين يرتدون قمصاناً، وسراويل، وقبعات بيضاء، حيث يشير اللون الأبيض إلى طهارة النية والعمل. ولذلك، فإنّ حقيقة أن الاستغلال الجنسي يستطيع أن يزدهر بلا حياء في تحدٍّ ظاهر لقيم الناس الدينية المتجذّرة، يشير إلى التحديات الكبيرة التي تنتظر مناهضي العبودية في حملتهم لإنهاء تجارة الجنس هذه.

بادري تشيزاري لوديزيرتو: مفترق طرق الفقر والغنى

برز مناهض العبودية غير المتوقع تشيزاري لوديزيرتو – Padre cesare Lodeserto فجأة عقبة كأداء أمام عصابات الإجرام التي تدير ممر البلقان. سبق لهذا

الرجل، الذي ولد وترعرع في جنوب إيطاليا، أن عمل مع الفقراء في البرازيل ورواندا، وأنشأ عام 1995 ملجأ لإيواء المهاجرين في قرية سان فوكا.

أطلق الرجل على المركز اسم ريجينا باسز (ملكة السلام)، وهو رمز مناقض للعنف والجشع اللذين ينتزعان الفتيات من بيوتهن. شُيّد الملجأ أساساً؛ ليستوعب مئتين وخمسين شخصاً على أبعد تقدير، ولكن عدد المهاجرين أصبح فوق طاقة الملجأ الاستيعابية، حيث يتكوّم في غرفه وممراته أكثر من ست مئة شخص كل ليلة.

في المراحل الأولى من موجات الهجرة، كان الذين يصلون إلى الملجأ يتألفون من: عائلات، أمهات وحيدات، مراهقين، وحتى أطفال صغار مسافرين وحدهم. ومع حلول عام 1999، حدث تغيّر في التركيبة الديمغرافية (السكانية) لقاطني الملجأ، بعد أن بدأت فتيات صغيرات من أوروبا الشرقية يلجأن إليه طلباً للعون والحماية. ولاحظ بادري زيادة كبيرة في عدد الفتيات السلافيات اللواتي يبعن أجسادهن في شوارع سان فوكا، وبلدتي ليسي وبرنديزي الساحليتين المجاورتين. وقد أخبرته الفتيات اللواتي التقاهن عن عمليات خطف واغتصاب، واستغلال تجاري.

خصص بادري جناحاً في الملجأ لإيواء النساء المُهرّبات. واستطاع مع مرور الوقت أن يتتبع مسار المهربين إلى أوروبا الشرقية. وهو يقول: إن الجغرافيا منحته موقعاً مطلّاً فريداً لفهم آليات تجارة الرقيق المعاصرة؛ فسان فوكا تعدّ ملتقى اصطدام ثروة العالم وفقره.

ناديا: العَرْض

عندما ودعت ناديا ابنها ستيفان، اكتشفت أن الأمر أصعب مما كانت تتصوره. كان عمر ابنها ستّ سنوات، ولذلك لم يستطع أن يفهم السبب الذي يجعل أمه تتركه، فسألها عندما دخلت الغرفة حاملة حقيبتها: أمّاه، أأنت غاضبة مني؟ عندئذٍ، أحست كلماته سكيناً ينغرس في قلبها. كلا، أنا لا أتخلى عنك. ماما تحبّك. قالت له ذلك

وهي تذرف دموعاً سخية. سوف أجمع بعض المال، وسوف أعود قريباً. قالت ذلك، ثم اندفعت خارج الباب قبل أن تنهار.

فـي بداية الأمر، لم تفكر بعرض كاترينا للعمل نادلة مطعم في إيطاليا. كانت تعرف فتيات كثيرات غادرن مدينة كيشيناو للعمل في الغرب، ولكنها لم تعرف كيف يمكنها تدبر أمر ستيفان، وهي وحيدة في دولة أجنبية. فهنا في مولدوفا، على الأقل، يمكن لِأُسرتها أن تعيله، وتعتني به ريثما تجد عملاً. لكنها غيّرت رأيها في اليوم الذي لم تستطع فيه تسجيل ستيفان في المدرسة. حينها، لم تتمكن من دفع رسوم التسجيل أو ثمـن الزي المدرسي. أما عائلتها، فلم تتمكن من مساعدتها: لأنها صرفت كلّ ما لديها على شراء الطعام. بعد تلك التجربة المحزنة في مكتب المدرسة، ذهبت ناديا تبحث عن كاترينا في المقهى الذي تعمل فيه. كانت تعرف كاترينا منذ أيام المدرسة الثانوية، ومع أنها لم تكن صديقتها الحميمة، فإنهما كانتا تلتقيان كثيراً في المناسبات الاجتماعية. عندما التقتا آخر مرة، ذكرت كاترينا أن لها معارف في إيطاليا يوظفون الفتيات المراهقات، وطلبت إليها إخبارها فيما إن كانت مهتمة بهذا الأمر.

وجـدت ناديا كاترينا في إحدى زوايا المقهى. وبعـد محادثة قصيرة، انتقلت ناديـا إلى الموضوع مباشرة، وقالـت: هل تذكرين آخر مرة أخبرتني فيها عن وجود وظائف في إيطاليا؟ إنني على استعداد للعمل إذا كانوا راغبين في ذلك. بكل تأكيد، ردّت كاترينا وهي تعبِّر عن سرورها لمساعدتها صديقتها. ثم أضافت: لقد تحدثت مـع معارفي توّاً، وقد أعلنوا عن وظائـف جديدة، ولكنهم يريدون ملء هذه الشواغر بسرعة. هل تستطيعين أن تسافري بعد أسبوع من الغد؟

وجدت ناديا نفسها أمام لحظة المواجهة مع الذات: هل تستطيع العيش بعيدة عـن ستيفان؟ طرحت هذا السؤال بعيـداً، ثم قالت لنفسها: ربما جمعتُ مبلغا كافياً من المال في مدة سنة، ثم أعود إليه. لم تجعل كاترينا تنتظر طويلاً، فقالت: حسناً،

فليكن ذلك. رائع، قالت كاترينا بحماس، سوف نقضي وقتاً ممتعاً في إيطاليا. وبعد ثمانية أيام، طلبت إلى ناديا الحضور إلى شقتها مع حقيبتها استعداداً للسفر.

تشيزاري لوديزيرتو: نداءات الاستغاثة

بُنـي ملجأ ملكـة السلام في ساحة معسكر صيفي سابـق. كان يبدو لأول وهلة سجناً شديد الحراسة؛ حيث كان محاطاً بسلاسل، وجدران، وأسلاك شائكة. وكانت القضبـان الحديدية تغطي النوافذ القليلة التي تضفي عليه مسحة من الجمال. كان المدخـل هو الوحيد الذي يوحي بالترحيـب. وفي الحقيقة أن هذه الترتيبات الأمنية أثبتت نجاحها، وبخاصة عندما يأتي المهربون مطالبين باسترداد (ممتلكاتهم).

في داخل الملجأ، يمكن أن تستمع من كل فتاة إلى حكاية عن تهريبها، وسوف تكتشـف أن الفتاة المحظوظة هي التي تستطيع الهـرب في الرحلة عبر الإدرياتيكي إلـى إيطاليا. تقوم سفن خفر السواحل الإيطالية بمراقبة عمليات التهريب، وأحياناً مـا تعترض قارباً مليئاً بالمهاجرين غير الشرعييـن. ولذلك، فإن المهربين الألبان يسلكون أطول طريق بحري لتجنب إلقاء القبض عليهم. وعندما تلاحقهم سفن خفر السواحـل، فإنهم يلقون الأطفـال الصغار في البحر لجعل السفـن توقف المطاردة لإنقاذ الأطفال من الغرق.

لا يكتفي بادري تشيزاري بتوفير الملجأ، بل يشجع الفتيات المهربات على رفع دعاوى قضائية ضد مختطفيهن. واستناداً إلى القانون الإيطالي، يمكن للأفراد الذين أجبروا على الهجرة، والذين يوافقون على الشهادة ضد من يبتزّوهم الحصول على وضـع قانوني، والإقامة في إيطاليا والعمل فيها. ولا يعامل القانون الأفراد المُهرَّبين بأنهم مجرمون، بل ضحايا للإجرام.

ومـع ذلك، فـإن معظم الفتيات يرتعـدن خوفاً من الذهاب إلـى الشرطة؛ لأن عصابات المافيا تهدد بقتلهن، أو إيذاء عائلاتهن إذا ما شهدن ضد أفراد العصابة.

يضاف إلى ذلك أن الشرطة في دول أوروبا الشرقية يكون لها دور في عملية الاختطاف. ولهذا، فإن الفتاة المُهرّبة لا تثق بالشرطة بسهولة.

لا يقلل بادري تشيزاري من الأخطار المرتبطة بالدعاوى القانونية، ولكنه يؤكد أن المُهرِّبين سوف يدمرون حياة بنات بريئات أخريات إذا لم يوقفوا عند حدهم.

ويمكن بعد قراءة الرسائل التي يتلقاها على هاتفه الخلوي معرفة السبب الذي يجعله يصر على ملاحقة المهرِّبين قانونياً. فقد كتبت إليه فتاة من رومانيا تقول: أرجوك مساعدتي! إنهم يعاملونني أسوأ من معاملة الكلاب. أنت الوحيد الذي تستطيع إنقاذي!.

وجاء في رسالة من فتاة تعيش في مولدوفا: إنني أموت هنا! ساعدني! أنت أملي الوحيد!

في حين أرسلت فتاة بلغارية مستعبدة في نادي تدليك في مدينة ميلانو رسالة تقول فيها: أنا واحدة من أربع فتيات مُحتجزات في هذا الجحيم. نخطط للهروب قريبا، آمل أن تقبلنا عندك.

بعد قراءة هذه الرسائل بصوت عالٍ، هزّ بادري رأسه بحزن، وقال: آمل أن يأتي جيل جديد من مناهضي العبودية، يكونون أكثر جرأة وشجاعة. إن المُهرِّبين يفلتون من العقاب؛ لأن الناس الطيبين لا يستجيبون لنداءات الاستغاثة من هؤلاء الفتيات الصغيرات.

الكمين المُحْكَم

لم يؤدِّ انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991 إلى تحقيق الآمال العظيمة التي كان يحلم بها كثيرون ممن يعيشون في الجمهوريات المستقلة. وسُرعان ما أنطفأ سحر الانبهار بالاستقلال والحرية الفردية، وحلّ مكانه الاكتئاب، عندما أُخذت الصعوبات

الاقتصاديــة تطرق الأبواب. وقد وعد دعاة تحرير الأسواق المالية بتوسيع فضاءات الاستثمــارات الجديدة، ولكن تبين أن الإصلاحات فتحــت الأبواب على مصراعيها لتهريب الأموال إلى الخارج.

صحيح أن الحياة في ظل النظام الشيوعي لم تكن مفروشة بالورود. لكنّ الناس كانوا يجدون وظائف، مهما كانت وضيعة، وكان القليل من الناس يعانون. وفي الوقت الذي جمعت فيه نخبة قليلة ثروات طائلة في تسعينيات القرن الماضي، عانت الشعوب هناك معدلات بطالــة عالية، واختفت الخدمات الاجتماعية. وفي ظل هذه الظروف الصعبــة، جاهدت العائــلات من أجل أن تظل متماسكــة، دون جدوى. في حين لجأ الرجــال الذين لم يقووا على مواجهة صِعاب الحياة إلــى تعاطي الكحول، فأصبحوا مدمنيــن ولم يحّلو مشكلاتهم بعد. وازداد أيضاً عدد دور الأيتام في المنطقة لإيواء الأطفال الذين تخلى عنهم آباؤهم.

وقــد أدى تفكك الحكم السوفيتي الحديــدي إلى إيجاد فراغ أمني، أو فراغ في سلطة الجمهوريات السوفيتية السابقة، فانتشرت الجريمة المنتظمة انتشار النار في الهشيــم، وانتهزت العصابات أي فرصــة سانحة أمامهم. وقد ثبت في حالات كثيرة أن المجرمين كانوا مسؤولين شيوعيين سابقين، استغلوا ارتباطاتهم القوية لتحقيق ثراء شخصي. وظهر جيل جديد من الرأسماليين الفاسدين الذين ليس لديهم وازع في تعاملاتهم التجارية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي مباشرة، استطاعت عصابات المافيا جمع أموال طائلة من تجــارة السلاح والمخدرات. وأدركت عصابــات الإجرام أن هناك منجم ذهب آخر في الجمهوريات السابقة يجب استغلاله: إنه الشابات المتعلمات صحيحات الأجسام اللواتي أصبحن مُعدمات.

بعــد سقــوط الستار الحديدي، بــدأت النساء يعانين البطالــة. ففي أوكرانيا، مثلاً، شكلت الإناث نسبة 80% من السكان الذين فقدوا وظائفهم في التسعينيات[1]،

وتراوحت نسبة البطالة بينهن من 80% إلى 70% في معظم الجمهوريات السوفيتية السابقـة. وعلى الرغم من صعوبة العثور على عمل، ظلت النساء يتحملن المسؤولية عن بقاء عائلاتهن.

وعليه، توافرت لعصابات الاتّجار بالبشر الموارد المثالية للاتجار بها في سوق الجنس العالمي، والمكيدة المحكمة لاصطياد هؤلاء النسوة.

فـي الحقبتين الأخيرتيـن: السابقة واللاحقة لانهيار الاتحـاد السوفيتي، نشأ جيل مـن الشباب في دول أوروبـا الشرقية معجب بالغرب؛ يشاهـد أفلامه، ويسمع موسيقـاه، ويعشق أزياءه. لذا، بات الحصول على وظيفة وشقة في الغرب حلماً على وشك التّحقّق لكثير من الشباب.

لم تكـن الصِعاب لتثني هـؤلاء الشباب عن ملاحقة تحقيق هـذا الحلم. فمع نهايـة تسعينيات القرن الماضي، أخذت حكايـات مرعبة تتردد عمّا يحدث للفتيات اللواتـي هاجرن صوب الغرب. وعلى الرغم من التحذيرات، فإن أحلام الهجرة إلى الغرب لم تتوقف. وقد كشفت دراسة أجريت في أوكرانيا في نهاية تسعينيات القرن العشريـن أن ثلاثاً من بين أربع فتيـات تتراوح أعمارهن بين عشر وتسع عشرة سنة أبدين رغبة قوية في الهجرة إلى الخارج(2). وهنـاك بعض الفتيات اللواتي يسحرهن بريـق الأزياء الحديثة، في حين تتمنى أخريات أن يكنّ المنقذات لعائلاتهن. ومهما كان هـذا الإغـراء، فإن عصابات الاتّجـار بالبشر تستخدمه لخـداع هؤلاء الفتيات وإيقاعهن في المصِيدة.

ناديا: الخديعة

عندمـا وصلت إلى شقـة كاترينا، دهشـت ناديا لوجود ست بنـات غيرها مع حقائبهنّ. كانت تعتقد أنها ستسافر مع كاترينا وحدها.

لم تكلف كاترينا نفسها عناء شرح الظروف. وبعد ترحيب سريع، سألتْ ناديا: لقد أحضرتِ جواز سفرك، أليس كذلك؟

هـزت ناديـا رأسها وأخرجت جـواز السفر من حقيبتها، فقالـت لها كاترينا: عظيم! أعطني إياه، وسوف أعطيه للدليل؛ كي لا يضيع.

بعدمـا سلمتهـا الجـواز، أسرعـت كاترينـا إلـى رجـل متوسط العمـر، كان يـذرع الشقـة جيئـة وذهاباً، ثم تبادلـت معه حديثـاً قصيراً، في حيـن كانت عيناه تحملقـان تجـاه ناديا، ثم أعطـى ناديا ما بدا أنـه حزمة نقود. انزعجـت ناديا من نظـرات الرجـل، فاستدارات لتنظـر إلى البنـات الأخريات، فقـدرت أنها تكبرهن بخمس أو سـت سنـوات فـي الأقل، ولـم يكن بينهـن من بلغـت الثامنـة عشر من العمر بعد.

اقتربـت منهـا إحدى البنات، وسألتها بصوت ينمّ عـن القلق: هل تعرفين إلى أين نحن ذاهبات؟

لقـد وجدت لي كاترينـا وظيفة في مطعم في إيطاليا. قالت ناديا ذلك بوصفه حقيقة مسلّماً بها.

نعم. لقد قالت لنا ذلك أيضاً، أجابت الفتاة، ولكني كنت أسأل إن كنت تعرفين تماماً المكان الذي سنذهب إليه في إيطاليا.

قبـل أن تتمكـن ناديـا مـن الإجابـة، ردّ الرجـل الـذي قالـت عنـه كاترينا: إنـه الدليـل، قائـلاً: سـوف نغـادر بعـد ثـوانٍ قليلـة. توقـف قليـلاً، ثـم استأنف حديثـه: يوجـد في الخارج ثـلاث سيارات فـي انتظارنا. سـوف أحدّد لـكلّ واحدة السيـارة التـي ستركبهـا. لا تقلقن بخصوص السيارة التـي ستركبنهـا؛ فوجهتنا جميعنا واحدة.

حملت كاترينا حقيبتها، وانطلقت خارج الشقة. تبعتها ناديا، وجلست في المقعد الخلفي للسيارة المخصصة لها بجانب فتاة لم تقابلها من قبل. أدار السائق محرك السيارة، وانطلقت سيارة الدليل في المقدمة.

ظلت السيارات تسير متتابعة ساعات عدّة، في الوقت الذي التزمت فيه ناديا الصمت دون أن تنبس ببنت شفة. أمضت الوقت وهي تفكر في ابنها. وناجت نفسها: ألم يكن الأجدر بي أن أظل في بيتي وأعتني بابني؟ لا يهم إن كنت لا أستطيع شراء الأشياء التي أريدها له كلّها. لكن المشكلة هي المستقبل الذي ينتظره دون تعليم.

عند اقترابهم من الحدود مع رومانيا، توقفت القافلة فجأة: بدا لناديا أنهم قد ضلّوا طريقهم، ولكنها رأت بعد دقائق عدة أضواء ثلاث سيارات تتقدم ببطء من الاتجاه المقابل. توقفت السيارات في منتصف الطريق الذي توقفوا فيه. رأت ناديا الدليل ينزل ويذهب إلى السيارة الأولى، ويتحدث مع من فيها عبر النافذة. بعد ذلك، عاد إلى سيارة ناديا وفتح الباب الخلفي، وقال: هيّا يا بنات. احملن حقائبكنّ، سوف نبدل السيارات للمرحلة الثانية من الرحلة. عندما استقرت ناديا في المقعد الجديد المخصص لها، نظرت عبر الشباك، فرأت كاترينا تجلس في المقعد الخلفي لإحدى السيارات التي غادرتها البنات توّاً. شعرت ناديا بشيء مريب وتساءلت: لِمَ لا ترافقنا كاترينا؟

أنزلت ناديا زجاج شباكها، وأشارت بيدها لتجذب انتباه كاترينا. وعندما فشلت في ذلك، نادت على كاترينا التي تجاهلت النداء. وبعد دقيقة، كانت القافلة تعبر الحدود إلى رومانيا.

تهريب اليتامى

أصبحت دور الأيتام إحدى الصناعات القانونية القليلة المزدهرة في أوروبا الشرقية طوال العقدين الماضيين. فقد أدى انهيار العائلات إلى تخلي الآباء عن أبنائهم الذين وجدوا أنفسهم بلا مأوى ولا معيل.

ويمكن أن نتخيل أثر الهجرة في عائلة تقطن بلداً مثل مولدوفا، التي هاجر منها واحد من كل أربعة أشخاص ما بين عامي 1991 – 2002[3]. ولم يعد مُستغرباً أن يترك الآباء أبناءهم وراءهم عندما يغادرون البلاد. وهناك أطفال آخرون يفقدون آباءهم بسبب إدمان الكحول، أو الوفاة، أو الفقر المدقع.

وعلى الرغم من انتشار دور الأيتام، فإن هناك حاجة إلى مزيد منها؛ فالدور الحالية مزدحمة فوق طاقتها، ولديها قائمة انتظار طويلة. وللتغلب على مشكلة الاكتظاظ، تلزم هذه الدور الأطفال على مغادرتها عندما يبلغون سن سبعة عشر عاماً. وهناك عدد قليل من هؤلاء الأطفال الذين يملكون نقوداً أو مهارات للحصول على عمل. ولذلك، فإن عصابات الاتّجار بالبشر تعرف نقطة ضعفهم، وتجدهم لقمة سائغة.

بدأ تجار الرّقيق بملاحقة الأطفال حتى من هم داخل دور الأيتام، ومما يؤسف له أنهم يجدون متواطئين معهم داخل هذه الدور، وهم مستعدون لخيانة هؤلاء الأطفال وبيعهم بثمن مناسب. وتقول منظمات حقوق الإنسان: إنه يجري بيع الأيتام في المنطقة، وتهريبهم عبر الحدود الدولية لاستخدامهم في الأفلام الإباحية. فعلى سبيل المثال، فضحت وزارة الخارجية الأمريكية في تقريرها عن الاتّجار بالبشر عام 2003، مديري دور الأيتام في مولدوفا لبيعهم تجار الرّقيق معلومات شخصية عن الأطفال، وتسهيل اختطافهم في بعض الحالات . وقد وثّق التقرير حالات مشابهة في رومانيا: حيث هناك دور أيتام عدة متورطة في تسهيل جعل البنات يقعن ضحايا لشبكات عصابات الدعارة .[4]

تشيزاري لوديزيرتو: عدوى الحبّ

مثل كثيرين غيره من سكان سان فوكا، يشهد إنزو على الأسطورة بادري شيزاري. يدير إنزو واحداً من أشهر مقاهي الرصيف في القرية. ففي ليالي الصيف الحارة من

شهر أغسطس، وعندما يبدو أن إيطاليا قاطبة قد خرجت في إجازة، تمتلئ الساحة المقابلة للمقهى بالباحثين عن تسلية موسيقية أو شراب بارد. أما البنات اللواتي يقمن على خدمة الزبائن، فيتحدثن اللغة الرومانية، أو الروسية، أو المولدوفية.

كانت عصابات الاتّجار بالبشر قد هرّبت هؤلاء البنات إلى سان فوكا تمهيداً لنقلهنّ إلى مهمة أخرى، لكن بادري تشيزاري أنقذهن من هذا المصير.

يروي إنزو: إنه ذهب إلى ملجأ (ملكة السلام) في يوم ماطر عاصف؛ ليتطوع في إعداد وجبات الطعام للاجئين. وفي الوقت الذي كان فيه منهمك في عمله، اندفعت مجموعة من الصبيان إلى داخل الملجأ، وهم يصيحون باهتياج بأنهم شاهدوا قارباً صغيراً ينقلب قبالة الشاطئ. ارتدى إنزو معطفه، ووصل إلى بوابة الملجأ الخارجية، في الوقت الذي وصل فيه بادري تشيزاري أيضاً. انطلق الرجلان في سيارة إنزو متجهين إلى الموقع الذي حدّده الأطفال.

اقشعر بدن إنزو وهو ينظر إلى البحر الهائج، فهو يعمل صياد سمك بعد انتهاء موسم الإجازات، ويعرف أن الأمواج العالية يمكن أن تلتهم أي قارب أو سفينة صغيرة.

ركن إنزو سيارته إلى جانب الطريق، ثم ركض هو وبادري تشيزاري في اتجاهين متعاكسين على الشاطئ؛ بحثاً عن ناجين. نثرت الرياح العاصفة مياه البحر أفقيّاً فحجبت عنهما الرؤية. بحثا طوال خمس دقائق دون جدوى، فبدأ إنزو يخشى أن يكون ركاب القارب قد غرقوا. وفجأة، سمع صوت بكاء عالياً يختلط بهدير البحر. لأول وهلة، ظن أنه صفير الريح. ولكن بعد أن أرهف السمع جيداً، تأكد أنه بكاء طفل.

أخذ الرجلان يعدوان في الاتجاهات كافة، ثم شاهدا حركة عند الشاطئ. لوّح إنزو إلى بادري تشيزاري بيديه، ثم أخذ يقفز فوق الصخور. وعندما أطل على أسفل الجرف، وجد خمسة وعشرين لاجئاً عراقيّاً من الأعمار جميعها: نساء، ورجالاً كباراً في السن، وأمهات شابات، وأولاداً، وأطفالاً رُضّعاً - متكومين في صدع صخري، محاولين الاحتماء من الريح والمطر.

بـلا حراك، وقـف إنزو على بعد ثلاثة أمتار من اللاجئيـن، حائراً لا يدري ما يفعله؛ إنه لا يتقن العربية. حملق اللاجئون فيه حيارى وقلقين؛ أعدوٌ هو أم صديق؟

كسر بادري تشيزاري جدار الحيرة والصمت، واندفع إلى حيث تجمّع اللاجئون، فخلـع معطفه ولفه حول الأطفال الصغار. صحيح أنـه تحدث إليهم بالإيطاليّة التي يجهلونها، لكنهم أحسوا بدفق الحنان في نبراته.

أومـأ لهـم إلـى الشاطـئ، ثم بـدأ يمشـي، فتبعه الآخـرون في صـف واحد. ومـا إن وصلـوا إلـى الشـارع العـام، حتى وجـدوا مجموعة سيـارات تابعـة للملجأ بانتظارهم.

ولا يـزال إنزو يتذكر هـذه الحادثة حتى الآن، فهـي وإن كانت مجرد يوم آخر في حياة بادري تشيزاري، لكنها كانت حدثاً ذا أثر كبير في نفسه. يحتفظ إنزو على أحـد جـدران المقهى بصورة بـادري تشيزاري وهو يحتضن اثنين مـن أطفال إنزو بذراعيـه. ولأنـه تعلم منه الحب والحنان، فـإن إنزو يساعد الفتيـات المهرّبات في الحصول على عمل.

لقـد أثّر بـادري تشيزاري في حيـاة كثيرين في سان فـوكا، وبخاصة الفتيات الشابـات مـن ضحايا تجارة الجنس اللواتـي يعملن الآن في المطاعـم، ومحال بيع الفواكه، والمخابز. وقد تزوجن من بعض سكان القرية، وأصبحن يسرن في الشوارع بكرامة.

ناديا؛ العبور

سـارت قافلة السيارات ساعات عدّة داخل الأراضي الرومانية، قبل أن تتوقف خلـف بيت ريفي قديم. ومع أنها كانت ترى أضـواء قرية صغيرة في البعد، فإنها لم تستطع تحديد المكان الذي وقفت فيه السيارات.

طلب السائقون من الفتيات الدخول إلى البيت بسرعة، ثم أدخلوهن في غرفة خافتة الإضاءة، وأوصدوا الباب عليهن. كان في الغرفة أيضاً ثلاث فتيات رومانيات يجلسن على مقاعد داكنة. وعندما فُتح الباب، وقفن بسرعة كأنما كنّ بانتظار شيء ما، لكنهن عدن وارتمين على المقاعد باستسلام عندما أُغلق الباب مرة أخرى.

هـل يمكـن أن تقولي لي أيـن نحن؟ سألت ناديـا بنتاً من البنـات ذات عينين زرقاوين وجمال أخّاذ.

أخشى أني أعرف، أجابت البنت.

ولكن، كم مضى عليكن هنا، سألت ناديا المتعطشة إلى المعلومات.

ربما أسبوعان، أجابت البنت، وكي أصدقك القول، فإني لا أعرف بالضبط.

أسبوعان؟ عقّبت ناديا باستغراب ولكن. هل شرح لكّن أحد ماذا يجري؟

إنهـم يجـدون صعوبة في تأميـن إذن دخـول (تأشيرات) لنـا، أجابت الفتاة الرومانية. كان ذلك هو التفسير الوحيد الذي تلقته ناديا لهذا الحجز في هذه الغرفة.

كان أحد الرجال يتولى إحضار وجبتين خفيفتين من الطعام لهن طوال اليوم. لكن ناديا كانت تصرخ بوجهه في كل مرة يحضر فيها صينية الطعام قائلة: لِمَ تحتجزوننا هنا؟ لكنه كان يتجاهل احتجاجها، ويشير إليها بالسكوت، ومن ثَمَّ يغادر الغرفة.

بعـد سبعة أيام فـي الحجز، جاء إلى الغرفة رجل حسن الهندام، ومن ورائه ثلاثة مرافقيـن مرعبين. رمقهـن الرجل سريعاً ثم قال: لقد حصلنا علـى تأشيرات الدخول، وسوف نغادر إلى صربيا. ومن هناك، سوف نضعكّن على متن حافلة تأخذكن إلى إيطاليا. لقد أعدّ لكن صاحب العمل مكاناً للسكن. وعليه، يمكن أن تبدأنَ بجني المال فوراً.

بعد سماع ما قاله الرجل، ارتفعت معنويات ناديا أول مرة منذ مغادرة العاصمة المولدوفية كيشيناو. اصطحبهن المرافقون إلى خارج المنزل، حيث كانت سيارتان لونهما أبيض بانتظارهن.

ما إن ركبت الفتيات حتى انطلقت السيارتان، وظلتا تسيران طوال اليوم في طرق جبلية ضيقة. وعند هبوط الليل، انحرفت السيارتان عن الطريق، ودخلتا إلى غابة كثيفة الأشجار. ثم طلب المرافقون من البنات النزول.

تحدث الرجل الأنيق عن تفاصيل جديدة في الخطة، يبدو أنها تجاهلها عن عمد عندما تحدث إليهن أول مرة. قال الرجل: لقد حصلنا لكنّ على تأشيرات دخول إلى إيطاليا للعمل هناك، ولكننا لم نحصل على تأشيرات لدخول صربيا. ولذلك، يجب أن تتسلّلن عبر الحدود تحت جنح الظلام.

أطلقت البنات صيحات الاحتجاج. ولكن الرجل الأنيق وضع حدّاً للبلبلة وقال: أنا آسف، هذه هي الطريقة الوحيدة لإيصالكن إلى الحافلة التي ستأخذكن إلى إيطاليا. ثم أخبرهن بأن السيارات ستكون بانتظارهن على الطرف الآخر من الحدود، وسوف يومض السّائقون أنوار سياراتهم كل دقيقتين إلى أن يصلْن، ثم حذّرهنّ بأنهنّ قد يقضين سنوات في السجن إذا ما أُلقي القبض عليهنّ. وأكد لهن أن الحياة في السجون الصربية لا تُطاق.

سار الرجال أمام البنات مسافة نصف ميل إلى أن وصلوا إلى منطقة مكشوفة، ثم جلس الجميع حتى رأوا أنوار السيارات تومض بين الأشجار على حافة جبلية مرتفعة. عندها، قال الرجل الأنيق: هيا انطلقْنَ الآن، ولا تتوقفْنَ عن الجري إلى أن تصلْن إلى تلك الحافة.

تهريب البشر والعولمة

يستغل تجار الجنس أسوأ جوانب العولمة وأفضلها في آن واحد. فمنذ انطلاق موجة العولمة، روّج المدافعون عنها لسهولة عقد الصفقات عبر الحدود الوطنية من خلال أدوات التواصل المتقدمة، ومرونة القوانين المصرفية. وبناء على نظريات

العولمة، يمكن للمشروعات الافتراضية أن تعمل في أي مكان أو لا مكان، وأن تكشف عن نفسها في الوقت والمكان اللذين تختارهما.

وقد استفادت عصابات الجريمة المنظمة من هذه الأدوات لإنشاء شبكات فاعلة في الخارج. وعلى الرغم من أن معظم عمليات تهريب البشر تُدار من قبل مشغّلين محليين، فإنهم يتواصلون بسهولة مع تجار الجنس العالمية التي تسعى إلى ملء بيوت الدعارة، ونوادي التعرّي، وصالونات التدليك، والرّقص الخليع.

وأصبح بإمكان صاحب أحد النوادي في شيكاغو الاتصال هاتفياً، وطلب ثلاث فاتنات من أوروبا الشرقية. وبعد أسبوعين، سوف تتوافد فتيات سلافيات يرقصن في ناديه.

ويقول منتقدو العولمة: إن رأس المال يتدفق إلى حيث يستطيع استغلال العمالة الرخيصة. وسوف يغادر أصحاب رأس المال مكاناً ما بسرعة عند حدوث إحدى الحالتين الآتيتين، هما: إذا أخذت الأصول التي يستغلها في التآكل، أو إذا أمكن الحصول على هذه الأصول بثمن أرخص في أسواق أخرى؛ تلك هي تجارة الجنس.

لقد لوحظ في العقود الثلاثة الماضية أن المنطقة الرئيسة لاصطياد الرّقيق الأبيض قد انتقلت بسرعة من إحدى مناطق الركود الاقتصادي إلى منطقة أخرى أكثر انتعاشاً. كانت عصابات الاتّجار بالبشر في سبعينيّات القرن العشرين تستهدف البنات من جنوب شرق آسيا؛ من تايلاند وفيتنام تحديداً والفلبين. وبعد عشر سنوات من الاستثمار في آسيا، نقلت عصابات الاتّجار بالبشر نشاطها إلى إفريقية، حيث أخذت الفتيات من نيجيريا وأوغندا تغرق أسواق الجنس العالمية. وفي منتصف ثمانينيّات القرن الماضي وبداية التسعينيّات، أصبحت الفتيات من أمريكا اللاتينية: البرازيل، والمكسيك، والدومنيك، وأمريكا الوسطى (ولا سيّما السلفادور وجواتيمالا) السلعة المفضلة. وتنتهز عصابات الاتّجار بالبشر الأوضاع الاقتصادية المتردية للمجتمعات الفقيرة لممارسة أنشطتها. فحتى ثمانينيّات القرن الماضي، كان من النادر تهريب

الفتيات من دول أوروبا الشرقية. ولكن الوضع تدهور بصورة مذهلة في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي. وقدّرت المنظمة الدولية للهجرة أن نحو ربع مليون فتاة قد جرى تهريبهن داخل أوروبا وحدها من الشرق إلى الغرب منذ عام 1991[5].

وحتى في داخل أوروبا الشرقية نفسها، فإن مناطق التهريب الرئيسة تتغير بسرعة سعياً وراء اغتنام الفرص. ففي عام 1992، جاءت معظم ضحايا التهريب من بولندا، ورومانيا، وهنجاريا، وتشيكو سلوفاكيا، وعندما نضبت الموارد في هذه الأسواق، نقل تجار الرّقيق نشاطهم إلى روسيا، وأوكرانيا، وبلغاريا، ومولدافيا. ومع بداية القرن الحادي والعشرين، انتقلت منطقة الاتّجار بالبشر إلى آسيا الوسطى: أوزبكستان، وكازخستان، وقرغيزستان، وجورجيا.

أما تحديد الدول التي ستُرسل إليها أولئك النسوة، فأمر راجع إلى العرض والجدوى الاقتصادية. فمثلاً، كانت معدلات الاتّجار بالبشر منخفضة في إسرائيل في الماضي إلى حدٍّ ما، لكن فريق العمل المخصوص بمراقبة الاتّجار بالبشر لاحظ أن عصابات الجريمة المنظمة بدأت منذ عام 2008 باستقدام ما يقارب خمسة آلاف امرأة من دول البلقان سنوياً لغايات البِغاء[6].

وعلى هذا، ترتحل هذه العصابات إلى حيث تحقق أكبر قدر من الأرباح. وفي إشارتها إلى ما أسمته (الفعالية عديمة الرحمة) لعصابات الاتّجار بالبشر، قالت مفوضة الاتحاد الأوروبي للشؤون الاجتماعية، آنا ديامانتوبولو، في خطاب عاطفي في بروكسيل: إنهم خبراء في عملهم، إنهم يعرفون تقلبات السوق، ويستجيبون لها بسرعة لا تضاهيه حتى أكبر الشركات المنافسة. ولا يعلو على خبرتهم وقدراتهم في استغلال السوق سوى تجاهلهم لحياة البشر. البشرية بنظرهم سلعة تُباع وتُشترى وتُستأجر مثل أيّ سلعة أخرى، وما يعنيهم في كلّ هذا هو الربح: الربح فقط.[7]

وكشف تقرير أصدرته المفوضية الأوروبية عام 2009 مدى الانتشار الفيروسي لجرائم الاتّجار بالبشر. وأورد التقرير أحدث إحصائيات منظمة العمل الدولية التي

ذكرت أن مئات الآلاف من الأفراد يجري تهريبهم من أوروبا سنوياً. وتمثل نسبة الضحايا لأغراض الدعارة 23%، في حين يُستغل ما نسبته 32% من البضاعة (الفتيات) في الأعمال القسرية وأعمال السخرة. وتمثل النساء والفتيات 98% من مجموع ضحايا الاتّجار بالبشر لأغراض الزنا. وما يثير القلق في هذا التقرير هو أن الاتّجار بالبشر في أوروبا قد تجاوز تهريب المخدرات[8].

ناديا؛ سوق المواشي

عبرت الفتيات الحدود عدواً بأقصى سرعة ممكنة. كان الليل دامساً، ولم تكن إحداهن تتبيّن موطئ قدميها. لذلك، كنّ يدسن على الصخور الناتئة وشجيرات العليّق بأشواكها المسنونة. وعندما وصلن التلة، كانت كل واحدة منهن تقريباً قد فقدت فردة حذاء، وكنّ يعانين الجروح والرضوض في أقدامهن وسيقانهن.

بعد وصولهن إلى مكان وقوف السيارات، أصبحن الآن داخل صربيا. انحشرن في ثلاث سيارات أخذت تسير بهن في طرقات جبلية وعرة، بدت أن لا نهاية لها. وأخيراً، وصلت السيارات إلى بيت حجري معزول في وسط غابة نائية. وعند دخول البيت، وجدن فيه مزيداً من البنات المهّربات. كنّ أيضاً يعانين الجروح والرضوض. وقد استلقين على الأرض لإراحة أجسادهن المتعبة على الحيطان. وما إن اجتمعت القادمات الجدد والقدامى حتى جاءت امرأة شقراء الجدائل، جميلة، تحدثت إليهن بلغة روسية سليمة. أبدت المرأة اهتماماً بحالتهن، وأمرت بإحضار ماء ساخن ومناشف؛ لتتمكن الفتيات من تنظيف جروحهن.

بعد ذلك، وزعتهن المرأة إلى مجموعات من خمس أو ست بنات، وأخذتهن إلى غرف النوم في الدور العلوي. وحيث كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، أمرتهن بأخذ قسط من الراحة؛ لأن أمامهن يوماً طويلاً غداً.

نامـت الفتيات المنهكات حتى ظهر اليوم اللاحق تقريباً، ووجدن وجبة إفطار بانتظارهـن، فالتهمن كل ما قدّم لهن. كانت تلك الوجبة الوحيدة التي تناولنها منذ يومين.

عـادت البنات إلى غرفهـن، واستلقين على الأسرّة، وأخـذن يتبادلن حكايات هروبهـن. كانت الفتاة الرومانية ذات العينين الزرقاوتين التي التقتها ناديا في آخر محطة توقّف زميلتها في الغرفة. قصّت الفتاتان حكاية رحلة كلّ منهما من أوكرانيا، وأخبرتهن الفتاة الخامسة عن مسيرتها من بلغاريا. وكان الشيء المشترك بينهن أن المهرّبين وعدوهن بوظائف في إيطاليا.

قطعت عليهن المرأة شقراء الجدائل خلوتهن عندما فتحت الباب، وقالت:حسناً يـا بنـات. أريدكن أن تقدّمن لـي أفضل عرض لديكن. في قاعـة الانتظار في الدور الأرضي، مجموعة من الرجـال المهّمين جاؤوا ليُقيّموكنّ. سننـزل كلنا إلى الأسفل، ولكن عليكن خلع قمصانكن قبل الدخول.

فـي بداية الأمر، ظنّت ناديا أنها لم تفهم مـا قالته المرأة بالروسية، فسألتها وهي تتصنّع الهدوء: عفواً! ما الذي علينا فعله؟

خلـع ملابسكن حتى الخصر، وإبراز نهودكن، قالـت المرأة بطريقة طبيعية، وكأنما تطلب منهن خلع أحذيتهن والسير حافيات.

أنت تمزحين، أليس كذلك؟ ردّت ناديا وهي لا تصدّق ما تسمع.

لا تخافي! لن يحـدث لك شيء، قالت المرأة مؤكّدة. إنه مجرد فحص عادي، فقد أرسل أصحاب العمل في إيطاليا هؤلاء الرجال ليتأكدوا أنكن بصحة جيدة.

لاحظت المرأة نظرات الدهشة في عيون الفتيات، فأضافت: أحياناً ما يقوم المهرّبون بضرب من يهرّبوهن لدرجة لا يتمكّنّ فيها من العمل. لذا، نريد أن نثبت لهم أنكن سليمات، وأن حالتكن الصحيّة جيدة.

على الرغم من شكوكها، فإن ناديا وافقت على مضض على الاشتراك في العرض. هبطت مجموعتها الدرجات المؤدية إلى الأسفل، ثم توقفت أمام باب قاعة الانتظار، ومن ثم خلعن ملابسهن. أمّا المرأة الروسية فكانت تشجعهن وتقول: حسناً، هذا جيد، هذا جيد، هذا كل شيء. نحن جاهزات الآن، فهلمّ ندخل.

عندما دخلنَ. شاهدت البنات عشرة رجال أو أكثر يجلسون مُتحلّقين. طلبت المرأة إلى كل واحدة من الفتيات التقدم إلى الأمام، وذِكر اسمها، والدوران في حلقة كاملة. تفحصهن الرجال باهتمام وكأنما كانوا يعاينون أغناماً في سوق المواشي.

بعد الانتهاء من هذا الاستعراض المُهين، عادت البنات إلى غرفهن للاستراحة. بعد نحو ساعة، فتحت المرأة الروسية باب الغرفة، ونادت ناديا والبنت الرومانية صاحبة العينين الزرقاوتين: سوف تغادران في سيارتكما بعد خمس دقائق، قالت ذلك باقتضاب.

أعدت الفتاتان حقيبتيهما بسرعة، وتمنتا لزميلاتهما حظّاً سعيداً، وهبطتا الدرج بسرعة. وعند نهايته، كان بانتظارهما رجل نحيف أسود الشعر. قال لهما بلغة روسية ركيكة: أنتما الآن تعملان عندي، سوف تأتيان معي الآن. سار أمامهما إلى حيث كانت سيارة بانتظارهما، وأشار إلى المقعد الخلفي. وخاطب السائق بلغة اعتقدت ناديا أنها الصربية.

استغرقت الرحلة إلى بلجراد نحو ساعتين. وضعهما السائق في شقة في منطقة سكنية، وقال بلغة روسية ركيكة أيضاً: انتظرا هنا، سأعود بعد دقائق قليلة.

بعـد نصف ساعـة، عاد السائق بصحبـة رجلين ضخميـن يرتديان معطفين جلدييـن، وأخذا ينظران إلـى الفتاتين بشهوة وهما يتحدثان بلهجـة صربية ثقيلة. وعندما بدا أنهما توصلا إلى اتفاق ما، قال السائق: حسناً، أنتما تعملان الآن.

مـاذا تعني؟ سألـت ناديا بارتباك. أجابها الرجل غاضبـاً: لقد كلفتماني مالاً كثيراً. عليكما ممارسة الفاحشة مع هذين الرجلين: تراجعت الفتاتان قليلاً إلى الوراء، ثـم قالت ناديا بحـزم: مستحيل! نحن لسنا كما تعتقد. وفـي محاولة يائسة للخروج من هذا المأزق، قدّمت للرجل خياراً آخر: سوف نعمل لديك في المطعم بأقصى ما نستطيع، ولكن لا يمكن أن نمارس هذا النوع من العمل.

لم يكن الرجل على استعداد للدخول في مفاوضات. أدخل يده إلى جيبه وأخرج منها أداة لم تعرف ناديا ما هي إلا بعد أن ضغط عليها، فلمع النصل من الغمد، ثم أمسكهـا من شعرها ووضع الشفرة على حنجرتهـا، وهدّدها قائلاً: عليك أن تمتّعي هذين الرجلين، وإلا سأجزّ عنقك.

أخذت ناديا وزميلتها ترتعشان رعباً، ثم قادهما الرجل إلى غرفتين منفصلتين حيث اغتصبهما الرجلان البدينان. تكرر هذا المشهد في الأشهر اللاحقة مرات لا تعـدّ ولا تحصى. مجرد أربع كلمات بسيطة: حسنـاً، أنتما تعملان الآن، حوّلت حياة ناديا إلى جحيم.

عصابات الجريمة المنظمة الروسية

لا يمكن لأي نشاط غير قانوني، واسع الانتشار، ومدر للربح، مثل تجارة الجنس في أوروبا الشرقية أن يتم دون آلة الجريمة المنظمة. أما كيفية عمل هذه العصابات، فمـا يزال لغـزاً حتى الآن؛ لأنها تعمل ما بوسعها لإبقـاء أنشطتها وطريقة عملها في سرية تامة.

ولكـن، مـن الواضـح أن المافيـا الروسية تتـرك بصماتها علـى أوجه تجارة الجنـس في أوروبا الشرقيـة جميعها، وهي تتغلغل فـي آلاف المنظمات، إضافة إلى التجـارة القانونيـة. ولا ينحصر تأثير عصابات الجريمـة الروسية في المنطقة، بل يتجاوزهـا إلى أبعـد من ذلك؛ فهي تسيطر علـى تجارة الجنس فـي إسرائيل، وفي أجزاء كثيرة من أوروبا الغربية، إضافة إلى وجود قوي في الولايات المتحدة، وكندا، وجنوب شرق آسيا.

وتكمـن أبـرز جوانـب قوة المافيـا الروسيـة في قدرتهـا على بنـاء تحالفات مربحـة، فهي على سبيل المثال، تنسّق عن كثب مـع العصابات المستقلة في ألبانيا وإيطاليـا لنقل الفتيات إلى أوروبا الغربية. وهي تلجأ إلى هذا الأسلوب؛ لأن ممارسة عمليـات التهريب في هذين البلديـن سوف تكون مكلفة جدّاً وصعبـة أيضاً، ناهيك عـن عمليات الابتزاز من مسؤوليـن حكوميين، وضباط شرطة فاسدين. ولهذا، فإن عصابـات الجريمـة الروسية تتعاقد مـع جهات خارجية على نفقـات توزيع الإنتاج. وبناء على هذا الاتفاق، تحصل كل حلقة في هذه السلسلة على حصتها من العائدات، بعـد إدراكهـا أن العمل مـع الآخرين يدرّ عليهـا ربحاً أكبر بدلاً مـن العمل منفردة. وتشتهـر المافيـا الروسية باستخدام العنـف المفرط عندما تشعـر أنها مهددة، أو في حـال خيانتها. وإذا ما أضفنـا عاملي الترهيب والتخويف إلـى شبكاتها السرية الفاعلـة، فإنهـا بذلـك تصبح عـدواً مخيفـاً لمناهضي تجـارة الرّقيق فـي أوروبا الشرقية.

تشيزاري لوديزرتو: منطقة الخطر

لا يتحـرك بـادري تشيـزاري وحده، بل يتبعـه فريق حمايـة شخصية في حلّه وترحاله، بعد أن قررت الحكومة الإيطالية توفير حماية دائمة له على مدار الساعة وهو داخل البلاد. إضافة إلى تمتعه بالحماية ذاتها عندما يذهب إلى العاصمة المولدوفية كيشيناو، بأمر من الرئيس المولدوفي.

ولا ينطلق الخوف على سلامته من شكوك لا أساس لها؛ بل لأن كثيراً من عصابات المافيا تتوعده بالقتل، نظراً للخسارة التي تتعرض لها من جرّاء مناهضته لتهريب الرّقيق الأبيض.

مطلع عام 2001، جاء اثنان من القتلة المأجورين ليحذّراه، وإلاّ فعليه أن يتوقع حدثاً خطيراً، لكنه لم يكترث بهذا التهديد.

في عصر أحد الأيام، عندما كان يسير على الشاطئ المقابل لملجأ (ملكة السلام)، كان عضوا المافيا في انتظاره. لم يحاولا حتى لباس أقنعة لإخفاء شخصيتهما. استوقفاه، وطلبا إليه بهدوء أن يرافقهما إلى أحد البساتين القريبة. كان أحدهما يحمل مسدساً يتدلّى من حزامه علناً. لم يكن أمام بادري تشيزاري أي خيار آخر سوى السير معهما.

عندما دخلوا بين الأشجار، أفصح الرجلان عن مهمتهما، وقال أحدهما: بادري، أنت في مشكلة عويصة. إن رئيسنا يريدك أن تعلم أنه يكره سرقة ممتلكاته.

دافع عن نفسه قائلاً: أنتما تعرفان أني لا آخذ شيئاً يعود لشخص آخر، ولا حقّ لي فيه.

لا تتذاكى يا بادري. ردّ عليه أحدهما بلغة إيطالية سليمة. إذا أخذت واحدة من بناتنا وآويتها عندك، فلَن تعيش لتروي حكايتك.

في تلك الأثناء، شعر حراس الملجأ بالقلق لأنه تغيب مدة أطول من المدة المعتادة. فبدؤوا عملية بحث محمومة، وصاروا ينادون عليه. عندما سمع القاتلان المأجوران النداءات، أسرعا بالابتعاد عن المكان، فهرب بادري منهما.

يحكي باردي هذه القصة كما لو كان يروي حبكة فيلم سينمائيّ. وعندما سُئِل عن برودة ردة فعله مع هذه القضية، أجاب: إن أي شيء يمكن أن يفعله هؤلاء القتلة بي لا يقارن بالمعاناة التي مرت بها هؤلاء البنات المهرّبات.

وبعد أن فشلت العصابات في إخافته وثنيه عن تأدية رسالته، لجأت إلى تشويه سمعته؛ حيث تقدم عدد من الفتيات من نزيلات الملجأ سابقاً بشكوى رسمية ضده، مطالبات بتعويض عن الأذى النفسي الذي ألحقه بهن؛ نظراً لأنه حوّل الملجأ إلى سجن، وحدّد تحركاتهن. وفي المقابل، تقدّم العاملون في الملجأ إلى الشهادة لمصلحة بادري تشيزاري؛ لاقتناعهم بأن عصابات المافيا هي التي ضغطت على أولئك الفتيات لرفع قضية ضده. أيضاً، تراجعت إحدى المشتكيات عن إفادتها بعد أن حاصرها القاضي بأسئلته. أمّا بادري، فلم يحاول الدفاع عن نفسه. وعندما سُئِل عن هذه الاتهامات، هزّ كتفيه بلا مبالاة، وقال: أستطيع أن أقول: إنني لست قدّيساً، ولست مجرماً. وما عدا ذلك فإن عملي يتحدث عن نفسه.

الجهود السياسية للحد من الاتّجار بالبشر

حظيت تجارة الرّقيق الأبيض باهتمام قادة العالم طوال أكثر من قرن؛ ففي عام 1904، وافقت اثنتا عشرة دولة، من ضمنها الولايات المتحدة، على الاتفاقية الدولية لقمع الاتّجار بالرّقيق الأبيض. وقد أعدت الاتفاقية ردّاً على اختطاف الفتيات لأغراض الاستغلال الجنسي في أوروبا وآسيا، وهي التي تحث الحكومات على منع التفويض باستخدام النساء والبنات لغايات غير أخلاقية في الخارج.

وتبنّت عصبة الأمم في أعقاب الحرب العالمية الأولى وثيقة ضد العبودية مساندة لاتفاقية 1904، لكنها أضافت الأطفال إلى قائمة المحظورات. واستبدلت بالمصطلح المتداول حاليّاً، وهو الاتّجار بالنساء والأطفال مصطلح تجارة الرّقيق الأبيض.

نشطت الجمعية العامة للأمم المتحدة من أجل وضع إطار عمل قانوني لحظر الاتّجار بالبشر عام 1949. عرفت الوثيقة رسمياً باتفاقية قمع الاتّجار بالأشخاص واستغلال دعارة الآخرين، وقالت: إن استغلال النساء والأطفال لغايات شيوع الفاحشة يعدّ انتهاكاً لحقوق الإنسان. أيضاً، دعت الاتفاقية الحكومات إلى تبني الإجراءات الكفيلة بمحاكمة أي شخص يثبت استغلاله لفرد آخر، أو يدير مشروعاً تجاريّاً من هذا النشاط ينتفع به.

وبناء على هذه الاتفاقية، فإن أي عقد باتفاق شخصي سوف يُعامل على أساس أنه خيار حرّ، ولكنها رأت في الوقت ذاته أن البغاء لا يليق بكرامة الإنسان، وحثّت الدول على تعزيز التوعية بين الناس، وتقديم المساعدة المادية لإقناع الأفراد بعدم بيع أجسادهم في سوق البغاء. ولسوء الحظ أن الدول التي وافقت على هذه الاتفاقية كانت أقل من عدد الدول الأعضاء في الأمم المتحدة (اثنتان وسبعون دولة من مئة وخمس وثمانين).

أمّا اليوم، وابتداء من عام 2009، هناك دولة واحدة فقط؛ أستونيا، من بين تسع وثلاثين دولة أوروبية لا يوجد فيها قوانين ضد جريمة الاتّجار بالبشر[9].

وقد فسّرت الولايات المتحدة هذه الاتفاقية بطريقة ضيقة؛ إذ إن الولايات جميعها، باستثناء ولاية نيفادا، تجرّم البغاء، وتجعل الأطراف جميعها عرضة للمحاكمة: البغايا، والزبائن، والمهرّبين، والمستثمرين. وعلى أرض الواقع، فإن النظام القانوني الأمريكي قد عالج جانب العرض في المعادلة (المومسات وأصحاب بيوت الدعارة) على نحو صارم أكثر من معالجة جانب الطلب (الباحثون عن المتعة).

وبدلاً من محاولة حظر تجارة الجنس، فإن دول أوروبا الغربية تبذل جهداً مشتركاً لتنظيم هذه التجارة، ولا تزال الساحة الأوروبية تشهد نقاشات حادة عن أفضل السياسات لتحقيق الهدف وانعكاسات هذه السياسات.

فهولندا، مثلاً، عُرفت تاريخياً بتساهلها تجاه تجارة الجنس، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل خطت خطوة أخرى في أكتوبر 2000 بإضفاء الصفة الشرعية على البغاء. وتبعتها الحكومة الألمانية في إجراء مماثل بعد شهرين.

ويبرّر المُشرّعون في هاتين الدولتين هذه الخطة بالقول: إن الاستغلال يزدهر في البيئات غير القانونية. فإذا كان لا مناص من وجود البغاء في حياتنا دائماً - وهذا ما يفترضه المشرّعون في ألمانيا وهولندا - فإن تجريمه سوف يوجد سوقاً سوداء، تضع قوانينها عصابات الجريمة المنظمة. ويدعم هذا المنطق حقيقة أن 70% من أنشطة البغاء في الولايات المتحدة مرتبطة بالجريمة المنظمة[10].

وتُمنح البغايا في ألمانيا وهولندا الحماية القانونية من الاستغلال التجاري، ويستفدن من مزايا الخدمة الاجتماعية أيضاً. ولكن القوانين في هاتين الدولتين لا تشمل مواطني الدول غير الأعضاء في الاتحاد الأوروبي. ولخيبة أمل المشرّعين، فقد انتشرت تجارة جنس غير مشروعة في كلا البلدين؛ حيث استنتج استبيان أُجري عام 2003 أن النساء الأجنبيات يمثلن 65% من سوق الجنس في هولندا و 50% من السوق في ألمانيا[11].

ويجادل معظم مناهضي الرق بأن إضفاء الشرعية على البغاء يعدّ خطراً على القبول الاجتماعي العريض لبيوت الدعارة لغايات الترفيه الجنسي. وبدوره، سيؤدي مثل هذا النوع من البيئة الثقافية إلى زيادة الطلب على الفتيات الصغيرات، وهذا ما سيوفره تجار الرقيق الأبيض. وعليه، فهناك حاجة إلى إجراء مزيد من الدراسات لتحديد ما إذا كان حظر البغاء أو تشريعه سوف يؤدي إلى ارتفاع مستويات تجارة الجنس في أي دولة من الدول. وفي أقل تقدير، سوف يؤدي تشريع تجارة الجنس إلى استحالة محاكمة المهرّبين، والقوّادين، ومالكي بيوت الدعارة. فهؤلاء يمكنهم الدفاع عن أنفسهم بالقول: إن الفتاة نفسها وافقت على العمل مومساً، وهذا ما يجعل

مــن الصعب على الفتاة إثبات العكــس. وفي حال صور الإكراه اللاحقة، سوف تكون تحت غطاء قانوني.

أمّــا السويد فقد اتخذت مســاراً فريداً عن بقية الدول؛ إذ أصبحت عام 1999 أول دولة في العالم تحاكم من يشتري الجنس، وتُعامل المرأة بأنها ضحية. واعتمدت الحكومة برنامج توعية واسعاً لتشجيع المومسات على طريقة كسب عيشهن. ويصل حدّ العقوبة القصوى لأي متاجر بالجنس إلى ستة أشهر سجناً. وقد وُجّهت الاتهامات إلى سبع مئة وخمسين شخصاً في السنوات الخمس الأولى منذ إقرار القانون، أدين الثلثــان منهــم. ونتيجة لذلك، انخفضــت دعارة الشوارع في السويــد إلى حد كبير، وكذلك الحال مع تدفق النساء المُهرّبات لغايات الرذيلة[12].

وتقول السويدية ماريان أريكسون: عضو البرلمان الأوروبي، وإحدى المدافعات عن قانون تجريم الاتّجار بالبشر: ما يميزنا عن هولندا وألمانيا، هو أننا نربط تجارة العبيــد بالبغاء والإباحية. صحيح أن كل واحد فــي الاتحاد الأوروبي يعارض الاتّجار بالبشر، ولكننا نعرف أن 90% من هذه التجارة يرتبط بالاستغلال الجنسي.[13]

ناديا: المرور عبر الجحيم

عندمــا اعتقــدت ناديا أنها لن تخرج من صربيا أبــداً، ظهرت في حياتها مرة أخرى تلك المرأة الروسية ذات الضفائر الذهبية.

عند التقائهما، قالت المرأة الروسية: أنت في وضع مزرٍ، هؤلاء الصرب خنازير حقّاً. وأضافت، وهي تمد يدها لتلمس وجه الفتاة الرومانية: هيّا نخرج من هنا، يبدو أن كليكما في حاجة إلى وجبة ساخنة.

وعلــى الرغم من أن ناديا قد خُدعت من الحنــان الزائف لهذه المرأة سابقاً، فإنها لم تمنع نفسها من الترحيب بهذه المشاعر الإنسانية.

وبعد أن جلسن في مطعم قريب، قالت لهما المرأة الروسية: لقد استغرق الأمر بعض الوقت، ولكنني نجحت أخيراً في الحصول لكما على إذن دخول (تأشيرة) للعمل في إيطاليا. وسوف تعملان قريباً في مقهى في روما. ثم أخرجت المرأة جواز سفر ناديا، وأرتهما الخاتم الرسمي عليه دليلاً على صدق قولها، وأضافت: سوف تكونان في مأمن الآن إذا ما طلبت الشرطة الإيطالية أوراقكما الثبوتية. سوف تغادران في غضون يومين.

منذ تلك اللحظة، أخذت ناديا تعدّ الدقائق بانتظار الرحيل، استمر الرجل الصربي في إحضار الزبائن من طالبي المتعة الجنسية. ومع أنها كانت شغوفة في معرفة ترتيبات العمل بينه وبين المرأة الروسية، فإنها كانت تخاف منه، وفضلت عدم سؤاله. وعندما غادرت الشقة آخر مرة بعد يومين، صبّت على الشقة كل ما اختزنته ذاكرتها من اللعنات.

نقلهما رجلان روسيان ضخمان مع ثلاث بنات من أوكرانيا، وتوقفا في الجبل الأسود مدة يومين في مكان سمّاه الروسيان (البيت الآمن). وفي عشية اليوم الثالث، تركوا هذا البيت، ووصلوا بعد مدة وجيزة إلى حافة بحيرة كبيرة. أوقف السائق السيارة، لكنه ترك الأضواء الأمامية منعكسة على سطح الماء. لم يمض وقت طويل حتى ظهر قارب مطاطي صغير. سار الروسيان أمامهن على حافة البحيرة، ثم طلبا منهن القفز إلى القارب.

سألت ناديا أحدهما فيما إذا كان القارب سيأخذهن إلى إيطاليا، فأجاب: كلا، سوف تذهبن إلى ألبانيا أولاً. تملّك ناديا حزن شديد، وتساءلت: أما لهذا العذاب من نهاية! تركهن الروسيان في صحبة الربّان الألماني الذي أدار المحرك بأقصى سرعة، وظل يبحر بهن لأكثر من ساعة. كان الرّبان يتقن الروسية، وحاول أن يفتح حديثاً معهن، لكنهن لم يكنّ متحمسات لأي حديث، وكانت إجاباتهن مختصرة.

بعـد ذلك، لاحـت أمامهن مجموعة من الأضواء علـى مسافة بعيدة. قال لهن الألباني: سنذهب إلى ما وراء الأضواء، ثم أطفأ المحرك فجأة. اعتقدت ناديا في بادئ الأمر أن الوقود قد نفد، لكن الرجل قال لهن: سوف اختار واحدة منكن لأضاجعها، وإذا ما رفضت، فسوف أغرقكن في هذا المكان.

تبادلـت البنـات نظرات خائفـة. لا أتقن السباحـة، قالت بنت مـن العاصمة الأوكرانيـة كييف بصوت مُتهدّج، ثم أخـذت البنات يعترفن واحدة تلو الأخرى أنهن عاجزات عن السباحة في هذه المياه العميقة. وأخيراً، قالت الرومانية بصوت كسير: لنعطي هذا الحقير ما يريده. وما إن قالت ذلك حتى أمسكت بيد ناديا التي أمسكت بيد الفتاة التي تليها، وهكذا تشابكت أيديهن جميعاً.

استعدت البنات لعملية الاختيار. وبعد أن تفحص الرجل المجموعة، أشار إلى ناديا وقال: أنت، تعالي إلى هنا.

نظـرت ناديا إلى زميلاتها بخوف. قالت لها البنـت الأوكرانية بتوسل: أتوسل إليك أن تلبي رغبته، لا تخجلي، أنت تضحّين بذلك من أجلنا كلنا.

وقفت ناديا، ثم اتجهت صوبه، فسارع بانتزاع ملابسها واغتصابها على مرأى منهن. بعد الانتهاء من العملية، قال لها: لقد كنت رائعة. لو لم تتجاوبي جيداً، كنت سأغرقك أنت وصديقاتك. ضحك بصوت عالٍ، ثم أدار المحرك.

وعندمـا أبحرن باتجـاه الأراضي الألبانيـة، وجدن فريق ترحيـب غير متوقع بانتظارهـن. كانـت مجموعة من الرجـال المسلحين ببنادق آلية. ومـا أدهش ناديا أكثـر هو أن بعض الرجال كانوا يرتدون زيّاً رسميّـاً. وبلغ منها الخوف مبلغه عندما نظرت إلى الشارع، ورأت سيارتين تحملان كلمة (شرطة). يا لَسخرية القدر! فبعد هذه المعاناة كلها، وبعدما أصبحن على مقربة من إيطاليا، يبدو أن المطاف سينتهي بها في سجن ألباني.

ألقى رجال الشرطة القبض عليهن، واقتادوهن إلى مدينة شكودر. ولكن ليس إلى مركز الشرطة، بل إلى منزل خاص، تبادلوا فيه اغتصاب الفتيات قبل مغادرة المكان.

فساد الشرطة

ربما يتبادر إلى ذهن القارئ هذا السؤال: لِمَ لا تقوم الشرطة بدورها في وقف تجارة الجنس؟ إن الجواب يكمن في حقيقة أن بعض رجال الشرطة يفتحون معابر الحدود أمام عصابات التهريب وحمايتهم من الاعتقال على أيدي رجال الشرطة الآخرين من ذوي الضمائر النقية، وإصدار التصاريح التي تمكّن هذه العصابات من مزاولة عملهم بطريقة قانونية، واعتقال الفتيات الهاربات وإعادتهن إلى مالكيهن. وبعبارة أخرى، فإن عصابات الاتّجار بالبشر تعتمد على رجال الشرطة لمزاولة أنشطتهم.

لقد حوّل الفساد العدالة العامة في دول الاتحاد السوفيتي سابقاً إلى أضحوكة؛ فقد أفادت معظم اللواتي جرى تهريبهن عبر ممرات البلقان بأنهن شاهدن ضابط شرطة واحداً في الأقل يتعاون مع تجار الرّقيق.

واعترفت فتيات كثيرات باغتصابهن من رجال الشرطة، زد على ذلك أنهم لم يكلّفوا أنفسهم عناء إخفاء هوّياتهم وهم يقومون بفِعْلتهم الدنيئة تلك.

وقد أكد مكتب الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل التابع لوزارة الخارجية الأمريكية أن الموقع الإستراتيجي لألبانيا يسّهل عملية تهريب البنات الشابات من الشرق إلى الغرب.

وقال تقرير أعدّه المكتب: إن رجال الشرطة متورطون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في هذه العمليات[14]. وانتقد التقرير وزارة الأمن العام الألبانية التي تشرف على نظام الشرطة. وعلى الرغم من الأدلة الواضحة على تورط رجال الشرطة في قضايا الاتّجار بالبشر، فإن الوزارة فشلت في اتخاذ أي إجراء عقابي ضد هؤلاء

المتورطين. وعندما تتوافر الجرأة لدى جهات تنفيذ القانون على مواجهة المتاجرين بالبشر ومداهمتهم، تبلغ الشرطة المحلية المهربين بموعد الغارة المتوقعة.[15]

في ظل هذه الأوضاع، يمكنك أن تتصور كيف يكون شعور الضحية عندما تفتقد سلطـة قانونية صلاحيتها من الاقتصاص مـن الجلّاد! وقد ثبت أن ضباط الشرطة والمسؤولين الحكوميين لا يتغاضون عن الجريمة عند حدوثها فحسب، بل هم شركاء فيهـا. لذا، وبسبب عدم ثقة الناس في أوروبا الشرقية بالمسؤولين العموميين، فمن غير المحتمل التّقدّم بشكوى ضد منظمة وهمية اختطفت أحد أفراد عائلاتهم. وهذا مـا ينطبق على البنات من ضحايا تجـارة الجنس؛ حيث إن الشرطة تعاملهن كما لو كنّ يستحققن صور سوء المعاملة جميعها التي يتعرضن لها.

ولا ينحصر تواطؤ سلطات تنفيذ القانون في تجارة الجنس على أوروبا الشرقية، بـل هو ظاهرة منتشرة في العالم على نطاق واسـع. وهذا أمر متوقع؛ نظراً للطبيعة العلنية لهذه التجارة: فعلى العكس من المخدرات والأسلحة التي تُهرّب وتباع بطريقة خفّية، فإن سلعة الجنس يجب أن تكون على مرأى المشتري. ولذلك، إذا كان زبائن المتعة يستطيعون العثور على المنتج المحرّم وغير القانوني معروضاً علناً في إحدى زوايا الشارع أو في إعلان مطبوع، فما بالك برجال الشرطة الذين يستطيعون العثور عليه بسهولة أيضاً. ولهذا، فإن حقيقة أنهم لا يفعلون شيئاً لمحاربة تجارة الجنس تؤكد اللامبالاة بالمشكلة، أو الجهل بمدى انتشارها، أو المردود المالي في استمرارها.

وعلى الرغم من ذلك، سوف يحتاج مناهضو تجارة الرّقيق إلى طلب مساعدة رجال الشرطة للحد من تجارة الجنس الآخذة في الانتشار. وإذا كان رجال الشرطة في أوروبا الشرقية - أو في أي مكان آخر في العالم- مصنفين بأنهم عناصر إجرامية، فإن حركة مناهضة العبودية لن تفلح في سعيها الإنساني. وما لا شك فيه أن الفقراء والضعفـاء لا يستطيعون وحدهم التصدّي للمجرميـن المتنفّذين الذي يستخدمون الوسائل جميعها لزيادة أرباحهم. وفي ضوء هذا الواقع المرير، يجب على مناهضي

تجارة الرّقيق الأبيض والاتّجار بالبشر إقامة تحالفات مع ضباط الشرطة الشرفاء، ودعم جهودهم؛ لتعزيز حضورهم ومصداقيتهم محليّاً.

تشيزاري لوديزيرتو؛ البحث عن المنبع

يعمل بادري تشيزاري مثل أي ناشط من حماة البيئة المتحمسين الذين يعثرون على سمك مسموم عند مصب الجدول. ومثلما يفعل أنصار البيئة في تتبع سبب التسمم، فإنه يذهب إلى المنبع ويقضي على المصدر الذي يلوّث المياه.

أدرك بادري تشيزاري أن البنات المهّربات ما إن يصلن إلى قرية سان فوكا باحثات عن ملجأ آمن، حتى يقعن فريسة لتجار الجنس. ولذلك، تتّبع مسار التهريب حتى أوروبا الشرقية، وعالج المشكلة من منشئها.

في عام 2003، بدأ بتقليص خدمات اللاجئين، وأعاد ترتيب مهمة ملجأ (ملكة السلام) لأسباب كثيرة، منها النهاية السلمية لحرب البلقان، وتراجع تدفق المهاجرين من تلك المنطقة. إضافة إلى أن الوضع السياسي شبه المستقر في أفغانستان ساعد أيضاً على تراجع تدفق اللاجئين. وفي ضوء هذه المعطيات، أخذ بادري تشيزاري يولي اهتمامه على تهريب الفتيات لغايات الاتّجار بالجنس. وبناء على ذلك. تحوّل ملجأ (ملكة السلام) من أكبر مركز للاجئين في إيطاليا، إلى شبكة عالمية لمناهضة الاتّجار بالبشر.

لا يزال الملجأ يشرف على برنامج إيواء متواضع في سان فوكا. ويهدف العاملون في الملجأ والبرنامج إلى إيجاد حلول دائمة؛ حتى لا تميل الفتيات المهرّبات إلى التواكل. بعد مدة من النقاهة الأولية، توضع الفتيات عند عائلات سليمات صحيّاً، وعلى استعداد لرعايتهن. وتتلقى الفتيات الأجنبيات المساعدة لتحديد وضع لجوئهم مع السلطات الحكومية في الحالات التي يكون فيها المهرّبون قد احتفظوا بجوازات سفرهن معهم. ويمكن للفتيات تعلّم مهنة جديدة. وإذا كنّ في الأصل يملكن مهارات

ذاتية. فإن العاملين في البرنامج يساعدوهن في العثور على وظيفة يمكن أن تمنحهن شعوراً بالكرامة والاستقلالية.

ويمكن مشاهدة بادري تشيزاري باستمرار في أوروبا الغربية بعدما أنشأ مراكز لملجأ ملكة السلام في مولدوفا ورومانيا لتنفيذ أنشطة واسعة في مجال مناهضة الاتّجار بالبشر. وعن ذلك يقول: ألدّ أعدائنا في مناهضة تجارة الجنس ثلاثة: الفقر، وطالبو المتعة الجنسية الذين يرفعون من الطلب، والمهرّبون. لذا، فإننا نحث الخطا نحو إعداد البرامج التي تحدُّ من تأثير هؤلاء الأعداء في مصير الفتيات الصغيرات.

يعدُّ الفقر العدو الأشد والخفي من بين الأعداء الثلاثة تلك. لذا، فإن محاربته أصعب من محاربة العدوين الآخرين. ففي مولدوفا، مثلاً، يكابد أكثر من نصف السكان تحت خط مستوى الكفاف، إضافة إلى أنّ فرداً واحداً فقط من بين أربعة أفراد يلتحق بما يمكن أن يسمّى وظيفة ثابتة.

ومع أن مجموع سكان البلاد لا يتعدّى خمسة ملايين نسمة، فإن نحو عشرة آلاف بنت من عمر خمس عشرة إلى عشرين سنة يهاجرْن سنويّاً دون أن تكون لديهن ضمانات للدراسة أو العمل[16].

وفي أثناء زيارته الأولى إلى مولدوفا، التقى بادري تشيزاري بنتاً عمرها ثلاث عشرة سنة، تلقت عرض عمل في روما. كانت أكبر أخواتها الثلاث في عائلة فقيرة. روت له البنت كيف كان أبوها يضرب أمها إذا ما طلبت إليه نقوداً لشراء الحليب أو الخبز، وكيف كانت تتألم عندما كان يلمّ بأختها الصغيرة عارض مرضي. ولهذا، قبلت العرض؛ لتشتري لها الدواء.

ولكن، كيف تلقت هذا العرض؟ رأت إعلاناً في لوحة على جانب الطريق عن وظائف لعارضات مراهقات. وعندما ذهبت لاختبار الأداء وشاركت في لقطات تصوير، قال لها مندوب التوظيف: سوف تكونين عارضة مثالية لحملة دعاية في

إيطاليـا. وبعدمـا أعطاها مبلغاً نقديّـاً زهيداً، قال لها: هنالـك مزيد في انتظارك عندما تذهبين إلى روما.

ومـن أجل تحذير الناس كي لا يقعوا ضحايا لمثـل هذه الألاعيب، أطلق مركز (ملكـة السـلام) برنامج توعية في مدارس مولدوفا. ولحسـن الحظ أنه التقى هذه البنت في مدرستها قبل سفرها في مغامرة عرض الأزياء الموعودة. واكتشف بعد أن تحـرى حقيقة وكالة التوظيف هذه، أنها مجرد غطاء لعصابة تهريب، فتدخّل وأنقذ الفتاة من المصير المخيف الذي كان ينتظرها.

ويضع المركز لوحات إعلانات ضخمة في رومانيا ومولدوفيا: أسلوباً من أساليب تحذير الفتيات وعائلاتهن من الوعود الكاذبة التي يبثها المجرمون لاجتذاب الضحايا. ويستعرض العاملون في المركز الصحف يوميّاً بحثاً عن إعلانات مشبوهة عن وظائف في الخارج. وعند التأكّد من هوية المشبوه فإنهم يقومون بكشفه وفضحه على الملأ.

وبفضـل هذه الجهود، أنقذ عدد كبير مـن الفتيات. لكن بادري تشيزاري يرى أن الفقـر غالباً ما تكون له اليد الطولى؛ لأن أي فتاة تكافح من أجل بقاء عائلتها قد توقف أي تفكير أو منطق سليم، وتُقدِم على المخاطرة. ولذلك، فإنه يرى أن الوقاية تعدّ الهدف الرئيس لعملياته في أوروبا الشرقية. ويقول: قبل إقناع البنت بالبقاء في وطنهـا - أو، في حالة تورطها فعلاً فـي تجارة الجنس، وقطع علاقتها بها - عليّ أن أقدّر خطورة وضع عائلتها؛ لأن الفقر قاتل أيضاً.

هناك بعض المنحرفات اللواتي يخترن طواعية أن يصبحن مومسات أو راقصات في أندية التعرّي، مفترضات أن أسلوب الحياة هذا لن يكون بقسوة الضائقة المعيشية نفسها التي يعانينها. وكثيراً ما تراودهن أحلام الشهرة. وكثيراً، أيضاً، ما يعد الذين يقومون بعملية الاختيار والاستقطاب للبنت الضحية أن بإمكانها جني أموال طائلة، والعيـش ببذخ، وربما تقابل رجلاً ثريّاً قد يتزوجها. ولن يتبدد هذا الحلم إلا بعد أن

تجـد الفتـاة نفسها في أحد بيوت الدعـارة في باريس أو برشلونـة، مرغمة على بيع جسدها لأكثر من عشرة زبائن يومياً.

وبعـد أن تغلغل عميقـاً في الدول الأوروبية الشرقيـة، اكتشف بادري تشيزاري كيفية استخدام المتاجرين بالبشر الفتيات الصغيرات لأهداف غير الجنس والعمل في بيوت الدعارة. فقد تبيّن له بعد مقابلة فتيات عدة ذهبن إلى أوروبا الغربية؛ قسراً وطوعـاً، أنهن عملن أمهات بديلات لأزواج أثرياء لا ينجبون أطفالاً، مقابل نحو ستة آلاف دولار لقاء هذه الخدمة. وكان يطلب إلى الأم البديلة العيش قريبة من الزبائن طوال مدة الحمل والولادة. بعدها، تستطيع العودة إلى وطنها. وفي معظم الحالات، لا يعرف الزبائن أن هذه الفتاة أُرغمت لتقوم بدور الأم البديلة.

ومـن أجل توفير خيارات اقتصادية للبنات الصغيرات، أطلق بادري تشيزاري حديثاً مبادرة لإنشاء مشروعات صغيرة بقروض بسيطة ميسرة، للأفراد الراغبين في ممارسة أعمال مخصوصة بهم. ويحاول أيضاً إقناع أصحاب رؤوس الأموال الإيطاليين بالاستثمار في الجمهوريات السوفييتية السابقة. تستند دعوته هذه إلى معادلة سهلة، هـي: إذا ما أوجدنا فرص عمل، وحفزنا التنمية الاقتصادية، فسوف يؤدي ذلك إلى تقليص أخطار وقوع الفتيات فريسة لتجار الرّقيق الأبيض.

ويعمل مركز (ملكة السلام) على خط موازٍ لخفض الطلب على نساء المتعة. وقد قام العاملون في المركز بدور نشط في إغلاق وكالة للسياحة الجنسية في العاصمة المولدافية كيشيناو، كانت تصدر إلى تركيا فتيات يبلغن من العمر خمس عشرة إلى ســت عشرة سنة. وجاء الإغلاق في أعقاب تلقّـي العاملين في المركز معلومات عن مشاهدة رجال كبار في السن يدخلون إلى أحد الفنادق ويخرجون منه وهم يمسكون بأيـدي فتيات صغيرات. وبعد التّقصّـي والتّحري، تبين تورط تلك الوكالة في تجارة الجنس.

سلّم بادري تشيزاري الأدلة إلى نائب رئيس دائرة مكافحة الاتّجار بالبشر في مولدوفا الذي سارع إلى اعتقال أصحاب تلك الوكالة. ولم يلجأ بادري إلى الشرطة العادية؛ لأننا لو أعطيناهم الدليل، لكانوا وضعونا خلف القضبان.

وعلى الرغم من ذلك، يرفع بادري تشيزاري إلى دائرة مكافحة الاتّجار بالبشر تقارير عن التقدم الإيجابي في تعاونه مع المسؤولين الحكوميين والسلطات القانونية في مولدوفا، بل إن بعض وحدات الشرطة دعت موظفي المركز لتنظيم ورشات عمل عن كيفية معرفة الفتيات اللواتي ربما يقعن في براثن الرذيلة.

ظهرت أول المؤشرات على النجاح الذي أحرزه مركز (ملكة السلام) في مولدوفا في يوليو 2006، عندما منح الرئيس المولدوفي الجنسية إلى بادري تشيزاري؛ تقديراً لعمله البطولي ضد الاتّجار بالبشر في بلادنا.

تأثير الدبلوماسية الدولية

في أكتوبر من عام 2000، أصدر الكونجرس الأمريكي قانوناً مهمّاً يدعى قانون حماية ضحايا العنف والاتّجار بالبشر. يلزم هذا القانون الحكومة الأمريكية استخدام نفوذها السياسي والاقتصادي لوقف الاتّجار بالبشر في العالم. ومع أن أي قانون من هذا النوع غالباً ما يكون مجرد حبر على ورق. لكنه جاء واضحاً ومحدداً. (الفصل السادس يحوي تفاصيل أكثر عن هذا القانون ومساهمته في جهود إلغاء الرق داخل الولايات المتحدة).

وعلى المستوى العالمي، يطالب القانون وزارة الخارجية الأمريكية بإصدار تقرير سنوي يقيّم أداء حكومات الدول المختلفة في مواجهة المتاجرين بالبشر ومحاكمتهم. ومنذ ذلك الحين، يورد التقرير تفاصيل حالات الاتّجار بالبشر في كل دولة من الدول، ويشرح القوانين والسياسات والممارسات التي تطبقها الحكومات لحل هذه المشكلة. (بعد مرور عقد على إصدار هذا القانون، فشلت الوزارة في

إصــدار تقييم لأداء الولايات المتحدة في منع الاتّجار بالبشر، ومحاكمة المتورطين فيه، ورعاية ضحاياه).

ويقدّر أداء كل دولة من خلال وضعها في واحد من المستويات الآتية:

المستــوى الأول: الدولة التي تلتزم حكومتها تمامــاً بالحد الأدنى من مقاييس هذا القانون.

المستوى الثاني: الدولة التي لا تلتزم حكومتها تماماً بالحد الأدنى من مقاييس هذا القانون، ولكنها تبذل جهداً كبيرا للالتزام بها.

المستوى الثالث: الدولة التي لا تلتزم حكومتها تماماً بالحد الأدنى من المقاييس، ولا تبذل أي جهد للالتزام بها.

ويستمد القانون قوته من جانبين، أولهما أن وزارة الخارجية الأمريكية تصدر تقريراً علنيّاً أمام العالم كله. وهي تفعل ذلك على أمل أن تشعر الحكومات اللامبالية أو المخالفة بالحرج لتغيير سلوكها. وثانيهما أن الدول التي تُصنّف في المستوى الثالث تخضع لعقوبات صارمة، من ضمنها قطع المساعدات الخارجية، ومعارضة الولايات المتحدة لأي طلبات تتقدم بها تلك الدول إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

أصدرت وزارة الخارجية أول تقرير لها عن الاتّجار بالبشر في يوليو 2001. وقوبل التقرير بكثير من الانتقاد والاحتجاج، والترحيب أيضاً. فنظراً لتجاهلها التام للاتجار بالبشـــر داخل حدودها، صُنّفت ثلاث وعشرون دولة ضمــن المستوى الثالث، منها: روسيا، وإسرائيل، وكوريا الجنوبية، ورومانيا، وألبانيا، واليونان. وقد رحب المراقبون بالتقريــر، ولاحظوا أن الوزارة لم تتردد في فضح حتــى أقرب حلفائها السياسيين. ولكن الشيء المخيب للأمل هو أن نرى دولاً أوروبية عدة وضعت في المستوى الأول، مثل هولندا، وألمانيا، اللتان تنتشر فيهما هذه التجارة بكثرة.

وكما هــو متوقع، فإن الدول التي حصلت على درجــات متدنية أخذت تتباكى، وتمارس ضغطاً سياسيّاً شديداً انعكست نتائجه في تقرير 2002؛ حيث زعم التقرير أن حلفاء الولايات المتحدة المقربين قد حسنوا أداءهم بأعجوبة. وقد انتقدت مجموعات حقــوق الإنسان ومناهضة الرّقيق هــذا التقرير؛ لأن العوامل السياسية كان لها الأثر الواضح في المحاباة.

في حين يؤكّد تقرير عام 2009 أن التحيّز ذو تأثير قوي في عملية التقييم؛ فقد تراجعت سبع عشرة دولة إلى المستوى الثالث، منها: كوبا، وبورما، وكوريا الشمالية، والســودان، وزيمبابوي، وسوريا، وإيران. وقــد صادف أن علاقات الولايات المتحدة مــع هذه الــدول غير ودّية. وفي الوقت ذاته، نُفاجأ بدول ذات سجل مخزٍ في الاتّجار بالبشر، مثل: ألبانيا، ورومانيا، وصربيا، وروسيا، والهند، وإسرائيل، وتركيا، وتايلاند، لــم توضع في المستوى الثالث. وأن كثيراً من هذه الدول لا تظهر في قائمة المراقبة فــي المستوى الثاني، وهي فئة استحدثت في تقرير 2004. وتتأرجح الدول في قائمة المراقبة على حافة المستوى الثالث، ويتزايد لديها عدد ضحايا الاتّجار بالبشر، ولا تظهر أي تقدم للالتزام بالمقاييس الدنيا لتطبيق القانون.

وعلى الرغم من التطبيق المتحيز لتقرير الاتّجار بالبشر، فإنه يظل أداة مفيدة جدّاً؛ فكلما زادت الأدلة التي تجمعها مجموعات مناهضة الرق عن أداء دول معينة، ثم نشرها، زادت الصعوبة أمام وزارة الخارجية في تجميل أداء أي دولة بعينها. ولا جرم، فإن الهدف من كل ذلك هو إيجاد حوافز لاتخاذ إجراء حكومي ضد الاتّجار بالبشر.

ناديا؛ نهاية مفاجئة

عــدّت ناديا نفسها محظوظــة جدّاً لأنها لم تقضِ ســوى شهر واحد في مدينة شكودر الألبانية، حيث كان سماسرة الجنس الألبان يتبعون البنات في حركة دائمة.

وتقول ناديا: إنها قابلت في يوم واحد خمسة وعشرين زبوناً جاؤوا لممارسة الجنس معها مقابل أجر.

كان من السهل التعرف إلى أي فتاة أمضت عقوبة في شكودر لأكثر من ستة أشهر، لأنها ستبدو منهكة تماماً. ولو اعترضت أي فتاة أو اشتكت، فإن هؤلاء السماسرة سوف يعاملونها بقسوة شديدة. وحتى لو كانت مطيعة لهم تمام الطاعة، فإنهم قد يلكمونها من حين إلى آخر، أو قد يضعون سكيناً على حنجرتها لتذكيرها بعدم التمرد. وتقول ناديا: إنهم ضربوا فتاة في إحدى المرات بطريقة وحشية اضطروا على إثرها إلى إخراجها من بيت الدعارة؛ ومنذ ذاك الوقت لم تُشاهد بتاتاً.

كان خلاص ناديا في تقدّم عمرها، إذا عُدّت بعد بلوغها الثانية والعشرين أنها هرمة. في أحد الأيام، جاءها أكثر القوّادين خسّة وقال لها بسخرية: لقد بعناك للطليان، فهم يقبلون بالدجاجات المسنّة في روما، على ما أعتقد.

وفي الليلة اللاحقة، وجدت ناديا نفسها تجلس مرة أخرى في قارب مطاطي. ولكن حجمه كان يعادل أربع مرات حجم القارب الذي حملها إلى ألبانيا. تكوّم في القارب نحو أربعين راكباً من مختلف الأعمار، من بينهم أم كانت تحتضن طفلاً رضيعاً على إحدى ذراعيها، في حين جلس طفل دارج على ركبتها.

بعد ابتعاد القارب عن الشاطئ مسافة قصيرة، اهتاج البحر، فأخذ القارب يعلو ويهبط بهم بين الأمواج المتلاطمة. كان الركاب ينحنون على حافة القارب ليُتيعوا القيء فتصفح الأمواج وجوههم. أمّا الأطفال فكانوا يصرخون ويبكون في رعب شديد.

جلس اثنان من رجال العصابات في المقدمة يرقبان أي ضوء لقوارب خفر السواحل الإيطالية، في الوقت الذي كان فيه الربّان مشغولاً في الحفاظ على اتزان القارب وإبقائه على استقامة كي لا ينقلب أو ينحرف عن مساره.

ومع أن الظلام كان دامساً، فإن ناديا أبقت عينيها مغلقتين. حاولت استحضار صورة ابنها ستيفان، وعمّا يكون عليه حاله، فتساقطت الدموع على وجنتيها عندما اعترفت بينها وبين نفسها أنها لن تراه مرة أخرى.

وعندما فتحت عينيها، رأت أضواء تتلألأ عن بعد، فسألت الرجل الجالس أمامها: إيطاليا؟

أجل، إيطاليا، أجابها الرجل دون أن ينظر إليها.

فقدت ناديا عقلها للحظة، وأخذت تصرخ وتكرر: إيطاليا! إيطاليا! إيطاليا؟

رد عليها الرجل بغضب: اللعنة! لقد قلت لك! هذه إيطاليا أمامنا، كفى.

في عصر ذلك اليوم، قبل صعودها إلى القارب، سلّمها القوّاد الخسيس كيساً بلاستيكيّاً، وجدت في داخله جواز سفرها، وبعض النقود الإيطالية، وبطاقة صغيرة عليها كتابة غير واضحة.

عندما تصلين إلى الشاطئ بالغرب من سان فوكا، سوف تجدين مالكك في انتظارك، قال لها. ولكن في حال أنك ضللت طريقك لسبب أو لآخر، فقد أعطيتك رقم هاتفه وبعض النقود لتتصلي به. سوف يأخذك إلى روما حيث ستعملين هناك.

هزّت ناديا رأسها، ومع ذلك، أخرج الرجل مسدساً من حزامه وصوّبه إلى رأسها وقال: سوف نعثر عليك لو حاولت الهرب. لا يوجد أمامك مكان تختبئين فيه؛ فرجالنا ينتشرون على جانبي البحر.

تذكرّت ما قاله الرجل، لكنها وهي جاثمة في القارب الآن وجدت نفسها أمام مشكلة طارئة: أوقف الربّان محرك القارب على بعد نحو عشرين متراً من الشاطئ. وكان الألبانيان يصرخان ويطلبان إلى الركاب القفز من القارب قبل اكتشاف السلطات

التركية لهم. أخذ ركاب القارب بالقفز، أما الذين رفضوا فقد ألقاهم الرجلان في الماء رغماً عنهم.

قفزت ناديا إلى البحر، ووصل الماء إلى أنفها. ولكن الأمواج حملتها، ولم تعد قدماها تلامسان رمل قاع البحر، فابتعلت جرعات كبيرة من الماء المالح. لم تستسلم، بل طفت على سطح الماء، وتعثرت وشقت طريقها إلى الشاطئ. عندما وصلت، وجدت أمامها عدداً من الركاب الذين قذفتهم الأمواج يلتقطون أنفاسهم، ثم أخذ الجميع يبتعدون عن الشاطئ؛ خشية اكتشافهم.

اندست ناديا في صدع بين ثلاث صخور ضخمة، ونامت حتى الصباح، واستيقظت على صوت منبّه سيارة، وعندما أطلت برأسها رأت شارعاً لا يبعد عنها أكثر من خمسين متراً. أخذت تبحث في جيوب بنطالها عن الكيس البلاستيكي، وكم كان سرورها عندما وجدت أن الماء لم يتسرب إليه.

ظلت مكانها وهي تفكر في الخطوة القادمة، كانت تعرف المصير الذي ينتظرها إذا ما هاتفت المالك الجديد، وقررت أنها لن تعود إلى ذلك الجحيم مرة أخرى، وإذا كانت المافيا تريد قتلها: فليكن.

لم تكن لديها أي خطة، ولكنها أخذت تحثّ الخطا بحثاً عن شيء تأكله. وصلت إلى سان فوكا بعد مدة قصيرة، ودفعت نقود المكالمة الهاتفية لتشتري رغيفاً من مخبز صغير، أخذت تأكله بنهم. عندما عادت إلى الرصيف. اتكأت إلى حائط المخبز، وتركت أشعة الشمس الدافئة تمتص الارتعاش الذي أقلق نومها.

بعد أن ارتفعت الشمس قليلاً، أخذت صاحبة المخبز تدور حول المكان، فلاحظت أن ناديا لا تزال جالسة على الرصيف وظهرها إلى الحائط. أدركت المرأة من لقائهما السريع جهل ناديا باللغة الإيطالية، وعرفت من وضعها المزري أنها جاءت توّاً عبر البحر من ألبانيا.

رجينا باسيز؟ سألتها المرأة.

هزت ناديا كتفيها لتشير إلى أنها لم تفهم قولها.

رجينا باسيز؟ كررت المرأة وهي تنطق الكلمات ببطء. بادري تشيزاري؟

مرة أخرى نظرت إليها ناديا بعينين حائرتين. ابتسمت المرأة ثم أشارت إلى ناديا أن تنتظر على الرصيف. دخلت المرأة إلى المخبز واتصلت بالملجأ.

لم تعرف ناديا في تلك اللحظة أن رحلة عذابها قد وصلت إلى نهايتها. بعد سنوات، وبعد أن تزوجت رجلاً من القرية، وجاء ستيفان ليعيش معها في سان فوكا - كانت تمر بجانب حائط ذلك المخبز باسمة؛ ففي هذا المكان، أشرقت عليها الشمس بحرارة لتنتزع منها ارتعاشاتها كلها.

حملة ملاحقة تجارة الرّقيق في أوروبا

افتتحت حملة ليس للبيع Not For Sale Campaign عام 2010 مكتباً لها في بلدة هيرنهت في شرق ألمانيا، بالقرب من الحدود التشيكية البولندية، وهي منطقة إستراتيجية لتهريب الرّقيق الأبيض. وتجري الحملة مفاوضات لفتح مكتب ثانٍ في أمستردام، عاصمة هولندا. إنّ السبب في اختيار هذين الموقعين هو أن تجار الرّقيق الأبيض يجلبون إليهما الفتيات الشابات من أنحاء العالم كلّه - وفوق كل ذلك من الصين، وروسيا، والجمهوريات السوفيتية السابقة - لبيعهن في سوق الجنس.

كنت قد زرت مدينة كيشيناو عاصمة مولدوفا، في أواخر عام 2009، لمعرفة آخر التطورات في تجارة الجنس عبر أوروبا. وعندما قلت لبعض المواطنين المولدوفيين أن المحطة القادمة في رحلتي ستكون مدينة أمستردام، ردّ عدد منهم بسخرية: حسناً، سوف تقابل هناك كثيراً من نسائنا الجميلات.

وفــي الحقيقــة أنني وجدت في الأيام التي قضيتها فــي أمستردام سوقاً كاملة مخصصة للبضاعة البشرية من مولدوفا ودول أوروبا الشرقية.

إن هذا القبول الطبيعي للاستغـلال القانوني للنساء في أمستردام، والطريق السريع للجنس، والوجبات السريعة، هو مصدر عار على الأوروبيين كافة.

إنّ المهمــة الأولى لمكتب الحملة الأوروبي هي الاهتمام بتدريب الباحثين على كيفية تحديد الضحايا والناجيات في مناطق محددة وتوثيق حالاتهن، وإنشاء علاقات وثيقة مع وكالات تطبيق القانون للتدخل عند صدور الأوامر إليها بذلك. ولا شك في أن البيانــات الناتجة عن هذه التحقيقات سوف تكون مهمة جدّاً في الدعوة إلى سنّ قوانين مشدّدة لمحاكمة المهرّبين وتأمين الدعم للضحايا.



خامساً

إيواء الأطفال المشرّدين

البيرو

كثيراً ما يُؤخذ أحدنا بالأبطال مناجياً ذاته: أنا معجب بهم، ولكني لن أستطيع أن أكون مثلهم. وفي الحقيقة أن البطولة تبدأ عادة بعمل متواضع يفتح بوابة الدخول إلى عالمها الرائع.

كانت لوسي بورخا Lucy Borja ممّن عبروا تلك البوابة. حدث ذلك عام 1991 عندما أنقذت طفلَيْن مشرّدَيْن كانا خائفَيْن من المبيت على الرصيف في أحد شوارع مدينة ليما، عاصمة البيرو. سمعت لوسي أول مرة بوجود أطفال الشوارع، فأنشأت برنامج (الجيل) Generation؛ للوقاية من مرض نقص المناعة المكتسب - الإيدز. أخذت تزور السجون بحثاً عن الأحداث. روى لها الأطفال تجاربهم الشخصية مع حياة التشرد التي كانوا يتعرضون فيها إلى خطر العنف يومياً. واكتشفت أن عصابات الاتّجار بالبشر قد أحضرتهم إلى العاصمة من المناطق الريفية، وأن آخرين هربوا من بيوتهم من الفقر والإساءات الجنسية في منازلهم.

ومثل غيرهم من الأطفال المشرّدين في العالم، يعاني أطفال الشوارع في البيرو سلسلة لعنات متلاحقة منذ انفصالهم عن عائلاتهم نتيجة لصدمة ما. وعندما يغادرون بيوتهم، يصبحون فريسة سهلة للوحوش البشرية من الأنواع كافة، حيث تنصب عصابات الاتّجار بالبشر الشباك لاصطيادهم، أمّا الشرطة فتعاملهم بأنّهم

خارجون عن القانون، في حين ينظر إليهم المجتمع الراقي نظرة دونية. ولذلك، فهم يحملون على أجسادهم النحيلة وصمة الرفض أينما حلّوا وحيثما ارتحلوا.

أعلن الرئيس البرتو فوجيموري عام 1991 أن حكومته سوف (تنظّف) العاصمة من أطفال الشوارع. بعد هذا الإعلان بمدة قصيرة، وجدت جثث لأطفال عدّة ملقاة في الحدائق العامة، كما فُقد أطفال آخرون. أخبرها الأطفال أن رجال الشرطة كانوا يخوفونهم ويرعبونهم، وكانوا يصوبون مسدساتهم إلى رؤوسهم.

ولذلــك، عندما وجدت لوسي هذيــن الطفلين المذعورين، دعتهما للمبيت في مقــر برنامج الجيل، وطلبت إليهما إخبار الأطفال الآخرين أن بإمكانهم المبيت في المقــر أيضاً. كانت لوسي على موعــد لحضور حفل عائلي في تلك الليلة. لذا، طلبت إلى الحارس السماح بدخول أي طفل يأتي إلى المقر.

بعد انتهاء الحفل، ذهبت لوسي لتفقّد ضيوفها الصغار، وتمنت أن يكون الحارس قد نفّذ تعليماتها.

عندما وصلت لوسي إلى المقر، وجدت مفاجأة بانتظارها؛ أدارت المفتاح في قفل الباب ثم دفعته، لكن الباب لم ينفتح رغم محاولاتها، كما لو أن شيئاً ثقيلاً قد وُضع خلفه. وتمكنت أخيراً بمساعدة أولادها أن تحرك الباب قليلاً بقدر يسمح بمرورها.

كان المكان مظلماً، فأخذت تتحسس طريقها بحثاً عن مفتاح الكهرباء، فتعثّرت فيمــا حسبته سجادة مطوّيــة، لكنها استعادت توازنها، واتــكأت إلى الحائط، وظلت تتلمسه بأصابعها إلى أن اهتدت إلى مفتاح الكهرباء.

عندما أُشعل النور، نظرت إلى موضع قدميها، فرأت أطفالاً صغاراً عدة يتكومون على السجاد وقد التصقت أجسادهم بالباب. جالت ببصرها في المكان، ولم تصدّق عينيهــا: المــكان يعجّ بالأطفال حتى لم يعــد فيه موطئ قدم، بـل إن بعض الأطفال حشروا أنفسهم في خزانات الملفات.

كان عـدد الأولاد الذين وجدتهم نائمين في المقر في تلك الليلة أكثر من ست مئة طفل. لقد توافدوا جميعهم، بعد انتشار خبر وجود مكان آمن، كانتشار النار في الهشيم.

لـم تعرف لوسـي التفاصيـل كلها عـن الأسباب التـي أدت إلى إخافـة هؤلاء الأولاد والبنـات، ولكنهـا عرفت شيئاً آخـر، وهو أن حياتها لن تعـود كما كانت عليه مـن قبـل. لقد عرفـت الطريـق للدفاع عـن حقوق هـؤلاء الأطفـال. استمـر تدفق الأطفـال، وظلّـوا يأتـون كل ليلـة باحثين عن مـأوى. أدى هـذا التّدفّـق المتواصل إلـى تمـرد العامليـن فـي المقر، الذيـن لم يعـودوا قادرين علـى التعامـل مع هذه الأعـداد الغفيـرة، فقالـوا: إما نحـن، وإمـا الأطفـال. ردّت لوسي بهـدوء: حسناً، الأطفال.

الجنس في الشارع

فـي عـام 2004، كلفت منظمـة أنقذوا الأطفـال المعنية بحقـوق الأطفال، التـي تتخذ من السويـد مقراً لها، فريقاً من الصحفييـن الاستقصائيين بإجراء دراسة في البيرو تتناول الاتّجار بالأطفال لأغراض الجنس. كان هدف الدراسة أساسـاً هـو الباحثين عن المتعـة الجنسية لمعرفة مشاعـر البشر القادرين على انتهـاك حقـوق الأطفـال وتفكيرهـم.[1] لكنهـم وسّعوا مجـال بحثهـم، وأعدوا أفضـل تقرير عـن الاتّجار بالأطفال لأغراضـ الجنس فـي دولة واحدة من دول العالـم.

ونظراً لصعوبة جعل المجرمين يعترفون صراحة بسلوكهم غير القانوني؛ أنشأ الصحفيون مجلة وهمية لصور الأطفال الإباحية سمّوها (الجنس في الشارع) ونشروا إعلانات توظيف – إداريين، محامين، كتّاب، سواقين، حراس وغيرهم – في كبريات صحف البيرو.

وفي أثناء المقابلات، تحدّث المتقدمون للوظائف من الطبقات الاجتماعية جميعها عن خبراتهم في (صناعة) تجارة الأطفال للجنس، وعن فهم لاحتياجات السوق.

أعد الصحفيون تقريرهم النهائي تحت عنوان الزبون الخفي، ووصفوا فيه كيف تدير العصابات الاتّجار بالأطفال لأغراض الجنس في عموم البيرو. وينتهي المطاف بعدد كبير من هؤلاء الأطفال في شوارع ليما. ومما يدعو للأسف أن هؤلاء المحققين لم يجدوا سوى منظمات قليلة تعمل حالياً لإنقاذ الأطفال والمراهقين من سوق الجنس. إضافة إلى أن الحكومة لا تبذل جهداً لدمج هؤلاء اليافعين في ميدان العمل في البلاد [2]. ويثبت هذا التقرير أن منظمة الجيل تكافح وحدها - بمساعدة عدد قليل من المؤيدين - على جبهة إنقاذ الأطفال المُستغلّين جنسياً، وتطهير شوارع ليما من عصابات الاتّجار بالأطفال.

ساندرا: حياة تاجرة رقيق أبيض

ساندرا، لا تشبه الصورة النمطية للقواد الخطير. وقد وافقت على إجراء مقابلة معها مقابل حفّاظات لوليدها. وفي حين كان طفلها يرضع من ثدييها، حكت لنا ساندرا تجربتها المؤلمة التي ابتدأت من طفلة مشردة وانتهت إلى تاجرة جنس. لم تعرف ساندرا أباها مطلقاً، وربتها جدتها وأمها في ظروف بائسة. ثم طردتاها عندما أصبح عمرها ثماني سنوات، وقلن لها ألا تعود إلاّ إذا جمعت شيئاً من المال للمساهمة في نفقات المعيشة. نامت ساندرا في شوارع ليما الليالي، كانت خلالها تشعر برعب شديد. ولذلك، عادت إلى بيتها على أمل أن تكون أمها وجَدّتها قد اشتاقتا إليها، أو أنهما أعادتا النظر في إنذارهما لها بعدم العودة إلا إذا جمعت بعضاً من المال.

ولكن، ما إن دخلت البيت حتى عاجلتها جدتها بالسؤال: هل أحضرت معك أي نقود؟

لا يا جدتي، لم يقبل أحد أن يشغّل بنتاً عمرها ثماني سنوات. ردت عليها ساندرا وهي تبكي: ثم إن الوضع مخيف هناك.

لم ترحم الجدة دموعها، وقالت لها: لا تكوني طفلة. أنا وأمك لا نجد ما نقتات به.

ولكن يا جدتي الوضع خطير ....، لم تكمل ساندرا جملتها وإذ بصفعة شديدة على وجهها، وقالت الجدة مهددة: أخرجي الآن، ولا تعودي إلا ومعك نقود.

خرجت ساندرا باكية، تجرّ أذيال الخيبة، لا تدري إلى أين تذهب.

الأطفال ليسوا سلعة للدعارة

في معظم مدن العالم، يُجبر الأولاد والبنات الصغار على العمل في مهنة البغاء. وتستهدف عصابات الاتّجار بالبشر الأطفال من عمر اثني عشر إلى سبعة عشر عاماً؛ لأن طالبي المتعة الجنسية الذين يترددون على بيوت الدعارة يفضلون المراهقين على ما عداهم. وإذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر تجار الرّقيق، فإن المراهقين يعيشون حياة أطول ممن هم أكبر سناً. وإذا ما تقدموا في السن، فإنهم يبدؤون بفقدان جاذبيتهم، أما إذا كانوا أصغر سناً فإنهم سوف يثيرون انتباه سلطات تطبيق القانون.

ونظراً لأن الاتّجار بالجنس يختفي وراء قناع الدعارة، فإنه لا يثير سخط عامة الناس. وعليه، ينظر إلى الأطفال بأنهم مجرمون أو شذّاذ جنسيّاً. وفي أفضل الحالات، يعاملون بوصفهم ضحايا بيئاتهم البائسة التي تجعلهم يقررون بيع أجسادهم؛ من أجل تأمين لقمة عيشهم.

يختفي المجرمون الحقيقيون في الظل، وهم يندرجون تحت شبكة غير قانونية تضم: المهربين، والقوّادين، والمُجنّدين، وأصحاب بيوت الدعارة، وطالبي المتعة الجنسية الذين يستغلون الأطفال الضعفاء ويجبرونهم على ممارسة الجنس. لذا، فإن الرأي العام سوف يتحرك عندما تتكشف أمامه مكونات هذه الشبكة الإجرامية. ومن

المؤكد أن الأطفال لا يرغبون في تجربة الصدمة الناجمة عن انتهاك الرجال البالغين لأجسادهم عشرات المرات كل ليلة. فهذا ليس خيار الأطفال: إنّه الاغتصاب ليس إلّا.

ويجب ملاحظــة أن الآليات نفسها المخصوصة بالعبوديــة المالية والتخويف العنيف التي تؤدي إلى استرقاق الأطفال، تمارس أيضاً ضد النساء من الأعمار كافة. وهنــاك مومسات راشدات يروين حكايات مفزغة عــن كيفية حبسهن داخل خزائن مــن قبل القوادين، وجلدهن على باطن أقدامهــن، وإجبارهن على ممارسة الجنس مع أكبر عدد من الزبائن. إن القوّادين هؤلاء يرون المومسات بأنهن ملك مخصوص بهم. لذا، فإنهم يقاومون أي شخص يحاول حرمانهم هذه السلطة.

ومــا لا شك فيه أننا نحتاج إلى فهم مختلف لمعنى الدعارة. وفي هذا السياق، تشير كاترين كوهين، أحد مؤسسي مشروع بولاريس المناهض للعبودية في واشنطن، إلــى محادثــة أجرتها مع امرأة كورية في العشرينيّات من عمرها، شكت في أنها من ضحايــا تجارة الجنس. فعندما سألتها كاترين إن كانت قد أُجبرت على القدوم إلى الولايات المتحدة للعمل في سوق الجنس، نفت تلك المرأة ذلك بشدة.

قررت كاترين تغيير الاتجاه وصيغة السؤال: حسناً، على مقياس من صفر إلى مئة، إلى أي مدى تتحكمين في قراراتك اليومية لمواصلة بيع جسدك للرجال؟

ولأن المحادثة وصلت إلى هذا الحد من الصراحة، فقد كانت كاترين تتوقع أن يكون رد المرأة قريباً من 90%، ولكنها فكرت لثوانٍ قليلة وكان ردّها مفاجئاً: حسناً! يمكن أن أقول بحدود 5%.

ارتبكــت كاترين بعد هذا الجــواب، فحاولت الغوص أكثر في عقل تلك المرأة، وسألتها: لِمَ تشعرين بكل هذا الولاء لصاحبة بيت الدعارة الذي تعملين فيه؟

أجابت المرأة: لقد أخبرتني صاحبة بيت الدعارة أنها سوف تدفع كفالة مالية، وتدفــع أجــرة المحامي في حال القبض عليّ أو وقوعي فــي مشكلة. أنا لست من هنا

(أي الولايات المتحدة)، ويمكن لرجال الشرطة أن يسبّبوا لي مشكلات جمّة. ولهذا، فإنــي في حاجة إلى حماية. وكشفت المرأة الكورية أن صاحبة بيت الدعارة تحتفظ بمدخراتهــا جميعها. وإذا ما حاولت تــرك العمل، فلن تعطيها شيئاً من نقودها. أمّا القوّاد فيوفّر لها الحماية، مع أنه يهدد بضربها إذا ما حاولت الهروب.

هــل هذه المرأة مُسْتَعْبَــدَة؟ إن الأمر لا يحتاج إلى كثير من الذكاء للقول: إنها كذلــك، مع أنها، على أرض الواقع، ليست سجينة خلف القضبان. ومما يؤسف له أن المرأة ذاتها ترفض هذا التصنيف، فقد استكانت لمصيرها، ولم تعد ترى أن الإكراه قيد في معصميها.

لكن إجبار الأطفال على ممارسة الجنس التجاري يتضمن غموضاً أقل. تختلف العمليــة الحقيقية للاستعباد من مكان إلى آخــر. أما المتغير المستقل الأكثر تأثيراً فهو قوة سلطة تنفيذ القانون. وقد كشفت الدراسات التي أجريت في القارات الخمس نمطــاً موّحداً مقلقاً للتجارة بالأطفال، بصرف النظر ما إذا كان الأمر يتعلق بتورط شبــكات الجريمــة العالمية، أو كان الإكــراه يمارس على مستــوى إقليمي مع لاعبين خاصين. وتتضمن عملية الاستعباد خمسة عناصر منتظمة، هي:

التحديــد: غالباً ما تستهدف عصابات الاتّجــار بالبشر الأطفال من تجمعات تفتقر إلى سلطة اجتماعية، وبموافقة والدّيْ الضحية في بعض الأحيان.

الاختطاف: تنقل العصابات المُجنّدين من مجتمعاتهم المحلية وإبعادهم إلى مــكان يصعب فيه الحصول علــى مساعدة من سلطات تطبيق القانون أو المواطنين العاديين.

السيطــرة: تسيطر العصابات على جوانب حياة الطفل جميعها لدرجة يصبح معها التفكير في الهرب مُسْتَبْعَداً.

العنف: تمارس هذه العصابات العنف وسيلة لتعزيز السيطرة، وضمان طاعة الضحية والتزامها.

الاستغلال: في سعيها وراء المكاسب المالية، لا تعير هذه العصابات أي أهمية لصحة الطفل الجسدية أو النفسية.

لوسي بورخا: الأزمة المعتمة وأضواء المكاتب الساطعة

واصل أطفال الشوارع تدفقهم إلى ملجأ لوسي. وبعد وقوع حادث مؤلم في أحد ميادين المدينة، كان عليها أن تبحث عن رعاية طبية لثمانية عشر طفلاً أطلقت الشرطة النار عليهم. وجعلها هذا الحادث تفكر في عدم الاكتفاء بجعل مقر مشروع الجيل مجرّد مأوى للأطفال: لأنها كانت تهدف إلى جعل الأطفال يعيشون حياة طبيعية.

تمتلك لوسي موهبة مميّزة في التواصل مع اليافعين في الأزمات. وعلى الرغم من أنها كانت جدة في الستينيّات من عمرها، فإنها أقامت معهم علاقات إنسانية متينة، أكسبها ثقتهم. وكنت تراها محاطة بالأطفال في كل ساعة من ساعات النهار. ولم يكن يقلقها ضجيجهم ولا نشاطهم ولا حيويتهم، بل كانت تظل محتفظة بهدوئها، غير أنها كانت تبدي حزماً شديداً عندما يستدعي الأمر ذلك.

عندما استقرت المجموعة الأولى من الأطفال في ملجأ الجيل، وضعت لهم لوسي قاعدة سلوك عليهم الالتزام بها، وهي الإقامة في الملجأ والذهاب إلى المدرسة. لقد كان المراهقون يشتغلون في الصباح، ويحضرون الدروس بعد الظهر.

وبعد أن تعززت قاعدة لوسي، وجد سبعة أولاد تتراوح أعمارهم بين أربع عشرة إلى ست عشرة سنة - عملاً في صالون حلاقة. وبعد مضي شهر من عملهم بالصالون، سألتهم لوسي عن طبيعة عملهم، فأخبروها بأنهم ينظفون الصحون، ويغسلون المفارش والملاءات والمناشف. عندئذٍ، راودتها الشكوك: فصالون الحلاقة

لا يستلزم كل هذه الأعمال! اتصلت لوسي ببعض مصادرها، فاكتشفت أن هذا الصالون مجرد واجهة لأحد بيوت الدعارة، فطلبت إلى الأولاد ترك العمل فوراً.

في اليوم اللاحق، ذهب الأولاد إلى الصالون للمطالبة بأجورهم، وإبلاغ القائمين عليه نيتهم ترك العمل. عرضت عليهم النساء المشرفات على الصالون ممارسة الجنس مع البنات الصغيرات اللواتي يسيطرن عليهن مقابل أجورهم. كما عرضْن شريطاً مصوراً (فيلماً) إباحيّاً، وطلبن إلى الأولاد الذهاب إلى الغرف الخلفية واختيار ما يرغبون من مومسات. لكنهم رفضوا هذا العرض وأصروا على استلام أجورهم نقداً، أغلقت النساء أبواب الصالون، وهددنهم بعدم مغادرة المكان إلا بعد ممارسة الجنس مع البنات. شعر الأولاد بغضب شديد، فأخذوا يعبثون في محتويات المكان. اتصلت النّسوة بالشرطة وأبلغتهم بأن أطفال الشوارع يتلفون الممتلكات الخاصة. اعتقلت الشرطة الأولاد جميعهم، باستثناء واحد هرب من الشباك الخلفي، وعاد إلى مكتب الجيل ليبلغ لوسي بما حدث.

عندما ذهبت لوسي إلى مركز الشرطة، قال لها الضباط هناك بأن لا علم لهم بالحادث، مع أنهم في واقع الأمر كانوا يحتجزون الأولاد في إحدى الزنازين. أمام هذا الإنكار، لم تجد لوسي أمامها أي خيار سوى إبلاغ أحد قضاة المحكمة واسمها ريجينا شافيز المعروفة بنزاهتها. ذهبت القاضية إلى الصالون، فوجدت مكتبة من الأفلام الإباحية لأطفال قاصرين. كما عثرت على أدلة إضافية، ما زاد من اقتناعها أن هذا الصالون ما هو إلا ماخور دعارة.

بعد مرور ساعات قليلة من انتهاء القاضية من تحقيقاتها، جاءت الشرطة إلى مقر الجيل؛ لاعتقال لوسي بتهمة انتهاك حرمة أملاك الآخرين، وانتحال شخصية أحد القضاة. عندما علمت القاضية بالأمر، اتصلت بالشرطة وأبلغتهم بأنها هي التي دخلت الصالون وليس لوسي.

كشفت التحقيقات اللاحقة الأسباب التي دعت الشرطة إلى هذا التصرف؛ لقد تبين أن الصالون يقع مقابل بناية تضم عدة وكالات حكومية مباشرة، وفيها مقر قيادة شرطة العاصمة، وكان كثير من الزبائن يأتون إلى بيت الدعارة من هذه المكاتب.

أخذت لوسي تحلّ اللغز شيئاً فشيئاً، وأدركت أن المجرمين الذين يستغلون الأطفال في البيرو لا يتسكعون فقط في الأزقة المظلمة، بل يجلسون أيضاً خلف مكاتبهم الوثيرة، وفي أحضان وقار السلطة ونفوذها.

الاتّجار بالأطفال؛ التحديد والاختطاف

يتحاشى المتاجرون بالبشر اختطاف الأطفال من أحياء تتمتع بسلطة اجتماعية، إلا في حالات نادرة؛ لأن الإقدام على مثل هذا العمل تكتنفه أخطار كبيرة. وفي حال اختطاف طفل لعائلة من جماعة ذات نفوذ، فإن هذه العائلة سوف تستنفر السلطات القانونية والسياسية لإطلاق عملية بحث شاملة عن الطفل المخطوف. وفي حال القبض عليهم، فمن المحتمل جدّاً أن يُقدّموا إلى المحاكمة ومن ثمّ يعرضون عملياتهم برمّتها إلى الخطر. لذلك، فإن عصابات الاتّجار بالبشر ليست مضطرة للدخول في هذه المخاطرة؛ فلديها خيارات كثيرة في الأحياء الفقيرة.

يضاف إلى ذلك أن المتاجرين بالبشر يستطيعون خداع العائلات الفقيرة بكل سهولة؛ من خلال الوعود المعسولة بحياة أفضل. فمثلاً، الوعد بالحصول على عمل دائم إغراء ربما يجعل أولياء الأمور يتغاضون عن الأخطار المرتبطة بإرسال طفلهم إلى مكان بعيد. وقد يعد المتاجرون بالبشر البنات المراهقات بالحصول على وظيفة عارضة أزياء في بلد آخر، أو على عمل في مطعم أو متجر يدر عليهن دخلاً وفيراً. وغالباً ما يُقال لأولياء الأمور في المناطق الريفية: إنّ هناك عائلات ثريّة في المدن في حاجة إلى جليسات أطفال أو عاملات منازل. ولا جَرَم، فإن هؤلاء المتاجرين لا يلتزمون بهذه الوعود، بل يزينونها لأولياء الأمور من أجل انتزاع فلذات أكبادهم من

أحضانهـم. وعندما ينجحون في ذلك، فإنهم يبيعـون الطفل أو الطفلة إلى صاحب بيـت دعارة عند أول فرصـة متاحة. فلعبتهم إذن في خداع العائلات الفقيرة وبيعها وَهْم الخلاص من ظروفها الاقتصادية الصعبة.

وبهذا الخصوص، فإن العائـلات من الطبقة الوسطى الدنيا ذات الطموحات الكبيـرة تكون عرضة للوقوع ضحية هـذه العصابات. مثل معظم العائلات الفقيرة؛ فالانتقال من هذه الطبقة إلى طبقة أرقى إغراء لا يُقاوم.

وربما تبدو الصورة أكثر وضوحاً من حالة (لان)، وهي فتاة لاوسيّة تبلغ من العمر سبع عشرة عاماً، وتعيش في بانكوك. هاجرت (لان) مع والدتها واثنين من أشقائها، ولمّا يبلغوا من العمر عشر سنوات بعد. عملت الأم وأطفالها في إحدى الأسواق المحلية معـاً. ومرت السنون، واستطاعـت العائلة التخلص من فقرها المدقع. وتعمل (لان) حاليّـاً مضيفـة في فندق سياحي فاخر في بانكوك، وتمتلـك سيارة مخصوصة بها، وخزانة تغصّ بأحدث الأزياء الغربية.

وصلت (لان) إلى ما وصلت إليه بعد أن ذاقت طعم الرفاهية. ما جعلها تطمح إلـى أسلوب حياة أكثر إغراء. كانـت أفضل صديقاتها قد التقت رجلاً أمريكيّاً يزور بانكـوك في رحلة عمل، وصـار بعد ذلك يبعث إليها بتذكرة طائـرة لتلتقيه في أحد المنتجعـات السياحية. وفي إحدى المرات، دعا ذلـك الأمريكي (لان) وأرسل إليها تذكرة طائرة. وعلى الرغم من انتشار تجارة الجنس في تايلاند. فإنها لم تشك في أن هناك خطورة من وراء هذه الدعوة. ولأنها في الحقيقة تطمح في التعرف إلى صديق يقدم لها الهدايا والرحلات مثلما هو الحال مع صديقتها، فلن يمضي وقت طويل حتى تجد نفسها في شَرَكِ إحدى عصابات الاتّجار بالبشر، ما لم تغيّر تفكيرها الساذج.

ويقول المناهضون لتجارة الجنس حول العالم في تقاريرهم: إن الآباء يبيعون أطفالهـم أحياناً؛ ليتمكنوا من صيانة بيوتهم وتحسينها، أو لشراء سيارة أو أي مادة استهلاكيـة أخرى. وتتوافق هـذه التقارير مع الخبر الذي نشرتـه صحيفة نيويورك

تايمـز، الذي جاء فيـه أن أبوين ألبانيين باعا أطفالهمـا لعصابات الاتّجار بالبشر؛ لشراء جهاز تلفاز ملوّن[3].

وفـي الأحوال كلها، عادة ما يرغب المتاجـرون بالأطفال لأغراض الجنس في نقـل الأطفال من منطقـة سكناهم بأقصى سرعة ممكنـة، وبخاصة إذا كان الطفل مخطوفاً؛ خوفاً من إلقاء القبض عليهم. وحتى لو لم يحرك والدا الطفل المخطوف ساكناً، فباستطاعة أي قريـب أو صديق راشد أن يطالب بإطلاق سراحه، والضغط على الشرطة من أجل تحريره.

أمـا الأطفـال أو البنات الذين لا هويـة لهم، الذين يحملـون وصمة طفل شاذّ فربمـا لن يجدوا من يدافع عنهـم. إضافة إلى أن الأطفال الغرباء لا بواكي لهم، ولا يثيـرون أي تعاطف مثلما قد يثيره الأطفال الذين ينتمون إلى جنسية أو عرق غالبية السكان. ولهذا السبب، يلجأ المهرّبون إلى نقل الأطفال المُسْتَعْبدين إلى أبعد منطقة في البلاد، أو إلى الخارج.

وبهذا الخصوص، اكتشف محققو منظمة (أنقذوا الأطفال) Save the Chil-dren أن الشرطـة لا تهتم بالأطفال المهرّبين من المناطق الريفية. وجاء في تقرير المحققين: من المقلق جدّاً رؤيـة الحصانة التي تحمى شبكات الاتّجار بالقاصرين فـي ليما، التـي تعمل على مرأى ومسمع السلطات التي لا تحرك ساكناً، بل حتى إنها لا تعدّ الأطفال والمراهقين بشراً في حاجة إلى حماية[4].

وتوضح قضية الطفلة جواديلوب البالغة من العمر تسع سنوات إحدى القضايا غيـر العادية التي قد يعمل فيها أحـد الوالدين مع أحد المتاجرين بالبشر بوصفهما حليفين.

كانت والدة الطفلة قد توصلت إلى اتفاق مالي مع أحد القوّادين لتوظيف ابنتها. في بداية الأمر، عادة ما يستخدم المهربون البنات القاصرات طمعاً في جذب الزبائن.

وعندما يرى أحد طالبي المتعة الطفلة في الشارع، ويتوقف ليسألها إن كانت جاهزة للعمل، يأتي دور القوّاد الذي يحضر بنتاً صغيرة أكبر عمراً وأكثر تجربة. لكن تمثيلية الطعم وتبادل الأدوار لا تدوم طويلاً، وبخاصة بعدما يكون القوّاد قد جمع مبلغاً كبيراً من وراء بيع البنت الصغيرة عذراء مرات عدة.

لحسن الحظ أن جواديلوب التقت في الشارع أحد مستشاري مركز الجيل قبل أن تتاح للقوّاد فرصة بيعها على أنها عذراء، حيث أخذها المستشار إلى أحد ملاجئ الجيل مشددة الحراسة، ولم يستطع القوّاد الاقتراب منها. بعدما علمت الأم بالأمر، حضرت إلى مقر المنظمة، وطالبت باسترجاع ابنتها، لكن المنظمة رفضت تسليمها إياها لأنها تعرف المصير الذي ينتظر الطفلة في حال تسليمها لأمها.

إن مركز الجيل أو أي هيئة تعنى بخدمة الطفل لا ترغب في الدخول في صراع مع الآباء عمّا هو الأفضل لمصلحة أطفالهم، ولكنّ معارضي الرّقيق مضطرون للتعامل مع الحقيقة المؤلمة، وهي أن هناك بعض الآباء الذين لم يتوصلوا بعد إلى قناعة تامة بأن الطفل؛ أي طفل، ليس للبيع.

ساندرا: الجنائنيّة

بعد أن طردتها جدّتها، هامت ساندرا على وجهها في الشوارع، والتقت أخيراً بمجموعة من الأطفال الذين يشاركونها المصير نفسه. كانوا يسافرون في مجموعات للشعور بشيء من الأمان. ولكن بعد أن هدد رجال الشرطة في إحدى الليالي بمحوِ مجموعة أصدقائها من الوجود، عثرت لأول مرة على ملجأ الجيل الذي صار بيتها لسبع سنوات قادمة.

لم يكن أي واحد من أصدقاء ساندرا يفكر في العودة إلى عائلته بعد أن تقطعت بهم السبل، لكن ساندرا ظلت تتمنى أن تثبت نفسها، وأن تعود لتعيش مع أمها وجدتها.

أخذ مركز الجيل بالبحث عن وظائف للأطفال الذين يرعاهم. وبعد أن لاحظت لوسي أن الحدائق العامة في العاصمة مهملة، اقترحت على المسؤولين في المدينة الاستعانة بأطفال المنظمة للعناية بها. أطلقت لوسي على هذا المشروع اسم (شركة تصميم الحدائق) لتفتح الباب للتطور مستقبلاً بحيث يستطيع الأطفال بعد تحسين مهاراتهم تقديم خدمات تصميم الحدائق على نطاق واسع.

كان عمر ساندرا اثنا عشر عاماً، وكانت أول طفلة تلتحق بعمل البستنة، ولكنها بعد أسبوعين من العمل ذهبت إلى المقاول وطلبت إليه أجرها. أبلغها المقاول بأنه سيدفع لها أجرها في نهاية الشهر مع بقية الأطفال. لم ترض ساندرا بهذا الجواب، فألقت بمشط البستان وتركت العمل.

حكّ المقاول رأسه مستهجنا تصرّفَ هذه الطفلة المتشوقة إلى الإمساك بالنقود.

خطر اللعب مع الكبار

ينظر كثيرون إلى لوسي بورخا بأنها من أكثر الشخصيات المثيرة للجدل في البيرو. وقد وُجِّه إليها أكثر من عشرين اتهاماً في المحاكم، من ضمنها اتهامات بخطف الأطفال، وتقديم إفادة كاذبة للشرطة، والتصرف ضد المصلحة العامة. ولا يكاد يمر يوم دون أن تدلي شخصية سياسية بتعليق عنها في نشرات الأخبار.

وما يميز هذه المرأة أنها تتمتع بعاطفة رقيقة، ولا تحب الجدال ولا المشاكسة، وهي صادقة في كل ما تقوله، وعما يدور حولها، ما جعل لها أعداء كثيرين في البيرو. وهناك أمثلة كثيرة على صراحة هذه المرأة التي أوقعتها في مشكلات عدّة؛ ففي عيد الأم عام 1992، تلقت لوسي دعوة للمشاركة في مؤتمر صحفي في سجن الأحداث، إلى جانب زوجة الرئيس فوجيموري وآنا كانا شيرو، مديرة رفاه الأطفال. في بداية المؤتمر الصحفي، أعلنت كانا شيرو باعتزاز أن الحكومة خصصت خمسة ملايين

دولار لحل مشكلة أطفال الشوارع. كان المؤتمر الصحفي يُنقل على الهواء مباشرة، فلم تضيع لوسي فرصة توضيح الرمزية وراء هذا الإعلان في سجن الأحداث.

عندما تحولت عدسة التلفاز إليها، اقترحت مؤسسة مركز (الجيل) توظيف الأموال العامة لبناء ملاجئ صحيَّة بدلاً من استخدامها في معاقبة الأطفال المستغلين وسجنهم. وفي حين تساء معاملة الأطفال في السجون، فإن أطفال ملجأ الجيل - في المقابل- يلتحقون بالمدارس التي يطوّرون فيها مهارات جديدة تساعدهم على شقّ طريقهم في الحياة.

أحست كانا شيرو بغضب شديد من الاستخفاف بها، ومنذ ذلك اليوم، منعت لوسي من زيارة سجن الأحداث، ومن تقديم دروس عن مرض ضعف المناعة المكتسب - الإيدز- في المدارس الحكومية. وقد انبرت صديقة لها في البرلمان للدفاع عنها، فوزعت على محطات التلفاز مقابلات مصورة للأطفال، يتحدثون فيها عن سوء المعاملة داخل سجن الأحداث، والتهم الملفّقة التي وجهت إليهم وأدت إلى سجنهم. شاهد هذه المقابلات أحد الشخصيات التلفازية المعروفة ويدعى خوان كارلوس، فأنتج سلسلة من التقارير المتعلقة بمعاناة الأطفال المشرّدين في العاصمة ليما[5].

وقد سُرّت لوسي لاهتمام شخصية إعلامية مرموقة بقضية هؤلاء الأطفال، فدعته لتصوير قصة حياة ثلاثة منهم كانوا يعيشون في الملجأ. خصص كارلوس وقتاً كافياً لمقابلة هؤلاء الأطفال وتصوير أنشطتهم اليومية. بعد ذلك، أخذ يتعمق في العالم السفلي لحياة التّشرّد. صوّر كارلوس قصة أليسا؛ الطفلة التي كانت ترتدي ملابس الرجال طوال سنوات كي لا تتعرض للاغتصاب. وقد عرضت أفلامه الوثائقية على التلفاز المحلي، وحصلت على تقدير عالٍ داخل البيرو وخارجها، وفازت بجائزة من منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة - اليونسكو.

لكن لوسي لم تستمتع بمشاهدة هذه التقارير الوثائقية. فعندما كان كارلوس على وشك إنهاء تصوير برنامجه، تخلى الأطفال عنها لإدخالها كارلوس في حياتهم.

وكشفوا أن كارلوس أعطاهم المخدرات ومن ثمّ اغتصبهم. كان أحد المشاهد يظهر أطفال الشوارع وهم يتعاطون المخدرات والكحول عند أحد أماكن التجمع المعروفة في العاصمة. وقال الأولاد: إن كارلوس في واقع الأمر هو الذي اشترى المخدرات ووزعها عليهم قبل بدء عملية التصوير. وكانت هذه المرة الأولى التي يتعاطى كثيرون منهم المخدرات.

وذكر الأطفال أيضاً أن كارلوس استغل أيضاً علاقته مع أليسا، ودفع لها نقوداً لتجلب أطفالاً إلى بيته لممارسة الجنس معهم، بل وأرغمها على اصطحاب هؤلاء الأطفال إلى بيوت أصدقائه أيضاً.

عندما تنظر لوسي إلى الوراء، يعتصرها حزن شديد للفِعل الدّنيء الذي قام به كارلوس في الترويج لتجارة الرّقيق في ليما. فقبل تصوير تلك البرامج الوثائقية، كانت تجارة ممارسة الجنس مع الأطفال انتهازية إلى حدّ ما؛ إذ قد يعثر أحد البالغين على طفل في وضع بائس، فيغريه أو يغريها على ممارسة الجنس بأجر. لكن كارلوس طبّق أسلوباً منظماً للاتجار بالبشر. فعلى سبيل المثال، بدأت أليسا بتوريط الأطفال في تجارة الجنس بإلحاح منه، فأصبحت من أكثر القوّادين سيئي السمعة في البلاد. وعلى الرغم من كل ما قام به، فإن محاولات لوسي لتقديمه إلى العدالة باءت بالفشل جميعها، فقد رفضت المحاكم إدانة هذه الشخصية المعروفة بناء على شهادات الأطفال. ولكن لوسي لم تيأس، فأبلغت الشرطة بأنشطته الإجرامية وحثتها على التحقيق معه.

وفي رد انتقامي لا أخلاقي، أنتج كارلوس تقريراً إخباريّاً مصوراً عن مركز الجيل بعنوان (بيت الدعارة) حيث يُصاب الأطفال هناك بمرض الإيدز. لكن هجومه على الملجأ أدى إلى نتائج عكسية. فقد أمر أحد القضاة بإجراء كشف على نزلاء الملجأ جميعهم، ولم يجد حالة إصابة واحدة.

وفـــي الحقيقة أن الأطفـــال قلبوا الطاولة على كارلوســ، وشهدوا على جرائمه الجنسية مع القاصرين. وخشية من إلقاء القبض عليه، فر كارلوس إلى خارج البلاد، وعمـل صحفيّاً في الولايات المتحدة سنوات عـدّة. وبعد مدة من السنوات، عاد إلى البيرو وواصل عمله التلفازي بنجاح.

الاتّجار بالأطفال؛ السيطرة والعنف

عندما يقتلع المتاجرون بالبشر الضحايا من مناطقهم، فإنهم عادة ما يبيعون الأطفـال لتجـار العبيـد المتعاملين في تجارة الجنسـ، مثل القوّاديـن، أو أصحاب نـوادي التعـرّي، وصالونـات الجنس، وبيـوت الدعـارة، أو نوادي الغنـاء، أو معاهد التدليـك. ويرتبط معظم تجار الرّقيق بعلاقات قوية مع تجار الجنس، ولهذا، فإنهم يعرفـون مـن سيكون البائع قبـل اصطياد الطفـل. ومع أن من النـادر حدوث ذلك، فـإن بعض المهربين يعملون علـى اصطياد الأطفال وتشغيلهـم بالتجزئة لحسابهم الشخصي.

يتصـرف تاجـر الرّقيق بسرعة لإحـكام السيطرة الكاملة علـى حياة الطفل، فيصـادر منه الوثائق التي تكون بحوزته كلهـا، مثل جواز السفر، أو شهادة الميلاد، أو بطاقـة الهوية وغيرها. وعندما لا يكون الطفل برفقـة زبون أو شخص آخر، فإنه يوضـع تحت حمايـة مشـددة، ويُسجن في غرفـة محكمة الإغلاق. وحتـى لو تمكن الطفـل مـن الهرب، فلن يكون بحوزته أي نقود، إضافـة إلى أنه قد لا يجيد التحدث باللغة المحلية، ولا يعرف أي مكان يذهب إليه لطلب المساعدة. وبناء على خبراتهم السابقة، فإن الأطفال المُستَعَبدين لا يثقون بالمسؤولين الحكوميين أو رجال الشرطة؛ لفسادهم.

إن تاجر الرّقيق عموماً ما يبقي الطفل معتمداً عليه ماليّاً؛ حيث يسجل على حسابه نفقات ضرورات الحياة مثل المأكل والمسكن والملبس. وسيظل الطفل مجبراً على الاستمرار في خدمة مالكه إلى أن يسدّد المبلغ المُستحقّ عليه.

ويدعم تجار الرّقيق هذه القيود الاجتماعية بالتهديد المتواصل باستخدام العنف. ويفيد معظم الأطفال المُهرَّبين: إنهم تعرضوا إلى عنف شديد في أول يومين من اختطافهم؛ بالضرب أو الاغتصاب. ويلتزم المتاجرون بالبشر بقاعدة تشير إلى أن الخوف يولد الطاعة. ولذلك، فإنهم يبقون الطفل في حالة خوف دائم.

ومثلما كان رعاة البقر يحطّمون نفسية الحصان البرّي، فكذلك يتعامل تاجر الرّقيق مع أطفال الجنس الذين سوف يتعلمون كيفية تلبية رغبات الزبائن، والقيام بأي حركات جنسية يريدونها. وسوف يؤدي استخدام العنف منذ البداية إلى وأد أي استعداد للمقاومة عند الطفل. وسوف يتعرض الطفل أو الجارية المُسْتَعْبدة لغايات الجنس إلى عقاب وحشي وسريع إذا ما اشتكى الزبون من أن تصرف الطفل أو الطفلة لم يكن مُرضياً.

يصبح التهديد بالعنف ديدن حياة العبودية الجنسية. ويعرف الطفل أن أي محاولة فرار فاشلة ستؤدي إلى عقاب بدني قاسٍ. وإضافة إلى ذلك، فإن تاجر الرّقيق قد يهدد بإيذاء عائلة الطفل حتى لو فشل في محاولة هروبه. ولتذكير الطفل بهذه الحقيقة، قد يذكر التاجر أمام الطفل بعض الأخبار، سواء الكاذبة المقلقة أو الصحيحة، عن أفراد عائلته، وكأنما يقول له: أنا أراقبهم وأعرف آخر أخبارهم، فلا تحاول القيام بأي عمل غبي.

تروي دينا ذات الست عشرة ربيعاً، التي كانت تقيم في ملجأ الجيل: إنها بقيت تحت سيطرة أحد القوّادين لأربع سنوات بسبب خوفها على سلامة عائلتها.

كان لها ثلاث شقيقات وشقيق واحد أصغر منها سنّاً، وقد هددها ذلك القوّاد بأنه سوف يلاحقهم ويجعلهم يشتغلون لديه بدلاً منها إنْ حاولت الفرار. وكان يقول لها من حين إلى آخر: اسمعي! لقد رأيت أختك تركب الحافلة بعد الظهر. لقد ذهلت. إنها تكبر بسرعة، إنها جميلة مثلك.

كثيراً ما كانت دينا تصحو من نومها كل صباح، وتقول لنفسها: إنها لن تبقى يوماً واحداً في هذا الجحيم. ولكن عندما تتذكر شقيقاتها، كانت تعزّي نفسها، وتتجلّد على عذاباتها.

ساندرا: احتراف القوادة لكسب عيشها

بعدما ورّط خوان كارلوس أليسا في عالم الرذيلة، استطاعت مع الوقت أن تحوّل هذه المهنة إلى تجارة رابحة، من خلال تدريب شبكة من سماسرة الفاحشة الذين كانوا يعملون وكلاء لها في الشوارع.

وقد أقنعت أليسا، التي كانت تتخفي بزي الرجال كي لا تُغتصب، تاجرة الرّقيق ساندرا أن باستطاعتها جمع أطنان من النقود من وراء التجارة بالأطفال الصغار. واتفقتا على اقتسام الأرباح من بيع الأطفال عبيد جنس. أما شريكهما المالي الثالث، فكان يأتي بأي امرأة تقوم بدور الأم لتبيت عندها الطفلة، وهي غالباً ما تدير فندقاً، أو تملك مسكناً مخصوصاً بها.

وسُرعان ما اكتسبت ساندرا التي كان عمرها خمسة عشر عاماً، آنذاك، سمعة بأنها من أشرس القوّادين في الشارع. كان أسلوبها في استقطاب عبيد الجنس بسيطاً؛ إذا رأت طفلاً يسير في الشارع وحيداً، في الليل أو النهار، كانت تهاتف أحد سوّاقي سيارات الأجرة الذين كانوا أعضاء في شبكة الاتّجار بالبشر. وبعد إبلاغ السائق بموقعها الصحيح، كانت تتذرع بأي سبب لبدء محادثة مع الطفل. وفي اللحظة التي تصل فيها السيارة إلى المكان، كانت تجذب الطفل وتدفعه إلى داخل السيارة،

مستخدمة العنف إذا استدعى الأمر ذلك. كان السواقون يغتصبون البنات العذارى في بعض الحالات، أو يبيعون عذريتهن إلى طالبي المتعة الجنسية.

كان السواقون يعيدون البنات الصغيرات إلى ساندرا بعد اغتصابهن. بعد أن تُعطى الضحية دولاراً أو دولارين مقابل المعاشرة. وحالما تنزل الطفلة المصدومة من السيارة، كانت ساندرا تبدأ عملية الضغط النفسي، كأن تقول لها: والآن، وبعد أن فقدت عذريتك، باستطاعتك أن تجني مالاً كثيراً من عملك معي. عليك أن تواجهي الواقع، فأنت الآن متشرّدة.

في هذا الوقت، تكون الطفلة تائهة ومصدومة. عندئذ، تسلّمها إلى الأم المزيفة التي تبدو للطفلة في لقائهما الأول مثالاً للحب والحنان، فتقدم لها مأوى آمناً ووجبة ساخنة، وملابس جديدة في بعض الأحيان. ومن شأن مشاعر التعاطف هذه أن تجعل الطفلة تشعر أنها مدينة لتلك المرأة، فتصبح من حيث لا تدرك غارقة في مستنقع الرذيلة.

لوسي بورخا: توسيع العائلة

قد نجافي الدقة لو قلنا: إن مركز الجيل عبارة عن وكالة، أو دار أيتام، أو ملجأ، فهو في الحقيقة لا يمارس هذه الأدوار المهمة لمن يأتي اليه طلباً للمساعدة، ولكن أيّاً من هذه التسميات لا يعكس معنى العائلة الممتدة التي تميّز المكان.

تبدأ هذه العائلة من لوسي التي تقيم علاقة ارتباط شخصية مع كل طفل أو طفلة تدخل المكان. وإذا ما ذكر اسم أحد الساكنين أمامها، كانت تسرد: تاريخه، وعاداته، وهواياته، ونقاط ضعفه وقوته.

يشارك لوسي في رعاية هذه العائلة الكبيرة زوجها خوان إنريك الذي أنشأ برامج دراسات عليا في حقوق الطفل في الجامعات الكبرى، وأولادها الخمسة.

ولا تقتصر مهمة المركز على إنقاذ الأطفال وتوفير المأوى الآمن لهم فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تعليمهم وتسليحهم بالمهارات المهنية الضرورية التي تساعدهم على إعالة أنفسهم عندما يكبرون.

ويشرف المركز على برنامج لرياضة ركوب الأمواج، ويشارك فيه أطفال الملجأ الذين يقومون بدورهم بإغراء أطفال الشوارع للانضمام إليهم.

لقد تحوّل هذا المشروع الإنساني إلى قصة نجاح رائعة على الرغم من التدخلات الكثيـرة من الحكومة وعلى مدى عقدين من الزمـن، وعبر بوابة المركز خرج منها آلاف الأطفال الصغار. كانت لوسي الأم لهم: تغفر لهم أخطاءهم، وتتسامح معهم، وكانت تحزن كثيراً إذا ما ذُكِر اسم ساندرا أمامها. كانت تعرف جيداً ما حدث للبنت الصغيرة التي جـاءت إلى الملجأ أول مرة وعمرها ثماني سنوات. والمفارقة هي أن لوسي تجاهد لإنقاذ الأطفال الذين تحاول ساندرا تحويلهم إلى عبيد للجنس، وتتمنى في الوقت ذاته أنه سيأتي عليها اليوم الذي تعود فيه إلى رشدها.

الاتّجار بالأطفال: صناعة الاستغلال

تستحضر الفكرة التقليدية عن البغاء صورة زبون يدفع مالاً لفرد بعينه مقابل ممارسة الجنس معه. ويرغب معظم طالبي المتعة في أن تظل هذه الفكرة الضبابية هـي السائدة؛ لأنهم لا يحبّون أن يفكـروا في شريكهم في هذه العملية على أنه رقيق لغايـات الجنس. ويقول تقرير لمحققـي منظمة (أنقذوا الأطفـال): يزعم العملاء إنـه؛ نظراً لعدم استخدامهـم العنف لإجبار قاصر على ممارسـة الجنس، فإنهم لا ينتهكون حقـوق القاصر الإنسانية. وعليه، فإن الأطفـال والمراهقين ليسوا ضحايا للاستغلال الجنسي[7].

وبناء على هذا المفهوم، لا يدرك معظم الناس أن النساء والأطفال الذين يبيعون أجسادهـم لغايات الجنس نادراً ما يفعلون ذلك بإرادتهم. ثم إن الفكرة ليست بهذه

البساطة، إذ تمتد خيوط صناعة الجنس لأبعد من ذلك؛ لأن اقتصاداً خفيّاً كاملاً يقوم على هذه البضاعة. وسواء كانت هذه التجارة في ميونيخ أو فنوم بنه أو ليما، فإن قطاعات اقتصادية شبيهة تستفيد من استغلال البشر.

ويمكن تقريب الفكرة أكثر إلى الأذهان، من خلال مقارنة تجارة البغاء بعقد المؤتمرات؛ ففي الحالة الثانية، تعين المدن الكبرى كثيراً من الموظفين لإقناع الاتحادات العمالية، أو الجمعيات المهنية لتنظيم مؤتمراتها السنوية، أو أي فعاليات رئيسة في هذه المدن. وفي حال الموافقة، فلن تقتصر الفائدة فقط من هذا العرض على قاعات مؤتمرات المدينة، بل ستمتد إلى الفنادق، والمطاعم، والنوادي الليلية، وسيارات الأجرة، والمطارات، وغيرها. وبعبارة أخرى. فإن عقد أي مؤتمر رئيس في مدينة ما يحدث نشاطاً ماليّاً في القطاع التجاري للمدينة كلّه.

وبطريقة مماثلة، فإن نمو صناعة الجنس في مدينة مثل ليما، يعود بالفائدة على أطراف كثيرة، ولكن معظم الأموال تذهب إلى قنوات سرية. ويمكن القول إن عدداً كبيراً من فنادق ليما ما كانت لتستمر بالعمل في غياب تجارة الجنس. وبالإمكان أيضاً ملاحظة الترابط المالي الذي توجده تجارة الجنس عند تجزئته إلى مستويات أدنى. فمثلاً، يمكن أن تجلب طفلة واحدة جرى تهريبها إلى ليما ثروة مالية لصاحب الفندق التي تقيم فيه الطفلة. وأن المطاعم، والمحال التجارية الموجودة في محيط الفندق سوف تستفيد من تردد عشرة من طالبي المتعة على الفندق؛ لأن أصحاب هذه المحال يتوصلون في الحقيقة إلى صفقات من عبيد الجنس لاصطحاب طالبي المتعة الجنسية إلى محالهم مقابل تناول وجبة مجانية. وإذا ما ضربت هذه العلاقات والارتباطات في آلاف المرات، فسوف تتضح أمامك صورة هذه التجارة الرابحة جلية.

أما الأفراد الوحيدون الذين لا يجنون أي مكاسب مالية من صناعة الجنس فهم الذين تقوم على عذاباتهم شبكة هذه الصناعة بأكملها؛ إنهم الرّقيق.

ساندرا: طريق العودة الطويل

ساندرا، آخر إنسان في العالم يتوقع العاملون في مركز الجيل رؤيته يدق باب ملجأهم. دخلت ساندرا وهي تمسك بيد طفلة تبلغ من العمر ثماني سنوات. كان وجه الطفلة مغطى بالدم، وأطرافها مغطاة بالسحجات والكدمات. تقدمت ساندرا إلى مدير المركز قائلة: أرجوكم إنقاذ هذه الطفلة، فقد آذاها أحد الزبائن، ولا يمكنها العيش في الشوارع ليوم آخر. وعندما وافق المدير على إيواء الطفلة، استدارت ساندرا، وغادرت المكان.

علت الابتسامة وجه لوسي عندما سمعت بما قامت به ساندرا، وتمنت أن تكون قد أخذت تدرك هدفها في الحياة. ومع ذلك، كانت لوسي تعرف أن طريق العودة طويل وشاق.

كانت ساندرا في الثانية والعشرين، وقد أنجبت طفلين، لكنها ظلت أسيرة للمأزق الذي وقعت فيه منذ البداية: وهو كيفية توفير ما يكفي من المال لتعود إلى قريتها. كان أب طفليها سجيناً، وكم كان يعتصر ألماً وهو يراها تمارس الاتّجار بالجنس. لقد حاول مرتين أن يسرق كمية كبيرة من النقود لإنقاذها مما هي فيه. وفي المرتين، انتهى به المطاف في السجن. وبقيت ساندرا تحوم في دائرة مغلقة من اليأس والضياع.

ولأن لوسي لم تفقد الأمل في توبة ساندرا، فقد ذهبت لزيارتها وأبلغتها الرسالة التي كانت ترددها مرات عدة من قبل: أنا مستعدة دائماً لمساعدتك، ولكني لا أستطيع عبور الطريق نيابة عنك.

لوسي بورخا: العدل أولاً

وهبت لوسي حياتها كلها لخدمة الأطفال الذين يعيشون في المركز. ولكن مشكلة أطفال الشوارع ظلت على أشدها، فمقابل كل طفل تنقذه، كان تجار الرّقيق

يأتون بآخر يحلّ مكانه. كانت تقول دائماً: لن يتغير شيء عند أطفال الشوارع ما لم يكن العدل في صميم اهتمامات مجتمعنا. وسوف يستمر الظلم طالما استمر الفساد والجشع يحكم حياتنا.

ولتوضيح وجهة نظرها، كانت تقصُّ أحداثاً مهمة فاشلة جرت لإنقاذ طفلة عمرها أحد عشر عاماً كانت تقيم في المركز، ووقعت ضحية لتجارة الجنس. بدأت المشكلة عندما اختفت البنت في أحد الأيام، ولم يعرف أحد مكانها. مَرَّ أسبوع، ثم أسابيع، ولم يُعثر لها على أثر. وعندما يئس الجميع من العثور عليها، تلقت لوسي مكالمة هاتفية من أحد أطفال الشوارع السابقين، أخبرها فيها: إنه رأى الطفلة المفقودة وهي تدخل أحد بيوت الدعارة المعروفة بصحبة رجل كبير في السن.

لم تستطع لوسي التصرف وحدها، ولذلك لجأت إلى الشرطة؛ فعلى الرغم من انتشار دعارة الأطفال في البيرو، فإن القانون ينص على أن ممارسة الجنس مع قاصر جريمة. أقنعت لوسي ثلاثة من رجال الشرطة بمرافقتها إلى بيت الدعارة لإنقاذ الطفلة. انتظر شرطيان خارج المكان، في حين دخل الثالث ليجد الطفلة بصحبة رجل. وبدلاً من اعتقال ذلك الرجل، أخذه الشرطي إلى باب خلفي فاسحاً المجال له للهرب، ثم عاد واعتقل الطفلة، وأخذها إلى مركز الشرطة.

تقول لوسي: إن رجال الشرطة معروفون بفسادهم وأخذهم الرِّشى، وهذا أمر معتاد في شوارع الفقراء. في حين نحتاج نحن إلى رجال شرطة ونظام قضائي غير فاسد لحماية حقوق المواطنين جميعهم. إن الاعتراف بأن الفقراء لهم الحقوق ذاتها مثل غيرهم، يعني الإقرار بأن أطفال الشوارع لهم القيمة ذاتها التي لأطفالنا. ولكن ما يؤسف له أن مجتمعنا غير مستعد بعد لتقبّل هذه الحقيقة.

مساعدة لوسي وأطفال البيرو

أصـرّت لوسـي في عملها على إقنـاع المجتمع بأن للأطفـال المهملين القيمة ذاتها مثل بقية الأطفال الآخرين. ولهذا، فقد حاولت توفير حياة آمنة وكريمة لأطفال الشـوارع. ولكنها، مع الأسف، لم تحصل على المساعدة المالية المطلوبة من داخل البلاد وخارجها لتحقيق هذا الهدف النبيل.

وقد هبت حملة (ليس للبيع) لمساعدة لوسي في مهمتها الصعبة من خلال بناء الملاجئ، وتوفير فرص العمل، والمشاركة في تحسين حياة هذه العائلة الممتدة.

أنشأت الحملة عام 2009 بيت فيرونيكا تخليداً لذكرى بنت صغيرة خنقها أحد طالبي المتعة حتى الموت. يوفر البيت مأوى للأطفال المهرّبين لغايات الجنس، حيث يعيشون فيه، ويتعلّمون، وينعمون بالحب والحماية والحرية. ويضمّ أيضاً مركزاً مهنيّاً لتعليم البنات مهارات حرفية تمكنهن من شقّ طريقهن في الحياة بدلاً من الوقوع في حبائل تجارة الجنس مرة أخرى.

لا شك في أن الاقتراب من مشهد الاتّجار بالأطفال لغايات الجنس قد يصيب مناهضي العبودية بالإحباط واليأس، وبخاصة إذا لم تتعاون معهم الحكومة وسلطات تنفيذ القانون. وقد عانت لوسي كثيراً من الإجراءات الحكومية التي أدت إلى إغلاق ثلاثة بيوت للأطفال.

وفـي كثير من الأحيان، تكون لوسي هي المالكـة لبيت الأطفال، لكن الحكومة لا تسمـح لها بدخوله. وعلـى الرغم من كل هذه الإحباطات، فـإنّ الأطفال يمدّونها بالإلهـام والعزيمة لمواصلة العمل من أجل إنقاذ الأطفال الأبرياء من براثن الفقر، والتشرد، وتجار الرّقيق.

سادساً

بناء شبكة تهريب سرية

الولايات المتحدة

عـادت موجة تحرير العبيد مـرة أخرى إلى الولايات المتحـدة، بعدما أخذت تتكشـف صـور الاتّجـار بالبشـر فـي هذا البلـد الـذي خاض حربـاً أهليـة دامية؛ (1861 – 1865) بيـن ولايـات الشمال والجنوب لاختلافها علـى قضايا كثيرة على رأسها قضية العبودية.

وقد اكتسب لويس إيتونوي شهرة واسعة لتحريره العبيد من بيوت العائلات الغنية في ولايات فرجينيا، وميريلاند، ونيوجيرسي. بدأ لويس حملته عام 1999، ونجح في تحرير كثير من الفتيات الإفريقيات من الخدمة المنزلية والعبودية الجنسية. والمثير فـي الأمـر أن الرجل لم يتلق تدريباً في قانون الهجـرة، وغير مدعوم من أي منظمة مـن منظمات الخدمة الاجتماعية، ويمـوّل نشاطه بعمله مستنداً إلى مبدأ مؤمن به: لن أظل متفرجاً وأنا أرى الضواري تفترس ضِعاف الفرائس.

بـدأت رحلـة لويس عندما كان يتنـاول العشاء ذات ليلة في بيـت ابن عمه في مدينـة ديشمونـد في ولاية فرجينيا. أخبره ابن عمه: إنـه يقدم مساعدة لصديق له بإيـواء فتـاة مراهقة من الكاميرون هاربـة من الأسر. أثار اصطـلاح الأسر فضول لويـس. لأول وهلة، اعتقد أن الفتاة ربما وقعـت في مشكلات سياسية في الكاميرون التي وُلد فيها هو أيضاً.

أصيب لويس بدهشة شديدة والفتاة تروي قصة عبوديتها في بيت إحدى العائلات الغنيــة في منطقة ريشموند. قالت الفتاة: إن أسيادها وعدوا والديْها الموجودين في الكاميرون بأنها سوف تتلقى تعليماً مقابل خدمتها في منزلهم. ووعدوا بإرسال راتبها إليهما بانتظام. وقد استخدم الزوجان الأمريكيان جواز سفر ابنتهما مع صورة مزيفة لإدخال البنت إلى الولايات المتحدة. عندما وصلت الفتاة إلى ولاية فرجينيا، أُرغمت علــى العمل في نوبات تمتد من الصباح إلــى المساء. وإضافة إلى ذلك، فإن الطفلة البالغــة من العمر أربعة عشر عامــاً لم تذهب إلى المدرسة مطلقاً، بل كانت مرغمة علــى البقاء داخل المنزل وعدم الخــروج منه إلا بصحبة الزوج أو الزوجة. ومنعاها كذلــك من إجراء أي مكالمة مــع أهلها في الكاميرون، إضافة إلى الاعتداء الجنسي عليها من قبل الزوج.

وفي أثناء سرد حكايتها أمام لويس، ألمحت البنت إلى أنها ليست الوحيدة من عائلتها التي جرى تهريبها إلى الولايات المتحدة، فسألها: ماذا تعنين بوجود أخريات سقطن في المِصْيدة نفسها؟ أجابت: لقد أُحضر كثير من فتيات منطقتي إلى هنا.

وعندما سألها إن كانت تعرف أسماءهن وأمكنتهن، قالت:

- بكل تأكيد، أستطيع تزويدك بالأسماء والأمكنة. لا أشعر بطعم الحرية وهنّ ما يزلن في الأسر. عليك بمساعدتهن.

في تلك اللحظة، عرف لويس أنه أمام قضية نبيلة، ولم يكن أمامه أي خيار سوى الاستمــاع إلى نداء الواجب، وهو الذي وقف طــوال حياته إلى جانب الضعفاء. حتى وهــو في المدرسة المتوسطة، كان يمنــع المتنمرين من استغلال الأطفال الضعفاء، ويتدخل لفض العراك حتى ولو لم يكن له علاقة به.

شعــر وهــو يستمع إلى إفادة هــذه الفتاة الخائفــة بأن هنــاك مسؤولية كبيرة بانتظــاره. وعندما اعترف له ابن عمه أنه لا يستطيع إيواء هذه البنت لأكثر من أيام

قليلـة، وافق لويس وزوجته على أخذهـا إلى بيتهما. وفي اليوم اللاحق، اتصل لويس بمكتب التحقيقات الاتحادي (الفيدرالي)، وأبلغ عن حادث اختطاف دولي وعمل من أعمال السخرة، وقال: إنه يأوي فتاة هاربة في بيته.

العبودية في أمريكا الحديثة

أجـرت منظمة مناهضـة للاتّجار بالبشر المسّماة حـرّروا العبيد (Free the Slaves) دراسـة مشتركـة مع مركز حقوق الإنسان في جامعـة كاليفورنيا في المدّة مـن 1998 – 2003. وأصدرت المنظمة تقريرها النهائي بعنوان: العبيد المخفيون: أعمال السخرة في الولايات المتحدة، وثّقت فيه طبيعة العبودية ومداها داخل الحدود الأمريكية[1]. وكشف التقرير عن الاتجاهات البارزة الآتية:

- يجري تهريب الأجانب إلى داخل الولايات المتحدة من خمس وثلاثين دولة في الأقل. وينتمي معظم المُهرَّبين إلى الصين، والمكسيك، وفيتنام.
- الولايـات الأمريكيـة ذات النسبـة العالية فـي العبودية هـي: كاليفورنيا، وفلوريدا، وتكساس، ونيويورك.
- تدير عصابات إجرام مكسيكية، وآسيوية، وأوروبية شرقية شبكات واسعة للاتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة، مستهدفة مجموعات المهاجرين أساساً.
- يستقدم المواطنون الأمريكيون والمقيمون الدائمون إلى البلاد الآلاف من عبيد الخدمة في المنازل.
- تشغـل 75% من مصانـع الألبسة في نيويورك العمـال بأجر متدنٍ، وتحت ظروف سيئة، وغالباً ما تشغل العمال دون أجر بتاتاً.

- تنتشر أعمال السخرة في خمسة قطاعات من قطاعات الاقتصاد الأمريكي هي: البغاء، وخدمات الجنس (46%)، والخدمة المنزلية (27%)، والزراعة (10%)، والمصانع (5%)، والمطاعم، وأعمال الفندقة (4%).

يصعب على كثير من الأمريكيين التصديق بأن العبودية لا تزال موجودة في العالم بنسبة عالية، وربما في مجتمعاتهم أيضاً. ولكن ذلك لا ينفي حقيقة وجود عشرات الآلاف من الأشخاص الذين يكدحون داخل الولايات المتحدة دون أجر وتحت تهديد العنف. ولأن أعمال السخرة غالباً ما تحدث في بيئات العمل غير المنظمة، أو التي تستخدم العمالة الرخيصة، فإن معظم الأمريكيين قد يشاهدون حالات عبودية دون إعارتها أي اهتمام.

ونظراً لسوء الفهم المنتشر لدى كثير من الناس، نوّد التأكيد أن حالات العبودية لا تتعلق كلها بالمهاجرين غير المسجّلين: فصحيفة ديترويت فري بريس، مثلاً، أشارت عام 2003 إلى أن شرطة ولاية ميشيجان كشفت عصابة للاتجار بالبشر تمتد عبر ولايات أمريكية عدة، وتشمل فتيات من وسط غرب الولايات المتحدة تبلغ أعمار بعضهن ثلاثة عشر عاماً فقط. وقد اكتشفت الشبكة الإجرامية عندما دخلت فتاة تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً أحد المحال التجارية في مجمع تجاري في ديترويت، وطلبت مساعدة من رجل الأمن. تردد الحارس في البداية، ولكنه ما لبث أن رأى مختطفيها يقتحمون المكان بحثاً عنها. لاحظ الحارس أن الفتاة كانت خائفة وقد تعرضت للضرب، فأبعد الملاحقين لها واتصل بشرطة الولاية.

أبلغت الفتاة الشرطة أنها اختطفت عندما كانت تنتظر عند موقف للحافلات في وسط مدينة كليفلاند، ونقلها مختطفوها بسيارة إلى ديترويت حيث أُرغمت على ممارسة البغاء.

استطاعت الفتاة تحديد البيت الذي كانت محجوزة فيه في مدينة ديترويت. وهناك، اعتقلت الشرطة رئيس الشبكة. وبعد مزيد من التحقيقات، اكتشفت الشرطة

أن العصابـات كانت تختطف المراهقات طـوال ثمانية أعوام، وتوزعهن على المدن عبر ولايات وسط غرب الولايات المتحدة.

أعلنـت والدة الفتاة التـي أدى هروبها إلى كشف هـذه الشبكة: الأمر كله غير معقول ولا يصدّق. إنها العبودية. إنهم يغرون هؤلاء الفتيات ويجبرونهن على القيام بكل ما يريدونه. إن هذا التصرف الذي يمارسونه مع أطفالنا مشين ومقزّز [2].

النائب العام والمصارع

انضمـت سـوزان كوبيج إلى مكتـب النائب العام في المقاطعـة الغربية لولاية جورجيا بعد تخرجها في جامعة حقوق سنجافورة بمدة وجيزة.

كانـت متحمسة جدّاً للدفاع عـن ضحايا الخدمة القسرية، فتولت التحقيق مع أربعة عشـر سمسار فاحشة. كانت تلك قضيتها الأولى، ولكن القضايا توالت واحدة إثـر أخرى، ما جعلهـا خبيرة في قضايـا الاتّجار بالبشر. واكتسبـت من جراء هذه التحقيقات والقضايا خبرة كافية جعلتها مستعدة لجولة قانونية مع مصارع محترف سابق يُدعى هاريسون هاردبوي نوريس.

كان هاريسـون من النجوم المتألقة في بطولة العالم للمصارعة في تسعينيّات القرن الماضي، وكان يتمتع بروح دعابة وجسم رائع يؤهله للنجاح في أي عمل يُقْدِمُ عليه. إضافة إلى أن الخدمة العسكرية القاسية في الجيش الأمريكي جعلته منضبطاً ذاتيّاً وزاهداً في الدنيا.

كان هاريسـون متزوجـاً، وله ابنة مراهقـة، وكان يعيش مـع عائلته في مدينة شيسترفيـل التي تبعـد نحو ثلاثين ميلاً عـن مدينة أتلانتا في ولايـة جورجيا. كان يمتلك بيتين؛ أحدهما يشتمل على قاعة للتدريب مجهزة تماماً. في إبريل 2004، قرر هاريسون البدء بتدريب الجيل الثاني من نجوم المصارعة. لكن المصارعين الذين اختار تدريبهم لم يكونوا مصارعين عاديين، بل مصارعات.

في كل مكان يذهب إليه، كان هاريسون يبحث عن نساء معينّات، ويمنحهن فرصة تجربة حياة جديدة وتحقيق النجومية. أطلق على النساء ألقابا مخصوصة بالمصارعة، وكان يناديهن بها. بعد ذلك، ألحق كل واحدة منهن بفريق، وطبّق عليهن نظاماً عسكريّاً قاسياً في التدريب والأكل. ومنعهن من التدخين وتناول الكحول والمخدرات أيّا كان نوعها. ومع مرور الوقت، أصبحت النساء أكثر رشاقة وطاعة وصحة.

مشروع بولاريس: الاهتداء بنجم الشمال

بعد اصطدام طائرتين بمركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، لم تكن كاترين شون طالبة الجامعة الوحيدة التي نشأت وهي تحمل همّاً عن مستقبل العالم، وكانت في الأيام التي أعقبت الهجوم توجه النقاشات في لقاءاتها مع أصدقائها في جامعة براون نحو القضايا الاجتماعية العالمية.

في أحد هذه النقاشات، سأل ديريك إليرمان: إذن، ما رأيك، هل الدين هو الأداة التي يستخدمها الناس لتسويغ أعمال الإرهاب والاضطهاد. انظري إلى تاريخ الولايات المتحدة، لقد استخدم المسيحيون الإنجيل لتكريس ممارسة العبودية. هذا صحيح، أجابته كاترين، ولكن الإنجيل نفسه هو ما ألهم المسيحيين الآخرين ليصبحوا الرّواد الأساسيين في حركة مناهضة الرق.

كانت هذه هي البداية التي انطلق منها النقاش اللاحق بين مجموعة من الطلاب الذين حضروا اللقاء، عن القوى الاجتماعية التي نجحت واقعيّاً في وقف تجارة العبيد في القرن التاسع عشر. وبسرعة، حوّل ديريك الموضوع عندما قال: حسناً، ما المطلوب، برأيك، لإنهاء العبودية اليوم؟

نظرت إليه كاترين بارتباك، وسألته: ما الذي تتحدث عنه؟

قال ديريك: ما أتحدث عنه هو أن النساء والأطفال يُخطفون، أو يُباعون، أو يُزج بهم رغماً عن أنوفهم في سوق الدعارة. إضافة إلى وجود ملايين من الناس يعانون أعمال السخرة في الهند، ونيبال، وباكستان.

أصيب زملاء ديريك بصدمة شديدة، في حين اعتقدت كاترين أن ديريك يبالغ في الأمر، وإلّا لكانت سمعت بهذه الانتهاكات وهي في جامعة براون. ولكن، عندما جلست لتدرس في تلك الليلة، ظلت كلمات ديريك تدور في رأسها. ولذلك، نحّت كتبها جانباً، وأخذت تبحث في شبكة الاتصال (الإنترنت) عن معلومات عن الاتّجار بالبشر. حينها، عثرت على تقرير مفصّل من إحدى منظمات حقوق الإنسان عن ملايين من ضحايا العبودية المعاصرة.

تستذكر كاترين ردة فعلها آنذاك قائلة: كنت في السنة الأخيرة من دراستي الجامعية، ولم أكن أعلم أن هذه المشكلة الكبيرة موجودة. وفي اليوم اللاحق، سألت أكثر الطلاب الناشطين سياسيّاً وأساتذة الجامعة إن كانوا يملكون معلومات عن تجارة العبيد العالمية، فاعترفوا بجهلهم لهذه الظاهرة.

قررت كاترين أن تستقصي الأمر، فبدأت تبحث عن موضوعات تتناول العبودية. في إحدى الصحف، عثرت على مقالة تتحدث عن غارة للشرطة على مركز للتدليك، لا يبعد سوى أميال قليلة عن جامعتها. وجاءت الغارة بعد تلقي الشرطة معلومات تشير إلى أن ذلك المركز يدير بيتاً للدعارة. وعلى إثر هذه الغارة، اعتُقلت ست نساء من كوريا الجنوبية. وتبين أن تجار الرّقيق أحضروا تلك النسوة بأجوزة سفر مزورة، ثم احتفظوا بتلك الأجوزة عند دخولهن إلى الولايات المتحدة، وأجبروهن بعد ذلك على بيع أجسادهن في سوق الجنس التجاري. وعلى الرغم من إفادات النساء وآثار التعذيب الظاهرة على أجسادهن، فإنّ الشرطة اعتقلتهن بتهمة ممارسة البغاء.

اعترت كاترين صدمة؛ لأن هذا يجري قريباً منها دون أن تدرك ذلك. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل تحوّل إلى قضية شخصية؛ لأنها نفسها من

مواليـد كوريـا الجنوبيـة، إضافـة إلـى أن عمرهـا يقـارب أعمـار أولئـك النساء. أخـذ الغضـب يعتمل فـي صدرها كلما قـرأت أكثر عن تجـارة الرّقيـق المعاصرة. وعندمـا أبلغـت ديريـك برغبتهـا فـي الانضمـام إلـى حركـة مناهضـة الرّقيـق، قـال لهـا: سـوف أنضـم معـك أيضـاً، إذ لا يمكننـا أن نظـل متفرجيـن تجـاه ما يحدث.

ولكن، أصيبوا بخيبة أمل بسبب عدم العثور على منظمة تقبل بالتحاق المتطوعين بها؛ لأن مجموعـات مناهضة الرق الموجودة كانت تبحث عن محترفين ذوي تأهيل عـالٍ. وعليه، كان الخيار الوحيـد أمامها هو تنظيم حملة لجمع التبرعات، أو عرض فيلم في الحرم الجامعي. كان الاثنان يرغبان في الانخراط بالحركة، لكنهما أدركا أن عليهما أولاً فهم آليات عمل العبودية المعاصرة. ولذلك، أقنعا اثنين من أساتذتهما بتغيير المقرّر الدراسي في الفصل القادم، والطلب إلى الطلاب بإجراء دراسات غير مسبوقة عن الاتّجار بالبشر.

درجـت جامعة براون على الإعلان عن مسابقـة سنوية لأصحاب المشروعات الرياديـة لإعـداد خطة عمل لتأسيس شركة حديثة. ومـع أن المسابقة كانت موجهة لمتقدميـن يبنون مشروعـات تجارية ربحية، فإن ديريك وكاتريـن رأيا أن الشروط تنطبق عليهما، حتى وإن كان الهدف تحقيق العدالة الاجتماعية. ولذلك، أعدّا خطة عمل لإنشـاء وكالة تستثمر تقنيات الاتصالات والمهارة الإدارية في مناهضة تجارة الـرق. وعلى الرغم من فكرتهما غيـر العادية، فإنهما فازا بالمركز الثاني، وحصلا على جائزة نقدية قدرها اثنا عشر ألفاً وخمس مئة دولار تكفي لإنشاء وكالة لمناهضة الرق، أطلقا عليها اسم بولاريس بروجكت، إشارة إلى النجم القطبي الذي اهتدى به عبيد الولايات المتحدة في هروبهم لنيل الحرية في القرن التاسع عشر عبر خطوط التهريب السرية.

لويس ايتونوي: إذا هبّت رياحُك فاغتنمْها

تأخـر مكتب التحقيقات الاتحادي (الفيدرالي) في الاستجابة لبلاغ هاريسون عـن وجود شبكة تجـارة بالبشر في مدينة ريشموند، ولذلك لجـأ إلى دائرة الهجرة والتجنيس، والشرطة المحلية. استمعت الجهتان له باهتمام، ولكنهما لم يعطيا الأمر أولوية، ولم يتابعا، أيضاً، الدليل الذي قدّمه لهما عن وجود مزيد من الفتيات المهرّبات من الكاميرون.

يقـول هاريسون عن ذلك: لقد أدركت حينها أنني إذا لم أتحرك، فلن يتحرك أي إنســان آخر. لذا، اتصــل بهاتف منزل عائلة من عائــلات نيوجيرسي زودته بها الفتــاة الهاربة. كان يأمل أن تكـون الفتاة الخادمة وحدها فــي البيت. ولذلك، فقد اتصــل ظهراً. وقــد نجحت خطته، حيث ردّت الفتــاة الكاميرونية وقالت: إن عمرها سبعة عشر عاماً، وأنها قضت ثلاث سنوات في العبودية، وتعرضت للإساءات نفسها التي تعرضت لها ضيفة هاريسون. اعترفت له الفتاة بأنها استسلمت لحياة العبودية.

عندما سألها هاريسون عن موقع قريتها في الكاميرون، ذكرت له اسم قرية لا تبعــد سوى ميلين عن القرية التي ولد فيها. لم يستغرب كثيراً عندما ذكرت له اسم القرية، لكن الصدمة جاءت عندما سألها عن عائلتها وذكرت اسم أمها. لم يصدق أذنيه: فأم الفتاة كانت ابنة عمه التي عرفها طوال حياته.

قبــل أن يضع سماعة الهاتــف، كان صوتها يلاحقه من الطرف الآخر: أرجوك أن تخلصني من هذا السجن.

يؤمن هاريسون بأن على الإنسان أن يغتنم الفرصة المثالية عندما تتاح له، لأنها قــد لا تتكــرر مرة أخرى، فقال لها: لقد تركك أصحــاب البيت وحدك، لذلك، علينا اغتنام الفرصة لإخراجك منه.

وضعا خطة هروب سريعة، لكن الفتاة قالت: إنها تعتني بثلاثة أطفال صغار، وأن من الخطأ تركهم وحيدين. وما أن أنهت جملتها حتى رأت صاحبة المنزل تعود في الساعة الرابعة بعد الظهر على غير عادتها، وهي تقود سيارتها عبر ممر طويل. عندها، تسللت الفتاة من الباب الخلفي حسب الخطة، وهربت إلى شارع فرعي قريب. كان هاريسون قد اتصل بأخ زوجته في نيوجيرسي، وطلب إليه انتظار الفتاة بسيارته في ذلك الشارع، وأخذها إلى منزله، ومن ثمَّ انتظار حضور هاريسون الذي سيأتي إلى نيوجيرسي في تلك الليلة بعد انتهاء دوامه في فرجينيا؛ نجحت الخطة تماماً، وأنقذت الفتاة.

في طريق العودة من نيوجيرسي إلى فرجينيا، سردت له الفتاة تفاصيل أسرها، وكيف أنها لم تتصل بعائلتها طوال سنوات ثلاث.

وبحلول عام 2002، كان هاريسون قد نجح في إنقاذ فتاتين أخريين من عبودية الخدمة المنزلية. عاشت الفتيات في بيته طوال تلك المدة. ولكنه وجد صعوبة في إقناع الجهات القضائية لتوفير الحماية لهن، على الرغم من محاولاته المتواصلة. وعادة ما يكون التحقيق في جريمة الاتّجار بالبشر بطيئاً جدّاً في الولايات المتحدة، حتى في مثل هذه الحالات التي وثّقت فيها شهادات الضحايا. ومثلما يحدث عادة، زعم تجار الرّقيق أن أهل هؤلاء البنات قد وقّعوا على عقد عمل يسمح بتشغيل بناتهم، وأنهم يملكون الوثائق التي تثبت ذلك.

كادت القضية أن تنتهي عند هذا الحد: لأن السلطات القضائية المحلية والاتحادية لم تكن مستعدة لإرسال محقق إلى إفريقية لكشف الحقيقة.

أمام هذا الوضع، قرر هاريسون شراء تذكرة طائرة وكاميرا فيديو، وسافر إلى الكاميرون على حسابه الشخصيّ. عندما وصل إلى هناك، ذهب إلى بيوت عائلات الفتيات الموجودات في بيته، وصوّر إفاداتها. وكيف أن تجار الرّقيق وعدوا بتعليم البنات، ودفع أجر مجزٍ لهن.

أفادت هذه العائلات: إنها لم تعرف شيئاً عن بناتها منذ ذهابهن إلى الولايات المتحدة، وأنها لم تتلق أي نقود من الذين يعملن لديهم.

اغتنم هاريسون الفرصة وزار قريته. وعندما وصل إلى هناك، وجد ابنة عمه في حالة حداد، وقد اتشحت بالسواد. استقبلته باكية وقالت له وهي تذرف الدمع السخيّ: كنت أتمنى يا ابن العم أن احتفل بقدومك من أمريكا، ولكني تلقيت أخباراً عن اختفاء ابنتي في وطنك الجديد، وأنها ربما تكون قد ماتت.

عندما هدأت الأم قليلاً، عرض هاريسون عليها وعلى أهل القرية رسالة مصورة من البنت إلى عائلتها وأصدقائها، فتعالت الأغاريد في القرية بهجة وسروراً.

النائب العام والمصارع في المحكمة

نظراً لأن جرائم الاتّجار بالبشر يمكن إخفاؤها، فإن هذه الجرائم قد تستمر سنوات دون أن يحس بها حتى الجيران الذي يعيشون قريباً منها. وما يحدث في واقع الأمر أن مثل هذه الجرائم قد تُكتشف بمحض المصادفة، وهذا ما حدث تماماً مع المصارع هاردبوي نوريس.

غالباً ما كان نوريس يصطحب المتدربات لديه لشراء ملابس المصارعة التي تبرز مفاتنهن وتجذب الانتباه لهن. وأبلغ النساء أن عليهن عدم الانزعاج من العيون التي تلاحقهن عند سيرهن في الشوارع.

في إحدى هذه الزيارات إلى أحد المجمعات التجارية في أغسطس 2004، اتخذت الأحداث مساراً مغايراً عندما انفصلت إحدى النساء عن مجموعتها، وذهبت إلى سيارة شرطة. وهناك، أبلغت الضابط الموجود فيها أنها مع امرأتين أخريين محتجزات ضد إرادتهن، وأن نوريس يجبرهن على العمل مومسات.

عندمــا فتحت الشرطة تحقيقاً في هذا الادعــاء، أنكر نوريس والنساء اللواتي عينهن قادة فرق هذه التهم. أخــذت الشرطة النساء الثلاث، وتظاهرت باعتقالهن لإبعادهن عن نوريس. وقــد استغرق التحقيق في أنشطة نوريس سنة كاملة، وشارك فيــه عملاء مكتب التحقيقــات الفيدرالي، وضباط من دائــرة الشرطة في سميرنا، إحدى ضواحي مدينة أتلانتا.

فــي بداية الأمر، اعتقدت الشرطة أنها وضعــت الضحايا جميعهن في الحجز الاحتــرازي حفاظاً على حياتهن، بانتظار جمع مزيد مــن الأدلة. ولكن، لم يكد يمر عام على الحادث الأول حتى استطاع نوريس استدراج ضحيتين جديدتين بالانضمام إلــى فريق المصارعة، مع وعود كاذبة بالشهــرة والغنى. لكن القضية شهدت تطوراً آخر مفاجئاً: عندما استطاعت إحدى النساء قطع غطاء الحماية والزحف عبر نافذة الحمام، ومن ثمَّ الهرب من الأسر. أسرعت المرأة الهاربة إلى الشرطة وأبلغتهم أن نوريس وخمسة مــن المتواطئين معه يحتجزون امرأة أخرى في المكان الذي هربت منه. وفي نهاية المطاف، تمكنت الشرطة من تحديد هوية تسع نساء، رفض بعضهن التقدم بشكوى إلا بعد الإعلان عن القضية.

وعن ذلك تقول سوزان كوبيج: غالباً ما تكون مثل هذه القضايا مليئة بالمنعطفات غيــر المتوقعة. كنا على وشك توجيــه اتهام لنوريس والمتواطئين معه، لكننا لم نكن نعرف مدى انتشار نشاطه. ولكن بعد اعتقاله مباشرة، بدا لو أن بوابة نهر قد فُتحت على مصراعيها؛ فتدفقت الأدلة من كل حَدَب وصَوْب.

ما حدث بعد ذلك هو اكتشاف عالم متشابك من السيطرة والتحكم. وقد وجهت الحكومــة إلى نوريس ثمانية وعشرين اتهاماً بممارسة نشاط إجرامي، منها التآمر، والاتّجار بالبشر، وأعمال السخرة، والتلاعب بالشهود.

لقــد استطاع نوريس من خــلال التمويه بتدريب الرياضييــن تكوين شبكة من المومسات اللواتي أحببنه وكرهنه في آن معاً. وقد وجد أنه احتفظ بسجلات قوانينه

المتعلقة بالنساء، والتي أشار إليها بالوصايا العشر. إضافة إلى تكليفه قادة الفرق - اللواتي اعترفن بأنهن يعشقن نوريس، وأقمن معه علاقة جنسية - بالسيطرة على ضحايا أخر. وكان يطبق نظاماً للعقوبات والمكافآت ضمن سياسة الضبط والربط، ومن ذلك تغريم من تعارضه خمسين دولاراً، وتحديد عدد المرات التي على المومس أن تبيع فيها جسدها للزبائن. أما المرأة التي تتخطى الحصة اليومية المحددة لها فكانت تربح ليلة للمبيت في (مقر الجنرال) وهو عبارة عن غرفة نوم يتقاسمها نوريس مع المرأة التي تفوز بهذه الليلة.

جاء اهتمام هاردبوي بالتفاصيل والانضباط لغير صالحه: إذ إنه سهّل من مهمة الحكومة في توجيه الاتهام إليه، ومن ذلك كشف بالديون المستحقة على النساء، إذ كان يتقاضى منهن بدل إيجار كل شهر، وأثمان الطعام والملابس والتدريب، وأي مصاريف أخرى تخطر بباله.

كان ذلك في بداية مشروع التدريب، وهذا ما جعل النساء يتحملن ديوناً كبيرة. ولكن كيف يمكن لامرأة مقيدة الحركات ردّ هذه الديون. كان الجواب عند نوريس؛ أن تمارس الدعارة القسرية. في عطلة نهاية كل أسبوع، كان يحشر النساء في عربة، وينقلهن إلى نادٍ ليلي لصديق له يرتاده رجال من أمريكا اللاتينية. وفيه، يُرغمن على الرّقص وخدمة الزبائن، في حين كان الجنرال يأخذ منهن النقود التي جمعنها، ويضعها في خزنة مخصوصة به.

حاول نوريس أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة، فأنكر التهم الموجهة إليه، وأن النساء اللواتي اعتنى بهن تمتعن بصحة جيدة، ولياقة وحيوية، ولم يتعاطين المخدرات.

تعترف كوبيج أن شخصية نوريس كانت تحدياً للنائب العام. وعن ذلك تقول: ومع أننا كنا واثقين من التحقيق والأدلة التي جمعناها ضده، فإن القضاة يميلون إلى إعطاء الناس الذين يدافعون عن أنفسهم حرية في المرافعة أكثر مما يعطونها

لمحام محترف. قلنا للضحايا: إن نوريس سوف يستجوبهن، وهي فكرة كانت مخيفة لكثيرات منهن.

وعلى الرغم من جاذبيته، فإن نوريس فشل في كسب القضية. وعليه، أصدرت المحكمة الفدرالية أقسى حكم يصدر على تاجر رقيق قبل عام 2005، وهو السجن مدى الحياة. وقد أشار القاضي إلى ذكاء نوريس وحنكته التجارية، وهذا في الحقيقة ما جعل القاضي يصدر أقسى حكم عليه. ومما قاله القاضي: كان يمكن له أن ينجح في أي مشروع شرعي يقوم به، ومع ذلك فقد اختار أن يكون تاجر رقيق ومستغلاً للبشر.

لقد كانت ضحايا نوريس جميعهن مواطنات أمريكيات راشدات - عبدات أمريكيات - وأنقذهن نظام قضائي أمريكي فريد.

الجوقة الغنائية الزامبية؛ عبودية في الكنيسة

اعتقدت ساندي شيبرد أنها تقوم بعمل صالح يقرّبها إلى الله تعالى، فقد قامت بدور بارز في إحضار جوقة غنائية زامبية إلى كنيستها المعمدانية. كان أعضاء الجوقة ينتمون إلى عائلات فقيرة في زامبيا، ذلك البلد الإفريقي الذي يفتقر إلى أي منفذ بحري.

بدأت الحكاية عندما كوّن قسّ يُدعى كيث جرايمز خدمة كَنَسيّة سمّاها (تعليم المعلمين كيفية التعليم) لخدمة رعايا الكنيسة على جانبي المحيط الأطلسي. وكانت الفكرة هي جعل مرتادي الكنيسة يتأثرون عند سماع أطفال أفارقة يترنمون في مديح المسيح، ما يجعلهم يتبرعون لتمويل مشروعات تربوية في زامبيا.

عندما كان القسّ يختار الأطفال لتكوين الجوقة، كان يبلغ أولياء أمور الأولاد أن التبرعات الأمريكية سوف تُوظَّف لتمويل مدارس محلية في زامبيا. يضاف إلى ذلك أن الأولاد سوف يتلقّون راتباً كنسيّاً لتحويله إلى ذويهم. وكان يقول للأهالي في

أثنـــاء جولاته: إن العاملين معه سوف يعلّمون هـؤلاء الأولاد الذين سيكونون أول من يلتحق بالمدارس المبنية حديثاً.

أحضــر القس جرايمز أول جوقة أولاد إلى الولايات المتحدة عام 2003، وأعدّ لهـم جولة تستغرق ثلاثة أشهـر. وقد بلغت الإيرادات من التبرعـات وبيع الأقراص المضغوطـة المخصوصة بعروض الأولاد نحو ربع مليون دولار. كان هذا المبلغ أكثر ممـا حلـم به هذا القسّ، ما جعله يمدد الجولة مـدة نصف عام إضافي دون موافقة الأولاد أو أوليـاء أمورهـم. وكانت الحصيلة المالية مذهلـة. بعد عودة فريق الجولة الأولى إلى زامبيا، قرر القسّ جرايمز تكوين جوقة أخرى. واستطاع خلال المدة من 1993 – 2000 تكويـن خمس فرق من زامبيا، وفرقـة سادسة من ليبيريا كان تضمّ أطفالاً أكفياء. استقبلت العائلات من رعايا الكنيسة هؤلاء الأطفال بحفاوة كبيرة. وفي المدة الفاصلة بين الجولات، كان الأطفال يقيمون في مقر برنامج (تعليم المعلمين كيفية التعليم) الواقع في منطقة ريفية في ولاية تكساس.

فـي أحـد الأيام، حضـرت ساندي وهـي أم لثلاث بنـات من مدينـة كوليفيل لتعرض استضافة بعض الأولاد، بعد تقديم الفرقة أول عرض لها في كنيسة كوليفيل المعمدانية. تشوقت ساندي إلى زيارة زامبيا بعد سماعها ترانيم الفرقة الموسيقية، ووصف القس جرايمز لحياة البؤس والفقر في زامبيا. وقد تناولت العشاء مع هؤلاء الأولاد في منزلها. ولذلك، لم تتردد في الانضمام إلى وفد من الكنيسة لزيارة زامبيا، والإطلاع شخصيّـاً على أحوال المنطقة التي جاء الأولاد منها، والموقع المخصص لإنشاء المدرسة الجديدة.

كانـت تلك المرة الأولى التي ترى فيها القسّ جرايمز يمارس العمل الميداني. كان قسّاً أبيض، يرتدي قميصاً نظيفاً، وربطة عنق زادت من مصداقيته، إضافة إلى أنّه أسر قلوب الفلاحين الزامبيين بأسلوبه الرّقيق الجذاب. ولاحظت ساندي شعور الفخار عند الآباء الذين يختار القس أبناءهم للانضمام إلى الجوقة الموسيقية. وقعّ

أولياء الأمور وثائق مكتوبة باللغة الإنجليزية التي لا يفهمونها. ولكنهم كانوا على ثقة بأن القسّ سوف يعتني بأبنائهم.

في أثناء زيارة الجوقة الأولى إلى كولينيل، ظل الأولاد الذين استضافتهم ساندي صامتيـن طوال الوقت. فاعتقـدت أن هذا تصرف طبيعي من أطفال جاؤوا إلى بلد، هم فيه أغراب.

لـم تكـن ساندي تظن أن في الأمر ما يريب. ولكنها لـم تكن تعلم أن العاملين في المشروع قد هددوا الأولاد بالتزام الصمت التام عن حياتهم في الجوقة. وإذا ما قدمت إليهم العائلة هدايا، فعليهم تسليمها إلى قادة الفرقة.

بعد عودة ساندي من زامبيا، قدّم الأولاد عدداً من العروض في كنيستها، وأخذوا ينفتحـون تدريجيّاً، ويبوحون ببعض المعلومات التـي أقلقت مضيفيهم. قال الأولاد: إن العاملين في المشـروع كانوا يراقبون رسائلهم من زامبيا وإليها، ومنعوهم أيضاً مـن إجراء مكالمات هاتفية مع ذويهم. كانت الجوقة تقـدم أربعة عروض يوميّاً في المجمعات التجارية، والكنائس، والمدارس. وكانوا في بعض الأيام يقدمون ثمانية عروض. واعترفوا بأن القس جرايمز كان يهدد أي طفل مريض أو مرهق بإعادته إلى زامبيا، ما يجعله مصدر عار في نظر والديه. وكشفوا أنهم يعيشون في ظروف سيئة؛ لأن المسؤولين عن المشروع لم يدفعوا لهم الهبات النقدية التي وعدوهم بها البتة.

عندما اتصلت ساندي بالقس معربة عن قلقها، رد عليها بغضب شديد. وهذا جانب لم تعرفه عنه في أثناء جولتها الميدانية معه في زامبيا. ولم يؤد نفيه وإنكاره الشديـدان إلاّ إلى زيادة شكوكها، ولذلك اتصلت بسلطـات تطبيق القانون، وطلبت إجـراء تحقيق فـي الأمر. وعن ذلك تقول: إنني أتعاطف مـع العائلات الزامبية. لم يكـن يخطر ببالي أن رجـل دين، يتستر وراء مشروع كنسي، يمكن أن يستعبد أطفالاً صغاراً من أجل جمع التبرعات. وهي تعترف بأنها في ذلك الوقت لم تكن تعرف كثيراً

عـن الاتّجار بالبشر. ولذلك، فقد تحدثت إلى العملاء الفيدراليين عن هذه القضية الواضحة المتعلقة باستغلال الأطفال.

أجـرى ضبـاط مكتـب التحقيقـات الفيدرالـي تحقيقـاً فـي قضيـة مشروع (تعليـم المعلمين كيفية التعليم). ولكنهم ردوّا اتهامات أعمال السخرة والاسترقاق لأنهـم لم يعثروا على أي آثـار للأصفاد أو كدمات على أجســام الأطفال. وقد شرح القسـ مهمة الجوقة أمام العمـلاء الذين اقتنعوا بدوافعه. وأظهـر لهم القس أيضاً عقـوداً موقعة من العائلات الزامبية تعطيه حق الوصاية الشرعية على الأولاد داخل الولايات المتحدة.

وعلـى الرغم من هذا الفشل، فـإن ساندي استمرت فـي مساعيها، فاتصلت بسلطـات تنفيـذ القانون في تكساس لـدى دائرة الهجرة والتجنيس ومكتب النائب العام. ولكن هذه الجهود جميعها لم تؤدِّ إلى نتائج ملموسة أيضاً.

عادت جوقة الأولاد الذين توثقت علاقتهم بساندي إلى إفريقية عام 1998. في هذه الأثناء سمعت ساندي أن القس جرايمز كوّن جوقة جديدة تضم سبعة وستين طفلاً زامبيّـاً، لكنها لم تعد تحتمل الحديـث عن مشروع (تعليم المعلمين كيفية التعليم)، فتراجع حماسها لرفع شكوى قضائية أخرى.

من جانبهم، سعى المسؤولون عن المشروع إلى تجنب كنيسة كوليفيل المعمدانية، إضافة إلى أن القس جرايمز حذّر الأطفال من وجود كنيسة شيطانية هناك، وأمرهم ألا يقبلوا أي دعوة من عائلات المدينة. وأخافهم بقوله: إذا ذهبتم إلى تلك الكنيسة، فإنهـم سوف يغررون بكم، وسوف تتعرضون للإساءة؛ إنه صوت الذئب الذي ينصح الشياه أن تحذر الدجاج.

افتضاح العبودية

فـي أغسطس 1995، اقتحمت قوة فيدرالية مجمعـاً سكنيّاً يضم ثماني شقق، محاطاً بأسلاك شائكة في حي إلمونتو في لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا. وهناك، عثـرت على اثنين وسبعين امرأة يعملن فـي صناعة الملابس، محتجزات أسرى في المجمع منذ سبع سنوات. وتبين من التحقيقات أن تجار الرّقيق جمعوا هؤلاء النساء مـن المناطق الفقيرة والريفية في تايلاند، ووعدوهن بوظائف في صناعة الملابس تدرُّ دخلاً مجزياً. وعند وصولهن إلى لوس أنجلوس، أخذ تجار الرّقيق أجوزة سفرهن وقالوا: إن عليهن دفع نفقات إحضارهن من تايلاند إلى الولايات المتحدة.

كان مصنـع الخياطـة موجـوداً في مرآب المجمـع السكني، وكانـت المَكِنات مصفوفة على طاولات بتراصّ بصورة لا تسمح بحرية الحركة، إضافة إلى أن المكان يفتقر إلى التهوية الصحية، في حين كانت النوافذ مغطاة بملصقات جدارية تحجب الرؤية. أما غرف النوم فمليئة بالصراصير، ولا يوجد فيها أي أثاث، بل مجرد فُرُش ملقاة على الأرض. كانت الملصقات تمنع دخول أشعة الشمس. وكانت كل عشر نساء ينمن في غرفة واحدة لا تتسع أساساً لشخصين. إضافة إلى هذا المصنع، كان تجار الرّقيـق يديرون مصنعـي خياطة آخرين في المنطقة الصناعيـة المكتظة في لوس أنجلوس. كانت بعض النساء التايلانديات يعملن في مصنع المرآب، في حين كانت النساء الأخريات يُنْقَلْن يوميّاً إلى هذين المصنعين، وكنّ يعملن في نوبات عمل تمتد ست عشرة ساعة تحت رقابة مشددة من حراس مسلّحين.

كان تجار الرّقيق يدفعون إلى أولئك العاملات سبعة وعشرين سنتاً في الساعة، ثم يستردون تلك النقود مباشرة لتسديد الدين الذي عليهن. ولأنهم لم يكونوا يسمحون للعاملات بمغادرة المجمع دون حراسة، فقد أنشأ تجار الرّقيق لهن مخزناً للمنظفات والمـواد الغذائية الضرورية. فيه، قطعة الصابون تبـاع بعشرين دولاراً وكيس الأرز بعشرة.

بعد اقتحام هذا المجمع، قال وزير العمل الأمريكي آنذاك روبرت رايخ: إن هذه القضية هي أسوأ قضية عبودية في التاريخ الأمريكي الحديث[3]. وعلى الرغم مما قاله الوزير، فإن القوة التي اقتحمت المكان عاملت النساء بوصفها وافدات بطريقة غير شرعية. ولم يكف معاناتهن في الأسر مدة سبع سنوات، بل زُجَّ بهن وراء القضبان، وإرغامهن على ارتداء ملابس السجون. وكانت هذه المعاملة رسالة تخويف للعبيد في الولايات المتحدة كافة. وجاءت دعماً لتحذير تجار الرّقيق ضحاياهم: بلغوا السلطات عنا، وسوف تسجنون أنتم لا نحن.

انبرت مجموعات لحقوق الإنسان ومن الجاليات الآسيوية في مدينة لوس انجلوس بالدفاع عن النساء المُحتجزات، وجمعت لهن تبرعات لدفع كفالاتهن المالية. ولكن تبيّن لهذه المجموعات بعد ذلك عدم وجود منظمة تستطيع دفع نفقات الرعاية الصحية، والقضايا القانونية، والاحتياجات اليومية لهؤلاء النسوة. وفي الأشهر اللاحقة، اتفق مركز تطوير الجالية التايلاندية، ومركز طوكيو للخدمات، وأساتذة جامعات، ومجموعات المساعدة القانونية على تكوين تحالف لإلغاء العبودية والاتّجار بالبشر، وأُعلن عنه رسمياً عام 1998.

قانون

أحدث اكتشاف حالة العبودية هذه صدمة داخل المجتمع الأمريكي، ليس لبشاعتها فحسب، بل لأن أكثر من سبعين امرأة اُحتُجزْن مدة سبع سنوات في حي سكني، دون أن يثرن انتباه أحد. وأثارت المحاكمات التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة قلقاً في الدوائر السياسية والقانونية، ودقّت ناقوس الخطر للتنبيه بأن الولايات المتحدة تفتقر إلى التشريعات الرادعة لمحاربة الاتّجار بالبشر، وتوفير الحماية للضحايا، وبخاصة الأجانب منهم، الذين يُتّهمون بمخالفة قانون الهجرة، ومن ثَمَّ يُسجنون ويُرحّلون إلى مناطق شديدة الخطورة.

مارس نشطاء تحالف إلغاء العبودية والاتّجار بالبشر، ومنظمات عدّة غير حكومية، ضغطاً على المُشرّعين لِسَنّ قانون يحمي حقوق الضحايا، ويولي اهتمام سلطات تنفيذ القانون على ملاحقة المجرمين الحقيقيين. وحثوا الحكومة الأمريكية أيضاً على تقديم خدمات لتمكين هؤلاء الضحايا من استرداد عافيتهم البدنية والنفسية.

واستجابة لهذه الضغوط، أقر الكونجرس الأمريكي في نهاية عام 2000 قانون حماية ضحايا الاتّجار بالبشر، بهدف واضح هو: ضمان محاكمة تجار الرّقيق، وإصدار عقوبات رادعة ضدهم، وحماية ضحاياهم. والأهم من هذا، اعتراف القانون بأن الاتّجار بالبشر مشكلة أمريكية داخلية ومشكلة عالمية في وقت واحد.

وقد وفر القانون الجديد لسلطات تنفيذ القانون أدوات أفضل لمحاكمة المجرمين المتورطين في الخدمة القسرية، والاتّجار بالنساء للجنس، وأعمال السخرة. وبناء على هذا القانون، فإن الاتّجار بالبشر لأي من الأغراض السابقة يعدّ جناية، عقوبة مرتكبها السجن عشرين عاماً، وقد تصل العقوبة إلى السجن المؤبد في القضايا التي تشمل إساءة جنسية شديدة، أو اختطافاً، أو قتلاً. واستحدث القانون فئة جديدة من أذونات (تأشيرات) الدخول - فئة ت - مخصوصة بضحايا الاتّجار بالبشر الذين جلبوا إلى الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية، أو إبقاؤهم في الولايات المتحدة إذا ما تأكد أن هؤلاء الضحايا قد يتعرضون إلى متاعب قاسية، تتضمن أذى شديداً في حال إعادتهم إلى بلدانهم الأصلية. وهناك شرط آخر للحصول على هذا الإذن (التأشيرة)، وهو تعاون الضحايا مع سلطات تنفيذ القانون ضد المسؤولين عن استرقاقهم. ويستطيع الأشخاص الحاصلون على هذه الفئة من التأشيرات التقدّم بطلبات للحصول على إقامة دائمة بعد مرور ثلاث سنوات من حصولهم عليها. أيضاً، يستطيع الضحايا الذين تقل أعمارهم عن واحدٍ وعشرين عاماً أن يتقدموا بطلب استقدام والديهم أيضاً.

وخوّل القانون وزارات حكومية محـددة تطبيق آليات جديدة لمحاربة الاتّجار بالبشـر. ومثلما أشرنا في الفصل الرابع، فقـد أوكل إلى وزارة الخارجية الأمريكية مهمة إنشاء مكتب لمراقبة هذا النوع من التجارة على المستوى العالمي، ورفع تقرير سنـوي إلى الكونجرس، يوضـح أداء الحكومات المختلفة فـي محاربة هذه التجارة ضمـن حدودهـا. في حين أوكل إلـى وزارة الصحة والخدمـات الإنسانية مهمة رفع الوعـي داخل المجتمع الأمريكي عن هذه الظاهـرة، وشمول الضحايا في الخدمات التي تقدمها الوزارة.

وقد أوجد هذا القانون وضعاً قانونيّاً جديداً يشعر فيه الناجون من الاسترقاق بالأمـان عند الكشف عن هوياتهـم لسلطات تنفيذ القانون، وبأنهـم لن يقدموا إلى المحاكمـة، إضافة إلـى استفادتهم من الخدمات الاجتماعيـة المخصصة تحديداً لمساعدتهم. وعلى الرغم من هذا الإطار القانوني القوي، فإن جهود مكافحة الاتّجار بالبشر منذ إقرار القانون عام 2000، ما تزال خجولة. وقد صدرت حتى الآن تأشيرات من فئة ت أو إقامات دائمة لأقل من ألف فقط من هؤلاء الضحايا. وهذا رقم متواضع مقارنـة بعشرات الآلاف من الأشخاص الذين هُرّبوا إلى الولايات المتحدة منذ عام 2000.

أما البيانات المتوافرة عن نجاح محاكمات تجار الرّقيق، فتبدو متواضعة أيضاً مقارنـة بحجـم النشاط الإجرامي. ففي عام 2005، جـرت محاكمة خمسة وتسعين متهماً، وجهت إلى 97% منهم اتهامات بانتهاك قانون حماية ضحايا الاتّجار بالبشر، وهذا العدد يعادل ضعف عدد المتهمين الذين حوكموا عام 2004[4].

وقـد توصلت السلطات الفيدرالية والمحلية في السنوات الأخيرة إلى استنتاج صحيـح مفاده أنها لا تستطيع محاربة تجارة الرّقيق وحدها دون تعاون من المجتمع والجهـات المعنية. ونتيجة لذلك، تكاثرت في الآونـة الأخيرة شراكات مجتمعية في أنحـاء البلاد قاطبة من أجـل ربط المنظمات الأهلية غيـر الحكومية المتخصصة

في محاربة الاتّجار بالبشر مع مقدّمي الخدمات الصحية والاجتماعية، وإدارات الشرطة المحلية.

آنا رودريجيس؛ إبطال السحر

عندما وقّع النائب العام جون أشكروفت قانون حماية ضحايا الاتّجار بالبشر في مؤتمر صحفي في واشنطن، وقفت آنا رودريجيس وشيكا جارسيا Chica Garcia خلفه في مكان بارز. وللمفارقة، فإنَّ كلتا المرأتين لم تكونا قبل سنتين على علم بوجود تجارة رقيق في العصر الحديث. أما الآن، فهما في مقدمة المطبّقين لقانون حماية ضحايا الاتّجار بالبشر.

التقت المرأتان بمحض المصادفة عام 1999. كانت آنا تعمل في مكتب عمدة مقاطعة لولير في ولاية فلوريدا - التي تضم منطقة إيموكالي الزراعية الخصبة - محامية لضحايا الجريمة، وكثيراً ما كان يطلب إليها المساعدة في قضايا العنف المنزلي.

في صبيحة أحد الأيام، أبلغها مكتب العمدة بوقوع اعتداء في حي مزدحم بالعمال المهاجرين. كان شرطة المكتب قد ردّوا على نداء استغاثة في اليوم السابق، وعند وصولهم المكان، وجدوا امرأة جواتيمالية معتدى عليها. أخبرتهم كيف أنها عادت إلى البيت فوجدت زوجها في السرير مع الخادمة المنزلية. وقد اعتدى عليها الزوج بوحشية عندما احتجت على فعلته. لكن الغريب هو أن مكتب العمدة لم يكترث بالأمر، ولم يكلف أحداً بالتحقيق مع الخادمة، وبدلاً من محاولة حل هذا النزاع الزوجي المعقد، أحال المكتب القضية إلى آنا لدراستها.

عندما زارت آنا البيت، قابلت الزوجين كلّاً على حدة. وعندما طلبت التحدث إلى الخادمة، أصبح الزوج عصبيّاً جدّاً، ولكنه لم يستطع رفض طلبها. تزايدت شكوك آنا، فأخذت الفتاة الشابة جانباً لتتحدث إليها على انفراد. قالت الفتاة إنّها

تدعــى شيــكا، وأن عمرها خمس عشرة سنة، وأن صاحــب البيت اختطفها قبل ستة أشهر من قريتها التي يرأس أخوه مجلسها، ثم نقلها على حافلة للركاب عبر الحدود الأمريكيــة - المكسيكية، ومن ثَمَّ عبــر جنوب الولايات المتحدة وصولاً إلى فلوريدا، وأنها تعيش الآن مع مختطفها وزوجته وأطفالهما.

قالت الفتاة أيضاً: إنها كانت تعمل فلاحة في الحقل نهاراً وجارية للجنس ليلاً. كان تاجر الرّقيق هذا يجبرها على العمل في حقول الطماطم، ويظل لصيقاً بها ليتأكد أنهــا لن تتواصل مع عمال الحقل الآخرين. فــي حين ادعى الرجل أن إحضارها إلى الولايات المتحدة كلفه ألفي دولار، ولذلك فإنه سيحتفظ برواتبها إلى حين استرداد ما دفعه. أمّا الزوجة فقد كانت تعمل في المساء، وهذا يعطيه الفرصة لاغتصابها.

أصيبــت آنا بالذهول، لقد سبق لها أن تعاملت مع قضايا كثيرة تتعلق بالإساءة الجنسية والعنف المنزلي، ولكن الحالة التي أمامها عبارة عن عبودية صريحة. وعلى الرغــم من ذهولها، حافظت آنا على هدوئها، وواست شيكا، وقالت: إنها ستوفر لها مأوى على الفور. ولشدة دهشة آنا، رفضت الفتاة مغادرة المنزل بشدة.

أبلغت آنا مكتب العمدة بجريمة الرجل، فاعتقلته، ووضعته في السجن. عادت آنا إلى المنزل مرات عدة في الأسبوع اللاحق، وحاولت إقناع شيكا بمغادرة المنزل والإقامة في مركز إيواء، لكن الفتاة كانت مصممة على رفض هذا العرض. وبعد أن توثقــت عرى الثقة بينهما، بدأت آنا في كشف الغموض؛ توصلت إلى معرفة أن شيكا كانت في التاسعة عشر من عمرها، في حين أمرها الرجل أن تقول: إن عمرها خمسة عشر عاماً حتى يظن الناس أنها ابنة أخيه. وبعد ذلك، عرفت سبب سيطرة الرجل عليها بهذه الطريقة. أخبرتها شيكا بأن الرجل أخذ خصلة من شعرها، وطلب إلى أحد السحرة أن يربطها به، وهذا مُعتقد شائع في مناطق كثيرة في أمريكا اللاتينية؛ بأنه إذا مــا حاولت الهرب، فإن عائلتها سوف تقع في مصيبة، ولهذا فهي تخاف مغادرة المكان حتى لا تحل اللعنة على أسرتها.

عندما فتشت الشرطة محفظة الرجل، وجدت خصلة الشعر في المكان الذي وصفته شيكا تماماً. في زيارتها اللاحقة، لجأت آنا إلى الخديعة للحصول على مساعدة الفتاة. قالت لها: إنها عادت توّاً من زيارة السجن، وإن الرجل قد تنازل عن خصلة الشعر، وسامحها بالنقود التي تدين له بها.

عندئذٍ، اقتنعت شيكا أنها قد تحررت من السحر، فوافقت على مغادرة المكان. وكانت أول من حصل على تأشيرة من فئة ت في الولايات المتحدة. مرّت الأيام، تزوجت شيكا، وأنجبت ثلاثة أطفال من بينهم طفلة اسمها آنا.

لويس ايتونوي؛ تجاوز المحنة

بعد نجاحه في جمع أدلة الجريمة في الكاميرون، وعودته إلى الولايات المتحدة، وجد لويس مصائب كثيرة في انتظاره. لقد اكتشف تجار الرّقيق الشخص الذي سهّل هروب الفتيات، فبدؤوا يتصلون ببيته هاتفيّاً ويهددونه. وتلقى أيضاً مكالمات غاضبة من مواطنين كاميرونيين يعيشون في الولايات المتحدة اتهموه فيها بتلطيخ سمعة جاليتهم. قال له أحدهم: لِمَ لا تدع الأمور على حالها؟ أنت تعرف أن هؤلاء البنات كنّ يعانين من الفقر والبؤس في الكاميرون، وحالهن الآن أفضل بكثير مما كنّ فيه.

وفي الوقت ذاته، ضاقت زوجته ذرعاً بالمأساة التي تعيشها العائلة منذ قدوم البنات الهاربات، ناهيك عن نفقات الأكل، والرعاية الصحية، والاستشارات القانونية. إضافة إلى وضعه المالي قد تردّى لدرجة أن سيارته عندما تعطلت في إحدى زياراته لدائرة الهجرة والتجنيس، لم يجد نقوداً لإصلاحها. وازداد الوضع سوءاً عندما أصرت زوجته على إنهاء هذا الموضوع بأسرع وقت ممكن.

في منتصف عام 2002، بلغت مشكلاته ذروتها عندما عاد إلى البيت ووجد سيارات عدة للشرطة تقف أمام المنزل. أخبرته الشرطة عن تلقيها معلومات تشير إلى أنه يأوي مهاجرات غير شرعيات، وبأنه قد حوّل بيته إلى ماخور للدعارة. عرف

لويس أن مصدر هذه المعلومات هم تجار الرّقيق الذين بعثوا برسائل تشهّر به إلى وكالات الخدمة الاجتماعية ودوائر الشرطة.

هددته الشرطة بوضعه هو والبنات وراء القضبان. ولكن، لحسن الحظ أنه احتفظ بسجل دقيق وموثق لكل ما قام به نيابة عن البنات، واحتفظ بهواتف وعناوين المحامين وضباط القانون الذين قالوا له: إن باستطاعته الاتصال بهم في أي وقت إذا احتاج إلى مساعدة. اتصل رجال الشرطة بهواتف المصادر التي أعطاها لهم، فأكدوا للشرطة أن لويس من الناس الشرفاء.

في أعقاب اقتحام الشرطة المنزلي، نشرت الصحيفة المحلية استطلاعاً صحفيّاً عن أنشطة لويس وأشادت بتضحياته في تحرير الفتيات المُسْتَعْبدات، ثم أخذ الجيران يتوافدون على بيته لتهنئته. واعترفوا له أن هناك من طلب إليهم مراقبة تحركاته. وقال أحدهم: لقد عرفنا الآن سبب مجيء محققين كثر إلى بيوتنا وسؤالهم عنك.

بعد غارة الشرطة، تلك، على بيته، أخذت الأمور مسارها الصحيح: حيث اعتقل تجار الرّقيق، وقدّموا للمحاكمة. وعندما شاهدت هيئة المحلفين الشريط المصور الذي التقطه لويس لأولياء أمور البنات. واستمعت إلى شهاداتهن، أدانت المجرمين بجريمة الاختطاف والاعتداء الجنسي. وحصلت الفتيات على الإقامة في الولايات المتحدة، وتزوجن، والتحقت كلّ منهن بعمل، وما يزلن على اتصال منتظم مع عائلاتهن في الكاميرون. أما لويس، فلم يتوقف عند هذا الحد، بل نجح في إنقاذ ثلاث فتيات أخريات كن أسيرات الاسترقاق المنزلي، ولا يزال يعمل على حل قضايا أخرى. إنه يقول: لا أريد جائزة أكبر مما حققته، فحياتي أصبحت ذات معنى بعد إنقاذ هؤلاء الفتيات.

العبودية في ظلال البيت الأبيض

بـدأت خبرة مشروع بولاريس بعشرات الحالات في محيط العاصمة الأمريكية واشنطن. اكتشف ديريك وكاترين أن العبودية ظاهرة خطيرة، وهي ليست مقصورة على الصين، وتايلاند، ونيبال، وأوكرانيا والدول الفقيرة الأخرى فقط، وإنما هناك شبكات قوية للاتجار بالبشر تعمل داخل الولايات المتحدة وتمتد إلى مراكز التدليك القريبة من البيت الأبيض.

تمثل المواطنات الأجنبيات اللواتي يساعدهنَّ مشروع بولاريس ما يقارب نصف عبيـد الجنس في منطقة العاصمة واشنطن، فـي حين تمثل المواطنات الأمريكيات النصـف الآخر. وتدين الضحايا جميعهن إلى حد ما بالفضل إلى تينا فروندت التي هبّت لنجدتهن في أحلك أوقات حياتهن.

سبـق لتينا أن عملت سنوات عـدّة في إنقاذ ضحايا عبودية الجنس من شوارع مدينة واشنطن، بصفتهـا منسقة لبرنامج التوعية التثقيفية، وكذلك بسبب موقعها الحالـي مديرة لمركز كورتني، وهو منظمة تعنى بتقديم الرعاية إلى اللواتي تحررن من العبودية. وما يقلق تينا هو أن الأمريكيين ما يزالون يعتقدون أن الاتجار بالبشر يحدث فقط للنساء والأطفال خارج الولايات المتحدة. وعن ذلك تقول: المشكلة عندنا هـي أننا عندما نعـرف حالة امرأة أجنبية من ضحايا الاتجار بالبشر فإننا نتعاطف مع معاناتها، ولكننا عندما نقابل فتاة أمريكية في الشارع، فإننا نتعجب ونتساءل: لِمَ اتخـذت هذا الطريـق؟ إنها قادرة على الانسحاب في أي وقت تريد. إننا نقول ذلك: لأننا نجهل حقيقة الوضع. توضح تينا أن أعمار معظم ضحايا الاتجار بالبشر داخل الولايـات المتحدة تتراوح بين اثنـي عشر عاماً وأربعة عشر، وهنّ لا يبعن أجسادهن طواعية. وهي تسأل الذين يعتقدون أن فتيات الشوارع الأمريكيات يفعلن ذلك بمحض إرادتهـن: كم عدد البنات اللواتي تعرفهن في ذلـك العمر، ويخترن الاعتداء عليهن جنسيّاً عشرات المرّات في الليلة الواحدة؟

يمكن لأي واقعة اتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة أن تأخذ صوراً عدّة كأن يختطف تجار الرقيق الأطفال وينقلونهم إلى منطقة داخل البلاد، أو شراء الطفل من والديـن مدمنين مخدرات. وربما يصاحب القوّادون الفتيات الصغيرات متظاهرين أنهم يبحثون عن صداقة، ثم يجبرونهن بعد ذلك على ممارسة البغاء التجاري. إضافة إلى أنهم يرتادون نوادي العراة وسجون الأحداث بحثاً عن ضحايا جدد.

تسـرد تينـا قصـة حادثـة وقعـت مطلـع عـام 2006. اتصلـت فتاتـان - عمـر إحداهمـا ثماني عشرة سنة والأخرى تسع عشـرة سنة - برقم الطوارئ من حمّام أحد فنادق واشنطن. وقد فتحتا رشاش الحمّام كي لا يسمعهما القوّاد ومحظيته اللذان يشاطرانهما الغرفة وهما يجريان المكالمة.

غالبـاً مـا يختار القـوّادون إحدى النساء محظيـة لهـم، ويستخدمونها طُعْماً لاصطياد الضحايا، وهي محط ثقته بعد معاشرتها مدّة طويلة. ثمّ إنها غالباً ما تقوم بالأعمال القذرة التي لا يستطيع القيام بها وحده. طلبت تينا من الفتاتين المذعورتين البقاء في الحمّام، واتصلت هي بالشرطة، وسبقتهما لتكون بانتظارهما عند الفندق. اتصلـت تينا برقم الهاتف المحمـول، وطلبت إلى البنتين أن يسـألا القوّاد إن كانتا تستطيعان شراء ماء غازي من ثلاجة البيع الآلي الموجودة خارج غرفة الفندق. بعد خروج البنتين، اقتحمت الشرطة الغرفة واعتقلت القوّاد ومحظيته.

وبعد إطلاق سراح الفتاتين، عرفت تينا مزيداً من التفاصيل عن قصتهما: تعيش الفتاتـان في مدينة مدويست، وكانتا تعرفان تلك المحظية منذ مدة طويلة. آنذاك، طلبت إليهما إسداء معروف لها. وهو اصطحابها مع صديقها بعد عطل سيارته، حيث كانـت تلك المحظية مضطرة للذهاب إلى واشنطن معه بسبب حصولهما على عمل جديد هناك. وعرضت أن تدفع للفتاتين بدل نقلهما في سيارتهما.

عدّت الفتاتان هذا العرض صفقة مربحة وفرصة لزيارة واشنطن. ولكن الرجل أبلغهما حال وصولهما إلى العاصمة أنهما ملك له. ثم دعا أصدقاء عدة له إلى الفندق

في الليلة الأولى من وصولهما، فتناوبوا على اغتصابهما، ثم قال لهما: عليكما الاعتياد على ذلك، فهذا ما ستفعلانه من الآن فصاعداً.

ولحسن الحظ أنه لم يفتش الفتاتين ليعرف إن كانتا تحملان هاتفاً محمولاً أم لا. وفي الليلة التي سبقت الاتصال، كانتا مع المختطفين في جولة لمعرفة الحياة في شوارع المدينة. في تلك الجولة، صادفا أحد الأشخاص يوزّع على المارة نشرة لمركز بولاريس. فأخذتا النشرة، وانتظرتا اللحظة المناسبة للاتصال بالخط الساخن، وهكذا تلقت تينا مكالمتهما.

تعرف تينا تماماً الصدمة التي يمر بها من يتعرض لاختطاف تجار الرقيق، فهي نفسها أُجبرت على ممارسة الرذيلة عندما كانت في الرابعة عشر من العمر. حينها، كانت تعيش في شيكاغو، عندما تقرّب إليها شاب يكبرها بعشر سنوات، وادعى أنه مولع بحبها - وهذه طريقة اصطياد معروفة تُدعى (الولد العاشق). بعد مرور شهور عدة على تعارفهما، اقترح عليها الهرب بعيداً عن والديها. وافقت تينا على اقتراحه، وانتهى بهما المطاف في مدينة كليفلاند، حيث قال لها: إنهما سيذهبان لزيارة بعض أقاربه. في تلك الليلة، جاء إلى الفندق الذي نزلا فيه عدد من أصدقائه. فطلب إليها صديقها ممارسة الجنس معهم. وعندما رفضت، قاموا باغتصابها الواحد تلو الآخر. وبعد مغادرتهم، قال لها صديقها ببساطة: لم يكن ذلك ليحدث لو أنك استمعت إليّ منذ البداية.

واليوم، تقول تينا للفتيات أو النساء اللواتي تنقذهن: لَسْتُنَّ مرغمات على الإفصاح عن كل ما حدث لكنّ، فقد مررت بهذه التجربة شخصيّاً. عندما تقول ذلك، تنفجر الضحية بالبكاء، وينهار الحاجز لمجرد أن شخصاً آخر يشعر بالألم الذي مررت به.

تقول تينا: ما حدث لي قبل عشرين عاماً، ما يزال مستمراً إلى يومنا هذا. إنّها تدرك أن تجار الرقيق سوف لن يتخلوا عن تجارتهم بسهولة: إنها تجارة تدرّ عليهم

أمـوالاً طائلة. وهي تورد مثـالاً على ذلك: تاجر رقيق في واشنطن كان يحتجز ثلاث شابات في إصطبل، كل واحدة منهن كانت تدرّ عليه ألفاً وخمس مئة دولار في اليوم، أي خمسة وأربعين ألف دولار في الشهر، أي خمس مئة وأربعين ألف دولار سنوياً من خلال بيع هؤلاء الفتيات كل ليلة.

جـاء في شهادة لها أمام لجنة لمجلس الشيـوخ كانت تحاول معرفة عصابات الجريمـة التي تقف وراء تجـارة الرقيق الأبيض: إن القوّاديـن مدلّلون الآن. إنهم لا يخافون الشرطة ولا النظام القضائي؛ لأنهم يشعرون أنهم محصّنون. وفي الحقيقة أننا نحن الذين جعلناهم كذلك من خلال عدم اعترافنا بوجود المشكلة والعمل على حلها.

الجوقة الزامبية؛ ترانيم وابتسامات

عندما اختـاره القسّ جرايمز للانضمام إلى الجوقـة عام 1998، كان جيفين كاشيبـا يتيماً، عمره أحد عشر عاماً. توفيت والدته وهو في الصف الثاني، في حين قضـى أبوه بعد عامين. انتقل جيفين وأشقـاؤه الخمسة للعيش مع عمتهم مارجريت التي كانت تعيل ستة أطفال.

ولذلـك، بدت الوعـود التي قطعها القسّ جرايمز له ولعمتـه حلماً على وشك التّحقّـق، فما الذي يتوقعه أكثر مـن جمع بعض النقود لعائلتـه الفقيرة، والحصول علـى مستوى تعليم رفيع في الولايات المتحدة. ووعد القسّ أيضاً بتعميد الأولاد حال وصولهـم إلى الولايات المتحدة، وهذا وعـد يعني كثيراً لمن يتحولون إلى المسيحية في زامبيا. ويشرح جيفين ذلك بالقول: عندما تكون من بلد فقير، ثم يأتيك شخص من بلد غني ويقول: إنه سوف يوفر لك كل ما ينقصك في حياتك، فإنك سوف تعتقد أن هذه هبة من الله تعالى لا تُردّ.

يبـدو مـن شبـه المستحيل أن يحصـل مواطن زامبـي فقير علـى إذن دخول (تأشيـرة) لزيارة الولايات المتحـدة، لكن أحد كبار الضباط فـي شرطة زمبابوي

تعاون مع جرايمز لتسهيل عملية إصدار التأشيرات لمئات من أطفال الجوقة. ويبدو أن هناك مسؤولين حكوميين آخرين كانوا يتلقون أموالاً من برنامج (تعليم المعلمين كيفيــة التعليم)؛ لأن القسّ الأمريكي استطاع تزوير تواريخ الميلاد على أجوزة سفر الأطفال. وعندما علم أن المشاهدين الأمريكيين على استعداد للتبرّع أكثر لمساعدة الأطفال الصغار، أعدّ ملصقاً بصور أطفال صغار في السن.

لم يفِ القسّ بأي وعد من الوعود التي قطعها للأطفال الزامبين. كان العاملون في مقر البرنامج في تكساس يوقظون الأطفال فجر كل يوم، ويجبرونهم على الحفر لبناء بركة سباحة. وبعد ساعات من العمل الشاق تحت الشمس الحارقة، كانوا يتمرنون على أداء الترانيم بعد الظهر وفي المساء.

وعلــى الرغـم من الإجهاد الذي كانوا يشعرون به فــي نهاية كل يوم، فإن ذلك لا يُقــارن بالتعب الذي كانوا يحسّون به وهم يتنقلون لتقديم عروضهم في أيام تمتد إلى ثماني عشرة ساعة، وسبعة أيام في الأسبوع على مدار شهر في الرحلة الواحدة. كان الأطفــال يسافرون من مــكان إلى آخر وهم محشورون داخل عربة صغيرة. وفي إحدى المرات، وصلوا إلى أحد الأمكنة، وأعدّوا المسرح للعرض، وبعد انتهاء الحفلة الموسيقية، فكّكوه أيضاً. لقد كانوا يقومون بهذه العملية مرات عدة في اليوم الواحد. ويصــف جيفين إحساسهم بالقول: كنت أشعر أنني دمية بأيديهم، يمسكونها بخيط ويحركونها كيفما شاؤوا. كان يطلب إلي الابتسام والغناء بتعابير الفرح الإلهي، لكنّ الترانيم فقدت معناها في نفسي.

بعــد مضي ثلاثة أشهر علــى وصوله إلى الولايات المتحدة، سأل جيفين القسّ جرايمز وابنته باربرا عن موعد بدء الدراسة التي وعد القسّ أنه سوف يوفرها لهم. كانت ردة فعل القسّ وابنته غير متوقعة، إذ انتابهما غضب شديد، وأخذا يصرخان ويشتمان. وقالا له: إنه ناكر للجميل، ويتعين عليه شكرهما لأنه مُنِحَ فرصة العيش في

أمريـكا. كانت تلك أول مرّة وأخيرة يسأل فيها عن الدراسة. وتبيّن أن تعميد الأولاد في الكنيسة كان وعداً كاذباً أيضاً.

بعد وفاة القسّ جرايمز عام 1999، أخذت الأحداث مساراً مختلفاً؛ تولت ابنته باربـرا وزوجها جاري مارتنز المهمـة من بعده: هي لإدارة الشؤون المالية، في حين يشـرف زوجهـا على برامج الجولات الموسيقية. لكن ذلك لـم يغيّر من بؤس الأولاد شيئاً، إذ استمرت معاناتهم مثلما كانت عليه في أيام القسّ جرايمز.

كانت باربرا وجاري مارتنز لا يتمتعان بالكياسة والذكاء اللذين كان يتمتع بهما القسّ جرايمز. فقد قررا في أحد الأيـام ترحيل اثنين من الأولاد إلى زامبيا لأنهما يؤثـران سلباً في عمل الجوقة، فاتصلا بإدارة الهجرة والتجنيس لترحيلهما. عندما أخذهمـا أحـد ضباط الإدارة إلى المطار، كشفا له وهم في الطريق تفاصيل ما كان يجـري في الخفاء. وقد لمس الضابط مصداقية فـي رواية الطفلين، فأخذهما إلى مكان آمن بدلاً من المطار.

فتح الضابط تحقيقاً في نشاط برنامج (تعليم المعلمين كيفية التعليم)، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة فورية، والسبب في ذلك أن باربرا وزوجها كتبا للأولاد ما سيقولونه ردّاً على أسئلة المحققين. وحذّرا الأولاد من أن المحققين سوف يسجنونهم ويعذبونهم إذا ما شعروا أن هناك ما يريب. ويقول جيفين عن ذلك: لقد جعلانا نعتقد أن هؤلاء الضباط لن يساعدونا. في بلادنا، يأخذ المسؤولون الحكوميون الرّشوة كل يوم. نحن لا نثق بمن يرتدي الزي الرسمي.

ونتيجة لهذا التخويف، رفض الأولاد جميعهم الإدلاء بشهاداتهم. ولذلك، لم يتوصل التحقيق إلى نتيجة إلا بعد سبعة أشهر، عندما استطاع ضباط إدارة الهجرة تخليص الأولاد من قبضة المشرفين على برنامج (تعليم المعلمين كيفية التعليم).

عندمــا علمت سانــدي شيبيرد بالأمر، سارعت في الاتصـــال بالشرطة الذين أكدوا لها الخبر، لكنهم قالوا: إنهم سوف يحتجزون الأولاد في إحدى زنازين الإدارة إذا لم يتوافر لهم مأوى آمن. وجدت ساندي عدداً كبيراً من العائلات الذين استعدوا لإيواء هؤلاء الأولاد المنقطعين عن عائلاتهم.

بعد رحلة طويلة مع الفحوص الطبية، واستصدار إذن عمل، وطلبات الحصول علــى التأشيرة، حصلت ساندي هي وزوجها عام 2001 علــى حقّ الوصاية القانونية على جيفين؛ سجّلاه في الصف السابع، أداؤه كان رائعاً في المرحلة الثانوية، تخرج فــي جامعة تكساس. كان يعمل بدوام جزئي، ويرســل معظم ما يكسبه من نقود إلى أشقائه في زامبيا.

عمــل جيفيــن بعد تخرجه على تحقيق وعد لم يفِ بــه القسّ جرايمز، إذ نظّم حملــة جمع تبرعات لبناء مدارس في زيمبابوي، وطــاف الولايات المتحدة ليتحدث عن تجربته، وعن شعور ضحايا الاتجار بالبشر. وكان يقول لمستمعيه: انظروا تحت السطح؛ فضحايا الاتجار بالبشر غالباً ما يكونون في الخفاء. لذا، ابحثوا عن إشارات تبدو لكم مريبة.

اتساع الرؤية

أصبحت كاي بــاك المدير التنفيذي لتحالف إلغــاء العبودية والاتجار بالبشر عام 2003. إنها تتمتع بخبرة عالمية في مجال مناهضة الرق. عاشت كاي، المولودة في كندا، في آسيا من عام 1990 — 1996، واشتركت مع مناهضي الرق في تايلاند واليابان لإعداد إستراتيجيات تكفل الحدّ من حالات الاتجار بالبشر في المجتمعات الريفية. وعلى الرغم من أن الحلول الاقتصادية والاجتماعية الإبداعية قد ساعدت على بناء مجتمعات قوية، فإنّ كاتي لم تتجاهل حقيقة وجود نمط من الثقافة الهدّامة يتمثل في تسامح المجتمع مع العنف ضد النساء.

لـم تكن كاتي الوحيدة التي تتمسك بهذه القناعـة، بل إن أي تحليل موضوعي لتجـارة الـرق العالمية يدعـم هذا الاستنتاج؛ فلـو أخذنا خمساً مـن ضحايا تجارة الرقيـق عينةً، سنجد أن أربعاً منهن من النساء. ولا تختلف النتيجة كثيراً، حتى وإن فصلنـا عبودية الجنس عن أعمال السُّخرة. ومع أن الإناث هن الفئة المُستهدفة في تجارة الرقيق، فهنّ الأغلبية بين قوة العمالة القسرية في المصانع، ومصانع النسيج والسجاد، والخدمة المنزلية، وغيرها أيضاً. وتظهر البحوث أن الأنثى، بغض النظر عن نوع عبوديتها، تتعرض في معظم الحالات إلى العنف الجنسي.

عندما غادرت آسيا، انضمت كاتي إلى منظمة كندية غير حكومية، تعنى بالعنف الاجتماعـي ضد النساء. ومع أن الألفاظ قد تغيرت - من الاتجار بالبشر إلى العنف على أساس النوع الاجتماعي - فإنها ما تزال تتعامل مع القضايا نفسها التي واجهتها فـي آسيا. وعندما لاحت لها هذه الفرصة لرئاسة تحالف إلغاء العبودية، عادت مرة أخرى لاجتياز متاهات الاتجار بالبشر. كانت مؤسسة النساء في ولاية كاليفورنيا أول مؤسسـة خاصة تدعم عمل الائتلاف؛ لاقتناعهـا بأن موجة مكافحة شبكات الاتجار بالبشر في العالم سوف تبلغ أوجها عندما تتحد النساء على المستوى العالمي لدعم النساء الأخريات.

من غير الإنصاف تصنيف هذا التحالف على أنه منظمة نسائية؛ لأنه يعمل من أجـل مساعدة الناجين من الـرق ومعاقبة تجار الرقيق عموماً. يختلف التحالف عن غيره من المنظمات في مجال تدريب الشرطة على كيفية تحديد الضحايا المحتملين، وإنقاذهم، وتوفير الرعاية لهم لاحقاً. وقد نُظِّمت برامج تدريب للشرطة في ولايات أمريكية عدة.

في إحدى ورشات التدريب عام 2005، كان الخلاف في دوريات الحدود قد بلغ أشدّه بعد ظهـور منظمة خاصة أخذت على عاتقها مهمة منع المهاجرين من دخول الولايـات المتحدة، وهذا ما جعل شرطة أريزونا تعلـن أنها غير مسؤولة عن تطبيق

قوانين الهجرة. وقالت: إن التهريب مسألة فيدرالية وليست من اختصاص الولايات. لكن القائمين على الورشة أوضحوا للمشاركين فيها الفرق بين التهريب من جهة (وهي جريمة يقوم فيها أفراد بمساعدة المهاجرين على عبور الحدود دون وثائق أو موافقة رسمية) والاتجار بالبشر من جهة أخرى (وهي جريمة يُجبر فيها أفراد أو يُخدعون لدخول الولايات المتحدة، ثم يضطرون إلى العمل رغم أنوفهم).

وأكد قائد دائرة شرطة مدينة لوس أنجلوس الذي يتعامل مع قضايا الاتجار بالبشر على أهمية التدريب لإرساء الشراكة بين الشرطة والمجتمع. وقال: غالبا ما تكون هذه التجارة طيّ الخفاء؛ لذا، علينا التشديد على الدلالات والإشارات التي قد تقود إليها. في الماضي، كنا نشدد على الجريمة التي نحقق فيها. ففي قضية تتعلق بالعنف المنزلي، مثلاً، لم نكن نسأل الضحية عن موطنها، أو كيف يمكن أن تكون قد وقعت تحت سيطرة صاحب المنزل.

وشدّد أيضاً على أهمية التعاون بين الشرطة والمنظمات غير الحكومية من أجل كسب ثقة الضحايا والشهود المحتملين في قضايا التجارة بالبشر؛ حيث تستطيع المنظمات غير الحكومية مساعدة الشرطة على إقناع المواطنين الأجانب الذين يخافون التحدث إليها، بأنها تقف إلى جانبهم، وسوف تسعى إلى معاقبة كل تاجر رقيق. وفي الوقت ذاته، تستطيع المنظمة غير الحكومية مساعدة الشرطة على فهم القضايا الثقافية غير المُعلَنة التي يضيفها الضحايا أو الشهود إلى القضية.

آنا رودريجيز

ولدت آنا في مدينة سان خوان في بورتوريكو. وعندما جاءت إلى فلوريدا بعد انتقال والدها إلى العمل في فرع الشركة في (ولاية الحمضيات)، كان عمرها ثمانية عشر عاماً. ثم تزوجت مبكراً وأنشأت عائلة. وبعد أن كبر أطفالها، أخذت تفكر في

الكيفية التي تمكنها من مساعدة مجتمعها المحلي. وسنحت لها الفرصة عندما دعاها مدير برنامج العنف المنزلي للعمل التطوعي في ملجأ البرنامج أياماً قليلة كلّ شهر.

أحبت آنا العمل في الملجأ، واكتشفت أن لديها القدرة على التعامل مع الأزمات بأعصاب باردة. ولذلك، سُرعان ما أخذ الناس يأتون إليها لمساعدتهم على حل مشكلاتهم. ولأنها تتمتع بشخصية دمثة، فإنها لا تشعر الضحايا بالخجل لحالهم، بل تجعلهم يشعرون بأنها إلى جانبهم وليست ضدهم.

وفي أثناء عملها في الملجأ، تعاونت آنا مع جهاز القضاء لتقديم قضايا العنف المنزلي إلى المحكمة. في الماضي، لم يكن المحققون أو المدّعون العامّون يستطيعون إقناع النساء المعنّفات للحديث عما فعله بهن أزواجهن أو اصدقاؤهن. يضاف إلى ذلك أن معظم العمال المهاجرين في ولايتها لا يثقون برجال الشرطة. وهم يخافون من قيام الشرطة بإبعادهم إذا ما أبلغوا عن جريمة ما. ولذلك، أصبحت المحاكم، الآن، تنظر في قضايا لم يكن من الممكن النظر فيها سابقاً بسبب تحفظات الضحايا.

انضمت آنا عام 1995 إلى مكتب عمدة المقاطعة للعمل مسؤولة ارتباط مع المجتمع المحلي. وقد تطلبت هذه الوظيفة منها بذل جهد كبير؛ لأن عمال المزارع يبدؤون يومهم في الساعة الرابعة صباحاً، وينتهون من العمل عند الغسق مساء. وعندما توطدت عرى الثقة بينها وبين مجتمع المهاجرين، أصبح مكتب العمدة يزدحم بالمشتكين كأنه عيادة طوارئ في مستشفى عام.

بعد قضيتهما الأولى مع الفتاة الجواتيمالية شيكا جارسيا، لمست آنا تزايداً في أعداد حالات الاتجار بالبشر، ولكن ندرة الخدمات المقدمة للضحايا كانت تسبب لها إحباطاً. في احدى المرات، أنقذ مكتب العمدة سبعة أطفال هُرّبوا إلى الولايات المتحدة لغايات الجنس، ولم تعثر آنا على أي مكان يأويهم؛ لأن الجهاز القضائي لا يدير سوى سجون الأحداث التي يوضع فيها الأطفال الهاربون من عائلاتهم والخارجون على القانون من الأقليات. أما ضحايا الجريمة فلا يمكن إيواؤهم في السجن.

كمــا أعربت آنا عــن سخطهــا؛ لأن كثيراً مــن قضايا الاتجــار بالبشر أخذت تتعثــر، ولا تصــل إلى المحكمــة البتّة. إنّ النظر فــي قضية الاتجــار بالبشر يتطلب تفانيــاً وإخلاصــاً؛ لأنها مكلفة وتستغــرق وقتاً طويلاً، فكثيراً مــا تكون هناك حاجة إلــى إرسال محقق إلى دولة أجنبية للكشف على الموقع الأصلي للاختطاف. يضاف إلــى ذلك تــردّد الضحايا في التعــاون لأنهم رُوّعــوا نفسياً، أو هُــدِّدوا بالقتل إذا ما تقدّمــوا للشهادة. وربما يلجأ تجار الرقيق إلى تصويــر الضحية في مشاهد جنسية مَشينــة، ومــن ثــمَّ التهديد بإرســال المشاهد المصــورة إلى عائلتهــا وجيرانها في بلدها الأم.

بعــد أن لمست بنفسها الأسباب كلها التي قد تؤدي إلى الإحباط، استقالت آنا من مكتب العمدة، وأنشأت تحالف فلوريدا لمناهضة الاتجار بالبشر. وبصفتها مديرة تنفيذية لهذا التحالف، فقد كان هدفُها الرئيس إيجادَ وكالة تربط بين أجهزة تنفيذ القانــون، ومؤسســات الخدمة الاجتماعية، وضحايا الاتجــار بالبشر. استطاعت آنا الحصول على التمويل من جهات حكومية عدة - على رأسها وزارة الصحة والخدمات الإنسانيــة - ومتبرعين قليلي العدد. وإضافة إلى هذا المنصب، تعمل آنا مدربة في الاتجار بالبشر لمنظمة الدول الأمريكية. وهي تؤمن أن وقف عمليات الاتجار بالبشر يتطلــب جهداً مجتمعيّاً واسعاً. وعليه، أقامت علاقة وثيقة مع سلطات تنفيذ القانون المحلية لضمان حصول رجال الشرطة على التدريب الكافي للتعامل مع قضايا هذه التجــارة. ولهــذه الغايــة، فإنها تعقد ورشات عمــل لأي مجموعة يمكــن أن يكون لها احتكاك مع الناس في بيوتهم أو أمكنة عملهم. ومثال ذلك، فإنها تدرب عمال شركات الخدمات الذين يقرؤون عدادات المياه والكهرباء في الأحياء السكنية، وكذلك موظفي الرعايــة الاجتماعية والصحية الذين يزورون البيوت. والغاية من هذا التدريب هي: كلما زاد عدد الأشخاص الذين يعرفون المؤشرات التي عليهم البحث عنها، زاد عدد الضحايا الذين يمكن إنقاذهم.

نجحت وحدة في إنقاذ مئتين وخمسين ضحية في ولاية فلوريدا عام 2009. وهي تحدد في ندواتها البؤر التي يمكن أن يوجد فيها هؤلاء الضحايا، وهي: خدمات تنظيف المنازل، وخدمات البستنة والحدائـق، والبيوت التي تستقدم الخدم، والمشروعات الزراعية الكبيرة، ومواقع البناء والإنشاءات، والملاهي، ومصانع الملابس والنسيج، وخدمات الفنادق، ومحال التجميل، وتجمعات المهاجرين، وأسواق الدعارة، وصالونات التدليك، وحـالات العنف الأسري. بعد تحديد هذه الأماكن، تطرح على المشاركين مجموعـة من الأسئلـة ليستطيعوا من خلال الإجابة عنها تعـرّف حالات الرق. ومن هذه الأسئلة:

- هل تتمتع الضحية المحتملة بحرية الحركة؟
- هـل يُسمح للضحية المحتملـة بالاحتكاك بالمجتمع،أوحضـور المناسبات الاجتماعية والدينية دون مرافق؟
- هل الضحية صغيرة السن؟ وهل تبدو تحت سيطرة أحد البالغين غير أبويها؟
- هـل يوجد للسكـن أبواب خارجية ذات أقفال؟ أو: هـل هو محاط بأسلاك شائكة متجهة إلى الداخل لمنع الناس في داخل السكن من الخروج؟
- هل هناك ألواح مثبتة على النوافذ؟
- هل هناك حركة دخول وخروج منتظمة لرجال؟
- هل تبـدو النساء اللواتي يدخلن ويخرجن مـن السكن تحت مراقبة دائمة من الحراس؟
- هل تعرضت الضحية المحتملة إلى تهديد بالترحيل؟
- هل تعرضت الضحية المحتملة أو أحد أقاربها، إلى التهديد بالأذى إذا ما حاولت الهرب؟

- هل تملك الضحية المحتملة وثائق ثبوتية (جواز سفر) مثلاً؟ وإذا لم تمتلك هذه الوثائق، فمن الذي يحتفظ بها؟

- هل لُقِّنت الضحية المحتملة ما ستقوله في حال التحقيق معها من قبل سلطات تنفيذ القانون؟

- هل أجبرت الضحية المحتملة على القيام بعمل ما؟

- هل أُرغمت الضحية المحتملة على القيام بممارسات جنسية؟

- هل حُرمت الضحية المحتملة من: الطعام، أو الماء، أو النوم، أو الرعاية الصحية، أو إحدى ضروريات الحياة؟

ومرة تلو أخرى، تثبت خبرة آنا أن الحال سوف يتغير عندما يتعلم الناس قراءة إشارات التحذير بوجود عبودية، ويشعرون بالثقة في اتخاذ إجراء صارم بحق المتورطين فيها. فمثلاً، بعد دورة تدريبية في إبريل عام 2005، تقدّمت إحدى العاملات في مجال الرعاية الاجتماعية من آنا، وقالت لها: إنها تعرف فتاة في أحد المنتجعات السياحية تنطبق عليها مواصفات ضحايا الاتجار بالبشر.

بعد أيام قليلة، رافقت آنا قوة من الشرطة التي داهمت المنتجع، وأنقذت فتاة جواتيمالية تبلغ من العمر أربع عشرة سنة، وقد كانت مُستعبدة منذ ثلاث سنوات، على يد تاجر الرقيق الذي يملك المنتجع. كان صاحب المنتجع يجبرها على إعداد وجبات الطعام للعمال، وكان يحبسها داخل المنزل عند خروج العمال لعملهم. وكان يغتصبها، ويسمح للعمال وللموردين الذين يطالبونه بديونهم بممارسة الرذيلة معها أيضاً.

ذكرت الطفلة في إفادتها أنها كانت حاملاً في شهرها السادس، العام الماضي. ومع ذلك، فقد كان تاجر الرقيق يضربها بقسوة، فهبّ أحد الجيران لمساعدتها،

ونقلها إلى المستشفى حيث أجهضت هناك. أبلغ الجار الشرطة بالحادث، لكنها لم تتخذ أي إجراء، وعدّت القضية نزاعاً عائليّاً.

كانت آنا تسرد هذه القصة لتبيّن الأثر الذي يمكن أن يحدثه تكاتف أفراد المجتمع. ولأنّها لم تقبل أن يظل المجرم دون عقاب، فقد ظلت تصرّ على الشرطة إلى أن تدخلت، واعتقلت الفاعل الذي اعترف بجريمة الاتجار بالأطفال لغايات الجنس. ولم يكن هو الوحيد الذي حُكم عليه بالسجن، بل حُوكمت أيضاً شقيقته لتسترها على الجريمة، وكذلك على أحد شركائه الذي مارس الجنس مع قاصر مقابل دين مستحق على صاحب المنتجع.

وتؤكد آنا أن أشياء كثيرة قد تغيرت في العقد الماضي، ويعود الفضل في ذلك إلى إنشاء جبهة المجتمع الموحدة التي يمكنها هزيمة شبكات الاتجار بالبشر. لكنها في الوقت ذاته لا تستهين بأي عمل مهما كان متواضعاً، ومن ذلك توعية المجتمع؛ لأن الاتجار بالبشر يمكن أن ينجح فقط إذا ما بقيت الضحايا بعيدة عن أنظار الناس. لذا، علينا أن نكشف حجاب الجهالة.



الخاتمة

القضاء على الاتّجار بالبشر في هذا العصر

إنني شديد الإيمان بقوة الأفراد في إنقاذ العالم، وبأن الحركات الاجتماعية تتجذّر وتتفتح عندما يتحد عدد كاف من الأشخاص للقيام بعمل ما. أما إذا أوهمتَ نفسك أنْ ليس بيدك حيلة، وأنك لا تستطيع القيام بأي بادرة للقضاء على تجارة الرق العالمية، فأنت في الحقيقة تستهين بقدراتك، وتفقد الأمل في إنقاذ القابعين في غياهب الأسر والعبودية.

وسأروي خبرة مررت بها في مطلع ثمانينيّات القرن الماضي. آنذاك، ذهبت إلى السلفادور لزيارة المنظمات الشعبية التي تزود المجتمعات الفقيرة بالغذاء والمساعدة الطبية. لم يكن لديّ خطة أو هدف أكثر من معرفة ما الذي يمكنني عمله لمساعدة هذه المنظمات

في ذلك الوقت، كانت هناك حكومة عسكرية تحكم البلاد وتروّع السكان، ولم يكن الجنرالات، على وجه التحديد، يحبّون المجموعات المنادية بالديمقراطية والتنمية الاجتماعية للمناطق الفقيرة. وقبل وصولي بسنتين، قُتل رئيس أساقفة كنيسة الروم الكاثوليك، أوسكار روميرو، برصاصة في قلبه وهو يرعى قدّاساً، واقفاً خلف مذبح الكنيسة؛ لأنه درج على انتقاد الفظائع العسكرية ضد المدنيين.

وفي العام اللاحق، اغتصبت فرق الموت العسكرية أربع راهبات أمريكيات كنّ يعملن في مخيمات اللاجئين، ومن ثمَّ قتلتهن. كان الردّ الأمريكي سريعاً؛ إذ أوقف الكونجرس المساعدات الاقتصادية الأمريكية عن ذلك البلد.

حتى ذلك الوقت، كانت فرق الموت مطلقة الحرية فيما تشاء فعله، إذ كانت تتجسّس على المطالبين بالتغير الاجتماعي، ثم اقتحام بيوت المشتبه بهم ليلاً، وقتلهم، وإلصاق ورقة على الجثة مكتوب عليها (هذا جزاء المخربين).

في أثناء زيارتي الأولى، طلب إلي أصدقائي الجدد تأسيس برنامج لحقوق الإنسان يحميهم من فرق الموت. وفي الواقع، لم تكن لدي أي خبرة في مثل هذا النوع من العمل، بل لم يسبق لي المشاركة في أي نشاط سياسي من قبل. لقد تخرجت في الجامعة توّاً، بعد أن حصلت على شهادة في علم النفس.

بعد انقضاء تسعة أشهر، أعاد الكونجرس الأمريكي المساعدات الاقتصادية والعسكرية إلى السلفادور، ولكن بعد أن استوعب الجنرالات الدرس جيداً، وهو: لا بأس من قتل السلفادوريين، أمّا الأمريكيون فلا. لقد استفدت شخصيّاً من هذا الدرس، وقررت استغلال قيمة المواطنة الأمريكية لإنقاذ حياة مواطن سلفادوري. جنّدت بعض أصدقائي ومعارفي للذهاب إلى السلفادور للعمل حرّاساً شخصيين غير مسلحين. وقلت لهم: إن حمايتهم الوحيدة هي أجوزة سفرهم الأمريكية.

كانت الخطة الأولية بسيطة: إرسال فريق من ستة مواطنين أمريكيين إلى السلفادور لقضاء شهر كامل، يصاحب خلاله عضو في الفريق مواطناً سلفادوريّاً يعمل في مجال الرعاية الصحية أو محو الأمية ممن تلّقوا تهديدات بالقتل، في حين يلازم عضوان آخران منزل الشخص المُهدَّد، وآخران يحرسان مكتبه خشية تفجيره من قبل فرق الموت. أما العضو السادس، فيزور قائد الشرطة العسكرية ومسؤولاً حكوميّاً كبيراً، والسفير الأمريكي لإبلاغهم أن مواطنين أمريكيين ربطوا مصيرهم بمصير الشخص المُهدَّد.

شاركت في الفريق الأول الذي ذهب إلى السلفادور عام 1984. بعد انقضاء أيام قليلة، جاءنا رئيس الكنائس المعمدانية، كارلوس سانشيز، حاملاً معه رسالة

مــن أسوأ فرق الموت تقــول: (ما لم تترك البلاد في غضون ثمــان وأربعين ساعة، فسوف تُقتل أنت وعائلتك).

في الماضــي، تلقى سانشيز تهديدات مماثلة بالقتل في مناسبتين مختلفتين. وقــد بعث بعائلته إلى خارج البلاد مدة عام كامــل، ولكنه يرفض مغادرة البلاد بعد تولّيه مسؤوليات الكنائس المعمدانية في السلفادور. لذلك، سألنا إنْ كان باستطاعتنا مساعدته هو وعائلته على البقاء في البلاد.

أعددنــا خطة عمل سريعة، وكلّفنا خرّيجاً جامعيّاً لمرافقة سانشيز على مدار الساعة، في حين ذهب عضوان من الفريق إلى بيته للبقاء مع زوجته وأطفاله الأربعة، وذهب آخران إلى مقر المجّمع الكنسي. أما أنا، فزرت السلطات، وحذرتها من احتمال حدوث أزمة عالمية إذا لم تُتّخذ إجراءات سريعة لوقف فرق الموت عن تهديدها. وقد نفــت كل جهة مسؤولة من الجهــات التي زرتها أي علم لها بهوية (مجموعات الظل) تلك. لكني قلت: إن باستطاعة هذه السلطات وقف عمليات الاغتيالات، وأكدت التزامنا بالوقوف إلى جانب أصدقائنا السلفادوريين.

ولحســن الحــظ، نجحــت هذه المنــاورة؛ فقد استمــر سانشيز فــي العمل مع المجتمعات المحلية دون أن يتعرض لأي أذى. أما نحن، فواصلنا إرسال فرق جديدة من المواطنين الأمريكيين للقيام بالدور المرسوم لهم في حماية أرواح السلفادوريين المعرضين للخطر.

ولكن، تمكنت السلطــات السلفادورية، أخيراً، من اكتشاف القيادة المسؤولية عن نشاط حقوق الإنسان، فمنعتني من دخول البلاد، وواجه كثير من أعضاء فريقنا صعوبــة في الحصول على أذونات (تأشيرات) دخول إلى السلفادور. ولمواجهة هذا التّغير، انتقلنا بسرعة إلى الخطة ب. فقررنا إنشاء وكالة للتنمية الاقتصادية بوصفها واجهــة لمجموعة حقوق الإنســان. وأذكر أنني اتصلت بأحــد زملائي في الجامعة، وطلبــت إليه الذهاب إلى السلفادور ليكون أول خبير زراعي. كان صديقي قد حصل

علـى شهادة في اللاهوت، ولكن عندمـا اتصلت به، كان يعمل على رافعة في مصنع ألبان. كان ردّه منطقياً عندما قال: ولكني لا أعرف شيئاً عن الزراعة. فشرحت له أن لا أهمية لذلك؛ لأن مهمته الرئيسة ستكون في مجال حقوق الإنسان تحت اسم خبير زراعي. واتصلت بأصدقاء آخرين طالباً منهم القيام بأدوار أخرى، مثل: خبير تغذية، عامـل رعاية صحية، وهلمّ جرًّا. كان عمر كلّ منا لا يتجاوز السادسة والعشرين، ولا يتمتع بأي خبرة في المهمة التي كُلّف بها.

لقد حدثت تطورات كثيرة طوال أكثر من عشر سنوات قضيناها في السلفادور، إلـى حيـن توقيع اتفاق السـلام الذي أدى إلى نهايـة الحرب الأهليـة. وكي لا نغرق فـي التفاصيـل، فقد ظللنا نمارسـ أنشطة حقـوق الإنسان وحمايـة أرواح كثير من السلفادوريين. وتطوّر مشروعنا ليصبح وكالة فاعلة للتنمية الاقتصادية، إضافة إلى اكتساب العاملين مع الوكالة مهارات عالية في مجالات لم يسبق لهم أن تدربوا عليها. لقد اكتسبوا من هذه الخبرة معرفة وحبّاً للضِعاف، وشجاعة للدفاع عما يؤمنون به.

نجحنـا؛ لأننا لم نقتنع بما قاله لنا عائلاتنا وأصدقاؤنا والسياسيون في أن ما يجري في السلفادور هو مشكلة عالمية أكبر منّا، وأن إحداث أي تغيير يفوق قدراتنا.

وهـذا مـا يجعلني اليوم أكثر اقتناعـاً بأن كل فرد يستطيـع أن يقدّم مساهمة قيّمة في سبيل القضاء على تجارة الرق في العالم. وإذا كنت من المشككين في هذه الحقيقة، فلأنك تستهين بقوة قدراتك الشخصية؛ ربّما.

إن كل ما تطلبه الأمر لحماية حياة مواطن سلفادوري في ذلك الوقت هو إظهار جـواز السفر الأمريكي. ولكن ما قد يحدث الفرق في بعض الأحيان هو شخصيتك، وليسـ فقط ما يمكن أن تفعله. وبين هذا وذاك، تظـل الخطوة الأولى هي الأصعب: إنها الالتزام بالعمل.

رسالة محاربة الرّق

بصفتي أستاذاً جامعيّاً، كثيراً ما أناقش طلابي في رغبتهم الشديدة في الحصول على مهنة أو وظيفة بعد التخرج في الجامعة. عندئذٍ، أقول لهم: إنهم سيكونون أكثر تأثيراً لو أنهم بحثوا عن رسالة مهمة بدلاً من ذلك.

كيف تُحدّد المهمّة؟ بمقدورك تحديد مكان التقاء ميولك مع احتياجات العالم. الجزء الأول من هذه المعادلة هو إشغال نفسك بتلك الأنشطة التي تعتقد أن الله استخلفك في هذه الأرض لعملها. أما الجزء الآخر فهو تنفيذ هذه الأنشطة بما ينفع الناس. ولاشك في أن العالم مليء بالتعساء الذين يمارسون عملاً خارج مجال اهتمامهم، بل يقومون به من أجل جمع المال، أو لتحقيق حلم شخص آخر.

وإذا كنت لا تريد أن تكون من هؤلاء النفر، فإن الفرصة متاحة أمامك للانضمام إلى قافلة الخلاص التي تهدف إلى إنهاء الرق من العالم إلى الأبد. هذه القافلة، تحتاج إلى موجة جديدة من مناهضي العبودية للمشاركة في نضالها. إنها تحتاج إلى محامين لحماية حقوق الضحايا ومحاكمة المتاجرين بهم. إنها بأمس الحاجة إلى أصحاب مشروعات تجارية لتشغيل العبيد المُحرَّرين. وهناك حاجة، أيضاً، إلى طلاب؛ لإجراء البحوث والدراسات والتأثير في السياسات. إضافة إلى أطباء واختصاصيين نفسيين لإعادة الحياة إلى النفوس المحطمة. وإلى عمال الإنشاء لبناء الملاجئ. إنها في حاجة إلى من يملك بطانيتين، يتبرع بإحداهما. باختصار، تحتاج حركة محاربة الرق إلى وقتك، وموهبتك، ونقودك.

انطلاق الحملة

لقد كتبت الطبعة الأولى من هذا الكتاب مدفوعاً بإيمان عميق في أن حركة مناهضة الرق تحتاج إلى مواهبنا. ولأنني احترف الكتابة، فقد قررت استخدام فضولي الفطري، ومهارات الاتصال لديّ، لتوعية الناس الذين لا يدركون أن هناك

الملاييـن من ضحايا الاتجـار بالبشر في هذا العالم. وذلـك عندما سمعت بوجود عبودية في الحي الذي أعيش فيه.

عندما بدأت في استقصاء تجارة الرقيق في ست قارات عام 2006، لم أكن أنوي إنشـاء منظمة جديدة. بل تمنيت أن أشجع الناس على الانضمام إلى أبطال العصر الحديث المناهضين للعبودية. كانت الفكرة عندي بسيطة: وهي البحث عن الحقيقة ونشرها. وتهنئة نفسي عند طباعة الكتاب؛ لأنه سوف يثقّف الناس ويحفّزهم، ومن ثمَّ أنتقل بعد ذلك إلى مشروع الكتابة اللاحق.

كنت قد انتهيت من الكتاب عندما تلقيت مكالمة هاتفية من الرسامة التايلاندية كرو نام التي وعدتها في لقائنا الأول بجمع تبرعات لبناء بيت دائم لخمسة وعشرين طفـلاً الذيـن أنقذتهم من براثن تجـار الرقيق. في ذلك اللقاء، تبيـن لي أن البيت المطلـوب لا يكفـي لإيواء هذا العدد من الأطفال، ولا سيّمـا أنها كانت مصمِّمة على إنقاذ مزيد من أطفال الشوارع. فقلت لنفسي: سأجمع تبرعات لبناء بيتين لا واحد.

إن مكالمتهـا الهاتفيـة لي في أكتوبـر 2006 لا تُنسى. اتصلـت لتقول لي: إنها أنقـذت ثمانية وثمانين طفلاً، وإنها تحتاج إلى قرية صغيرة لإيوائهم وليس إلى بيت أو بيتيـن فقط. لقد وضعتني أمـام لحظة حاسمة. فإما أن أديـر لها ظهري، وأقول لهـا إن دوري ينحصر في الكتابة والمحاضـرات، أو أن أعمل ما بوسعي لمساعدتها ومساعدة الأطفال الذين أنقذتهم من العبودية.

في ذلك اليوم، تحدثت إلى عائلتي وإلى اثنين من أصدقائي، وقررنا المجازفة. تماماً مثلما فعلت عندما غامرت بالذهاب إلى السلفادور قبل عشرين عاماً. قضيت وقتاً طويلاً مع صديقيّ ونحن نخطط، ونحلم، ونحضّر لإطلاق حملة (ليس للبيع).

أحيانـاً، يسألني الناس عن سبب إنشاء منظمة جديدة بدلاً من الانضمام إلى مجموعـة من المجموعـات الحالية. وكنت أجيبهم بأنه عندمـا أخذنا ندرس حركة

مناهضة الرق في الولايات المتحدة، اكتشفنا أن معظم المنظمات غير الحكومية كانت تدار من اختصاصيين، وتهتم بقضية واحدة فقط، مثل تزويد الخدمة اللاحقة بعد العلاج الطبي، أو مجموعات التأييد والدعم والمساندة والتأييد التي تشدد على التغييرات التشريعية، أو مراكز البحوث. وقد هدفنا من وراء إنشاء حملة (ليس للبيع) إلى سد الفجوة من خلال حشد قاعدة شعبية للعمل على المستوى المحلي والوطني والعالمي.

أُعلن عن إطلاق الحملة رسميّاً في فبراير 2007، وتزامن هذا الإعلان مع الذكرى المئوية الثانية للقرار التاريخي الذي اتخذه البرلمان بإلغاء تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي.

الحراك الذكي

في أثناء حرصنا على إنشاء حملة (ليس للبيع) طوال عام 2007، حرصنا على استخدام تقنيات مبتكرة، وعلى تثقيف الأفراد المتحمسين عن أدوارهم في محاربة الاتجار بالبشر في مناطقهم. وباختصار، أردنا تكوين مجموعات من (النشطاء الأذكياء).

تهدف الحملة إلى حشد الطلاب، ورجال الأعمال، والفنانين، ورجال الدين، والرياضيين، وضباط تنفيذ القانون، والسياسيين، وموظفي الرعاية الاجتماعية، والاختصاصيين المهرة، وجميع الساعين إلى تطبيق العدالة؛ من أجل محاربة تجارة الرق العالمية.

وقد عرضنا عام 2007 فكرة نشاط المصدر المفتوح، وهي أحد المبادئ التي تقوم عليها الحملة.

إنّ نشاط المصدر المفتوح يشجع الأفراد المناهضين للعبودية على وضع حلول إبداعية مخصوصة بهم في الأماكن التي يعيشون فيها. ويحث هذا التوجه اللامركزي

أعضــاء الحملة على تحديد مظاهر العبودية في مدينتهم، أو ولايتهم، أو مقاطعتهم مــن خلال الإجابة عن عدد مــن الأسئلة الأساسية، مثل: مــا القوانين المطبّقة؟ ما المنظمــات المناهضة للرق العاملة فــي المنطقة؟ من الذي يشرف على البحث عن مواقع محتملة للرق؟ أين مواضع الخلل؟

ويحفّز نشاط المصدر المفتوح الأفراد والمجموعات الصغيرة المسلحة بتلك المعلومات على ممارسة سلطة اجتماعية، والتعاون في الوقت ذاته مع الآخرين لتبادل الفِكَر والمشاركة في الموارد.

ولأنني عايشت مراحل إنشاء الحملة منذ بواكيرها، فقد مارست دوري بوصفي أستــاذاً جامعيّاً: لحشد مجموعة مــن الطلاب في جامعة سان فرانسيسكو؛ لمراقبة الأعمــال المشبوهة التي قد تكون واجهات للعمل القسري، وهي مهمة لم تكن ضمن أولويات الشرطة المحلية أو اهتمامها.

ومــن خــلال العمل مع أحــد الزمــلاء، أعددنــا إستراتيجيات للبحــث، كوّنت الأســاس للأساليب التي ندّرسها الآن في أكاديميــة (ليس للبيع). إنني معجب جدّاً تجاه المجموعة الأولــى من الطلاب الجريئين، الذين بدلاً من الانسحاب من قائمة المحاضرة عندما أبلغتهم بموضوع المقرّر، تحمسوا للموضوع واكتشفوا العبودية في مجتمعاتهم المحلية.

بعــد أشهر مــن متابعتهم لحــالات الاتجار بالبشــر المحتملــة، اكتشفت تلك المجموعــة الطلابية أحد محال التدليك التي تــدور حوله الشبهات. وكان يعلن عبر (الإنترنت) عن (فتيات آسيويــات مثيرات يصلن بالباخرة كل أسبوع)، وكأنه يعلن عن فواكه طازجة مستوردة حديثاً.

فــي الواقع، كانت رغبة الطــلاب في مراقبة المكان بسريــة تامة. فقلت لهم: إننــي لا أقبل التضحية بهم؛ لأن استخدام أحدهــم لمواهبه وحماسه لخدمة قضية

محاربة الرق شيء، وتعريض نفسه إلى الأذى شيء آخر تماماً. لقد تصورت الضجة الإعلاميــة التي ستحدث لو أنني سمحت لهــم بالقيام بهذه المهمة، ثم تعرضوا إلى أذى، أو إلى أسوأ من ذلك. إنّ هذا سوف يؤدي إلى وقف تكرار البرنامج في أي مكان آخر: إنه إجراء غير مناسب.

ومع ذلك، كان الطلاب محقين بخصوص شيء واحد: ضرورة دخول شخص ما إلى محل التدليك وبحوزته آلة تصوير خفية لمعرفة ما يحدث وراء الأبواب المغلقة. وقــد تطوعت مع أحد زملائي، على أننا رجلا أعمــال من خارج المدينة. ذهبنا إلى ذلك المحل، وحصلنا على الدليل المطلوب. وبعد أن جمعنا عمل الطلاب، والسجلات الرسمية، وفيلم المراقبة، ولقطات آلات التصوير (الكاميرات) الخفية، أخذنا هذه الأدلة كلها إلى مكتب النائب العام، الذي أصدر أمراً بإغلاق ذلك المحل.

محطات عدّة وحركة واحدة

عندما استعرض كلّ ما قامت به حملة (ليس للبيع)، وكيفية توسعها في سنوات قليلة، لا أكاد أصدّق أنها بدأت استجابة لنداء كرونام لبناء مأوى للأطفال المشردّين مــن ضحايا الاتجار بالبشر. إننــا نسعى إلى إقامة تحالف مع مناهضي العبودية في العالم كله. وسوف يظل هذا هدفنا دائماً. ونهدف ضمن هذا المسعى إلى التعاون مع الوكالات المحلية الوطنيــة لتنفيذ مشروعات تلبّي المعايير الآتية: أن تكون مبتكرة، وقابلة للتكرار، ومستدامة ماليّاً. وهذه الوكالات هي ما يمثلنا على أرض الواقع. وهي تذكّرنا بهذه الحقيقة في كل مرة يحررون فيها طفلاً أو طفلة من أحد بيوت الدعارة، أو ينقذون امرأة في إحدى نقاط العبور، وهذا ما يشجعنا على مواصلة المسيرة.

ومع كل هذا، فإن مشروعاتنا العالمية ليست إلا واحدة من محطات عدّة. وفيما يلي ملخص سريع للمبادرات الرئيسة الأخرى:

خارطة العبودية

في خضم حماسنا لكشف المستور، وللرد على مقولة (ربما تحدث العبودية هناك، ولكن ليس في المكان الذي أعيش فيه) صممنا عرضاً مرئيّاً للأمكنة التي تمارس فيها العبودية بالضبط، ووفّرناه للباحثين لمساعدتنا على ملئه بالمعلومات. وكانت النتيجة أننا أنشأنا موقعاً على (الإنترنت) بعنوان خارطة العبودية (www.slaverymap.org) واستطعنا في مدة وجيزة أن نحدد على هذه الخارطة أكثر من خمسة عشر ألف حالة عبودية، ولا يزال العدد آخذاً في الارتفاع. وتسمح هذه الأداة لأي شخص بإضافة الحالات الموثقة التي تسمح لمسؤولي تنفيذ القانون، والأكاديميين، والسياسيين، والمواطنين العاديين بالاقتناع بأنَّ العبودية تُمارس بين ظهرانيهم، في مناطقهم ومجتمعاتهم المحلية.

وتساعدنا خارطة العبودية على معرفة أكثر أنماط العبودية انتشاراً في منطقة ما، والبلد الأصلي للضحايا. وتزودنا أيضاً بمصدر للمعلومات عن عدد الضحايا، وعدد تجار الرقيق، ودور جهات تنفيذ القانون، وأحكام القضايا المنظورة، والتوجهات في مختلف الولايات والمقاطعات الأمريكية. وتبيّن الخارطة حاليّاً معظم حالات العبودية المكتشفة داخل الولايات المتحدة. وسوف تتضح الخارطة أكثر مع استمرار تدفّق المعلومات عن العبودية في العالم. ومن شأن المعلومات الدقيقة أن تساعدنا على إعطاء الأرقام الصحيحة عن حالات العبودية في مكان ما، وليس مجرد تقديرها. إضافة إلى أن قوى الضغط والتأثير سوف تستفيد من هذه البيانات لإقناع المسؤولين المحليين بإعطاء الأولوية لمحاربة الاتجار بالبشر.

حرية العمل

وأطلقنا موقع حرية العمل www.Free2work.org على (الإنترنت) عام 2009: لتمكين المستهلكين من حرية الحصول على المعلومات التي يحتاجون إليها في اتخاذ قرارات شراء أخلاقية مبنية على أحدث المعلومات. وقد وضعنا، بالتعاون مع منتدى

حقـوق العمل العالمـي، نظام تقدير متطوراً، يصنّف الشـركات استناداً إلى طريقة استخدامهـا العمالة في إنتاج المواد الأوليـة وتصنيعها. وهدفنا في ذلك هو تسليح (المستهلكين الأذكياء) بالأدوات التي يحتاجون إليها جميعها.

إننا نهدف أساساً إلـى مساندة الشركات التي لا تتعامل بالعمالة القسرية في عمليـات التملك والإنتاج والتوزيـع. زِدْ على ذلك سعينا إلـى تنظيم حلقات تدريبية لقيـادات مئات الشركات في القطاع الخاص علـى المستوى العالمي؛ لأن وجود، ولو مؤيد واحد لإلغاء الرق داخل شركة ما، يمكن أن يحدث تغييراً كبيراً.

ويمكن أن نلمس ذلك من حالة ويفيد آركليز مدير إدارة العلاقات مع الحكومات والشـركات في شركـة مان باور إنترناشيونال، وهي أكبـر شركة توظيف في العالم. ففي يناير عام 2006، سألته سوزان مبارك، زوجة الرئيس المصري السابق حسني مبارك، عن موقفه وموقف شركته من الاتجار بالبشر. في ذلك الوقت، لم تكن لديه أدنـى فكرة عمّا سألته عنه. وعندما بدأ التحقيق عن مـدى انتشار الاتجار بالبشر، أصيـب بصدمة شديدة. بداية، قـرّر أن يكتشف كيفية تأكد مكتب شركته في جنوب أوروبا، مثلاً، من عدم استخدام العامل في أعمال السخرة. وقد فوجئ عندما علم أن المكتب لا يتثبت من ماضي الفرد المتقدم للعمل، ولا يتأكد أنه قد يُجبر على القيام بعمل ما ضد رغبته أيضاً.

بعـد هـذا الاكتشاف، أقنع ديفيـد شركته بأن تعلن عـدم تسامحها مع حالات العبوديـة في العالم تحت أي ظـرف كان. وطلبت إلى مكاتبها في العالم التحقق من عـدم وجود حـالات عمل قسري أو اتجار بالبشر. وقـد أصبحت هذه الشركة شريكاً إستراتيجيّاً في حملة (ليس للبيع).

ومـع أن بعض نشطاء العمل الاجتماعي قد يستهينون بأثر توقيع شركة ما على إعلان خطة عمـل، فإن التوقيع ينطوي على هدف إستراتيجي؛ لأن الرقابة اللاحقة يمكن أن تساعد على تحديد وجود ممارسة للعبودية في السلسلة الإنتاجية لأي شركة.

وعندما تتعهد الشركـة بالتزامها بمعيار سلوكي، يصبح الالتزام بمعالجة المخالفة أكثر قوة وتصميماً.

أكاديمية حملة (ليس للبيع)

لابدّ لأي حركة اجتماعية وليدة من الاستناد إلى البحث والتطوير؛ ولذلك أنشأنا أكاديمية (ليس للبيع)؛ لتقديم برامج تربوية لاكتساب الخبرة. وهدف أول هذه البرامج هو تدريب الباحثين على اكتشاف حالات الاتجار بالبشر في مناطقهم، ونشر النتائج على موقع خارطة العبودية.

كما نقدّم دورات في متابعة سلسلة الإنتاج، والمشروعات التجارية، والتحقيقات المعمّقـة بالتعاون مـع سلطات تنفيذ القانـون، إضافة إلى تدريب مـزوّدي الرعاية الصحية: لتشجيع الممارسات المناسبة في هذه المؤسسات التي تعمل مع الضحايا والناجين مباشرة.

عصبة العدالة

غالباً ما يمارس تجار الرقيق عملهم في الأمكنة غير المتوقعة: الأمكنة التي لا تملك سلطات تنفيذ القانون فيها الأعداد الكافية من الموظفين المتفرغين، أو الذين يتمتعـون بالتدريـب الكافي، أو لا تتوافر لها المصـادر المالية لتمكينها من ملاحقة حـالات العبودية والعمل القسري. ومع ذلك، يوجد فـي كثير من الولايات الأمريكية عدد كبير من الضباط، والعملاء الاتحاديين (الفيدراليين)، والمدعين العامين من ذوي الخبرة الذي يعملون معاً في ملاحقة جرائم الاتجار بالبشر ومحاكمة المتورطين فيها. وقد أنشأت حملة)ليس للبيع) شبكة عصبة العدالة: لتسهيل التعاون بين وكالات تنفيذ القانون والمحققين المحليين المُدرَّبين.

في غضون شهر واحد، أثبتت العصبة فاعليتها؛ ففي إبريل عام 2010، قام أحد خريجـي أكاديميـة حملة)ليس للبيع)، الذي يدير مكتبنا فـي جنوب إفريقية، بدور

رئيس في الحصول على دليل وتسليمه إلى الشرطة المحلية، ما أدى إلى مهاجمة أحد بيوت الدعارة وإغلاقه، بعد العثور على فتيات مراهقات من ضحايا هذه التجارة. وفي الأسبوع ذاته، تمكن محققون خاصون (لا علاقة لهم بالحملة) كانوا يتابعون قضية خيانة زوجية في الولايات المتحدة، من اكتشاف سلسلة تضم أحد عشر محلاً للتدليك في مدن عدة في ولاية كارولينا الشمالية. وقد اتصل المحققون بمقر حملة (ليس للبيع) في سان فرانسيسكو، وسلّموا الدليل الذي أوصلناه بدورنا إلى سلطات تنفيذ القانون. وأخيراً، علمنا في الشهر المذكور أن أحد خريجي الأكاديمية، الذي يعيش بالقرب من مدينة أدمونتون، عاصمة مقاطعة ألبيرتا الكندية، زوّد الشرطة الكندية بمعلومات أدّت إلى اعتقال ثلاثة من تجار الرقيق، كانوا يحتجزون ثلاث نساء صينيات رغماً عنهن، ويجبرونهن على ممارسة الفاحشة المأجورة.

لقد جرت عمليات الاعتقال هذه نتيجة التعاون الوثيق بين المحققين المدنيين المدّربين الذين يزودون الجهات القانونية المختصة بأدلّة موثّقة. ويمكن القول: إن عصبة العدالة أثبتت أنها شبكة ذات فعالية عالية؛ لأنها تضم العملاء الاتحاديين (الفيدراليين)، ومباحث الشرطة المحلية، والمحققين في غسيل الأموال، وخبراء الضريبة، والمدّعين العامين، والمحققين المدنيين المصممين على تقديم المجرمين إلى العدالة لنيل قصاصهم.

متجر الحرية

بدأ متجر الحرية ذراعاً لحملة (ليس للبيع) من أجل التسويق بوساطة الإنترنت. وهو يبيع منتجات مشروعات الحملة العالمية، أو منتجات المنظمات الشريكة. وفي أواخر عام 2008، سمحت الحملة للأفراد بإنشاء مراكز أو شركات مرخّصة باسم متجر الحرية. ومع أن هذا المتجر يعدُّ أداة فاعلة في حدّ ذاته، فإنّ برامج المراكز تساعد على إيجاد مزيد من المواقع لبيع منتجات الحملة. وفي مايو عام 2010، افتتحت الحملة مخزناً للتجارة التقليدية في كاليفورنيا، لعرض المنتجات على المشترين بدلاً من عرض صورها عبر موقع التجارة الإلكترونية.

يسعى متجر الحرية إلى تحقيق أربعة أهداف رئيسة، هي: 1 - إيجاد وظائف/ دخل للناجين والفئات السكانية الفقيرة. 2 - إيجاد مركز بيع وتوزيع دائم من أجل تحقيق الهدف الأول. 3 - توفير حلول ومصادر ملموسة تمكّن الحملة من إشراك الآخرين في محاربة العبودية المعاصرة بطرق إبداعية. 4 - توفير وسيلة للموزعين للحصول على دخل من أجل تمويل جهودهم المحلية في محاربة العبودية.

ونحن نؤمن أنه إذا ما دعمت المجموعات النسوية في كلّ نقابة مهنية، وتجمع ديني، وشبكة تمويل جهود محاربة الرق، فإن بإمكان هذه المجموعات وحدها أن تثير حركة عالمية تستطيع القضاء على العبودية في العالم.

وفي الحقيقة أن ما سبق مجرد اقتراح إستراتيجي، وليس اقتراحاً معياريّاً؛ فمسؤولية النساء في محاربة العبودية ليست أكبر من مسؤولية الرجال، ولكني أعتقد أن باستطاعة النساء أن يكن لهن دور في دفع مناهضة الرق إلى الأمام. وقد التقطتْ هذه الفكرة إحدى الوزيرات في حكومة كوريا الجنوبية، التي أطلقت حملة وطنية طلبت فيها إلى الشركات كلها التي تديرها نساء في بلادها توظيف شخص واحد في الأقل من العبيد المحررين. ولك أن تتصور مدى تأثير هذه الفكرة لو أنها طُبّقت في الولايات المتحدة وأوروبا.

وفي المثل، يمكن للنساء إعطاء دفعة قوية للمشروعات الصغيرة في العالم إذا ما اشترين منتجاتها. فنحن، مثلاً، نبيع جواهر مركز (نايت لايت) الذي أنشأته آني ديزلبيرج، في متجر الحرية؛ لأننا ندرك أن أي قطعة تُباع تساعد على الاستقرار الاقتصادي للنساء في بانكوك، واللواتي لا يرغبن في العودة إلى بيع أجسادهن في أسواق البغاء.

يوم التأييد العالمي

هذه المناسبةُ نشاطٌ تنظمه شخصيات رئيسة في الحملة في دول العالم المختلفة؛ حيث يتجمع مئات من النشطاء مرة في السنة في عواصم بلدانهم دعماً للتشريعات التي تشدد العقوبة ضد تجار الرقيق، وتحمي الضعفاء منهم، وتحفظ حقوق الضحايا.

المنتدى العالمي

تجمع الحملة القيادات المؤثّرة من الطبقات الاجتماعية جميعها والقاعدة الشعبية للحملة مرة في العام. وقد أصبح هذا المنتدى العالمي يحظى باهتمام نشطاء محاربة العبودية جميعهم في العالم، وهو تجمع للخبرة من أجل وضع حلول إبداعية للمعضلات الشائكة. وكثيراً ما يتبنى المنتدى مقترحات لِسَنِّ تشريعات، وإطلاق مشروعات جديدة، وعقد تحالفات بين القطاعين: العام والخاص.

لا وقت للانتظار

إذا رغبت في الانضمام إلى حركة مناهضة الرق، فابدأ من الآن، ولا تتعلل بأعذار واهية، مثل: (بعد أن أتخرّج)، (بعد أن أتقاعد)، (عندما يتوافر لي الوقت)، وغيرها. وهناك طرق كثيرة للمشاركة، وتسخير مواهبك وقدراتك وحماسك في خدمة حملة (ليس للبيع) - تماماً مثلما يفعل طلابي.

يمكنك البدء بزيارة موقعنا على الإنترنت www.NotForSaleCompaign.org، واختيار الوصف الذي ينطبق عليك: طالب، رياضي، أستاذ، فنان. وسوف تجد هنا أفكاراً عملية لاتخاذ قرار، مثل:

- حاول الوصول إلى قائد محلي من خارطة المدير الإقليمي على موقع الحملة على الإنترنت، حيث يمكنه إرشادك إلى كيفية المشاركة في الفعاليات والأنشطة. يعمل مع الحملة أربعون مديراً إقليمياً عبر الولايات المتحدة، وكندا، ومراكز الحملة المنتشرة في القارات جميعها.
- استخدم أداة Free2Work لتحديد خيارات الشراء، أو كن عمليّاً من خلال إنشاء فرع لمتجر الحرية، تستطيع من خلاله زيادة الطلب على المنتجات، وتحسين دخل المنتجين، الذين هم في الأغلب عبيد سابقون.

- نظّم مباريات/تدريبات رياضية، مثل الجري والسباحة والرماية، وتسجيل أهداف تشارك فيها فرق رياضية. سوف يساعد ريع هذه الأنشطة على بناء منشآت ترفيهية للأطفال المُحرَّرين من العبودية.
- شارك في أيام برنامج التأييد في عاصمة بلدك. وإن افتقد بلدك إلى هذا البرنامج، فبادر بإنشائه الآن.
- اعرض أفلاماً عن العبودية المعاصرة، ومنها أفلام وثائقية من إعداد حملة (ليس للبيع)؛ لتعريف الناس بتجارة الرق الحديثة والاتجار بالبشر، وبالدور الذي يستطيع كلّ منا أن يقوم به في القضاء على هذه التجارة. كن مبدعاً، واجمع عدداً من الأصدقاء، والمعارف، والزملاء، وأفراد العائلة لتعرض عليهم هذه الأفلام في المكتبة العامة، أو المراكز الثقافية، أو قاعة البلدية.
- إذا كنت مستعداً للانخراط أكثر في الحملة، فبإمكانك الالتحاق بأكاديمية إنهاء الرق وتحسين مهاراتك، أو التقدّم بطلب الالتحاق ببرنامج الزمالة.

دموع المظلومين

في عالمنا اليوم أكثر من ثلاثين مليون إنسان يعيشون عيشة العبيد. والحقيقة أن القوة الآن بيد الظالمين، ولكن عدد المناهضين للعبودية آخذ بالزيادة. هؤلاء هم الذين سيمسحون دموع المُضطَهدين ويحاكمون الظالمين. ها قد جاء دورك للانضمام إلى القافلة. نحن نحتاج إليك.

أنا لست للبيع

أنت لست للبيع

يجب ألاّ يكون الإنسان سلعة للبيع



ملاحظات

INTRODUCTION

1. U.S. Department of State Press conference, June, 2009.
2. In the first edition of this book, I indicated that 27 million slaves exist in the world today. That figure is widely cited and traces back to research done by Kevin Bales in *Disposable people. New slavery in the Global Economy* (Berkeley: Univ. of California Press, 2004). Siddarth Kara estimates a figure of 28.2 million for "contemporary slaves" in sex *Trafficking. Inside the Business of Modern – Day Slavery* (New York: Columbia Univ. Press, 2008). Precise numbers for slayes are hard to come by because the slave trade operates in the shadows. Consider that the Dalit population in India is estimated at more than 160 million, and human – rights advocates persuade me that nearly 20 percent of the Dalit population are victims of forced labor. My conversations with Nanci Ricks, cofounder of the Dalit Freedom, Network, have been particularly informative. See her book, To Love the Slumdog: My Journey Serving the "Untouchables" – the Dalit, self – Published, 2009; www.loveslumdog.com. In its 2010 report on child labor, the International Labour Organization (ILO) estimates that there are 215 million children at work around the glove today; of these, 115 million are trapped in the worst forms of labor, such as the sex trade, military service, heaby mining and manufacturing, and drug trafficking (*the international Labour Organization 2010 Report on Child Labor*, Geneva, 2010). Based on mu global advocacy, I am convinced that well over 30 million people live in slavery around the glove, Nonetheless, though I carefully document statistics in this book, I hold no illusion of

their 100 percent accuracy. The anti – trafficking movement must set a priority on better data sourcing and investigation, In the conclusion of this book I explain how the Not For Sale Campaign makes that effort one of its priorities.

3. The "over one hundred thousand" figure comes from my own best – guess projection based on existing data and documentation by the Not For Sale Campaign. See also Richard J. Estes and Nile Alan Weiner, The *Commercial Exploitation of Children in the United States, Canada, and Mexico* (Philadelphia: Univ. of Pennsylvania School of Social Work, 2001), a three – year study funded in part by the U. S. Department of Justice.
4. George W. Bush, speech to the United Nations General Assembly (New York, September 23, 2003).
5. International Labour Organization, *The Cost of Coercion* (Geneva, Switzerland, May2009).
6. U.S. Department of State, 2009 *Trafficking in person Report* (Washington, D.C., 2010).
7. Miron Varouhakis, "Trafficked Women Are Victims," *Clobal Outlook* (Center for Research on Globalization), July 26, 2002.
8. Benita Ferrero – Waldner, speech at the conference Combatting Trafficking in Human Beings (Vienna, Austria, March 17, 2006).
9. United Nation, *Ten Million Children Exploited for Domestic Labor* (New York; June 14, 2004).
10. International Labour Organization, Combatting Child Labour in Cocoa Growing (Geneva, Switzerland, 2005).
11. kim Meston gave her testimony to Risa Medrick. I met with Meston and Medrick in Newton Center, Massachusetts, in September 2006.
12. U.S. Department of State, 2005, *Trafficking in Persons Report* (Washington, D. C,. 2006).
13. Bales, *Disposable People*, PP. 3– 4.
14. Sam Brownback, Press conference (U. S. Capitol, Washington, D. C., September 23, 2003)

Bales, *Disposable People.*

الفصل الأول

1. U.S. Department of State, 2009 *Trafficking in persons Report* (Washington, D. C., 2010, P. 279.
2. Alex Perry, "The Shame," *Time Asia*, February 2, 2002,http:// www.time.com /time/asia/features/slavery/cover.html
3. Deena Dudzer, "Child Sex boom in Thailand Fueled by Poverty," *MinnPost.com*, October 29, 2009, http://www.minnpost. com /global post/2009/110/29/12961/child_ sex_ boom_in _ Thailand_ Fueled_ by_ Poverty.
4. United Nations Development Program, *Human Development Report 2009– Cambodia* (New York, 2010,http://hdrstats.undp. org/en/countries /country fact _sheets/cty_fs_KHM.html.
5. Sirirat Pusurinkham, "Child Prostitution in Thailand,"*Witness*, December 19, 2001, P.5.
6. UN. Refugee Agency, "Burma: Conflict Children in Forced Labor," September 14, 2009, http://www.unhcr.org/refworld/ docid/4ab9c9df2.html.
7. "Children for Sale, "*MSNBC.com*, January9, 2005, http://www. msnbc.msn.com/id//4038249.
8. Mikel Flamm, "Trafficking of Women and Children in South East Asia," *UN Chronicle*, no.2 (2003):1.
9. J. K. Reimer, *At What Price Honour? Research into Domestic Trafficking of Vietnamese (Girl) Children for Sexual Exploitation* (Phnom Penh: Chab Dai Coalition, 2006), p. 4.
10. Pusurinkham, "Child Prostitution in Thailand, p. 6.
11. Janejinda Pawadee (staff worker for the International Justice Mission, Chiang Mai, Thailand), in discussion with the author, June 17, 2006.
12. UNICEF, *State of the World's Children*, special ed. (New York, 2009), pp. 40 – 43.
13. International Labour Organization, *Give Girls a Chance: Tackling Child Labour, a Key to the Future* (Geneva, Switzerland, June 12, 2009).

14. International Labour Organization, *Give Girls a Chance*, p. 39.
15. International Labour Organization, *Give Girls a Chance*, p. 38.
16. Anne Gallagher, "Human Rights and Human Trafficking in Thailand: A Shadow TIP Report, "*in Trafficking and the Global Sex Industry*, ed. Karen Beeks and Delila Amib (Oxford: Lexington, 2006), p. 145.
17. U. S. Department of State, 2009 *Trafficking in Persons Report* (Washington, D. C., 2010), p. 280.
18. Dudzer, "Child Sex Boom,"p. 5.
19. Center for the protection of Children's Right, *Case Study Report on Commercial Exploitation of Children in Thailand* (Bangkok, November 2003), p.37.
20. World Vision, *Report on Sex Tourism* (Washington, D.C., May 2002).
21. Nicholas Kristof, "If This Isn't Slavery, What Is?" *New York Times,* January 4, 2009. P. WK8.
22. Andrew Parrin, "Special Report: Child Slavery," *Time Asia*, August 26, 2002, p.25.
23. "Unwanted Visitors," *Economist*, August 23, 2008, p. 36.
24. Bales, *Disposable People*, p. 45.

الفصل الثالث

1. World Vision Resources, http://www.worldvision.org/content,nsf /learn/globalissues–uganda/.
2. World Vision Resources, http://www.worldvision.org/content,nsf /learn/glovalissues–uganda/.Jan Egeland, interview on the BBC, November 10, 2003.
3. Jan Egeland, interview on the BBC, November 10, 2003.
4. Florence Lacor, Gulu, Uganda, May, 2006.
5. Grace Grall Akallo, "The Endangered Children of Northern Uganda"(testimony before the House Subcommittee on Africa, Global Human Rights, and International Relations, April 26, 2006).
6. Library of Congress, "A Country Study: Uganda," http: //hdl.loc. gov/loc.gdc/cntrystd.ug.

7. "Both Sides' Violate Uganda Truce," BBC News, October 15, 2006.
8. International Red Cross, "Uganda: Water and Sanitation Project Restores Hope in IDP Camp," http://www.icrc.org/web/eng/siteeng0.nsf/htmlall /uganda–feature– 280907.
9. World Vision , *Pawns of Politics: Children, Conflict and Peace in Northern Uganda* (Washington, D.C., 2005), p. 26.
10. Jeffrey Gettleman, "Uganda Peace Hinges on Amnesty for Brutality," *New York Times*, September 15, 2006, P. A6.
11. Akallo, "The Endangered Children."
12. The Lord's Resistance Army Disarmament and Northern Uganda Recovery Act is referred to in Congress as S. 1067.

الفصل الرابع

1. Donna M. Hughes, "The 'Natasha' Trade" The Transnational Shadow Trade of Trafficking in Women," *Journal of International Affairs* 53, no. 2 (Spring 2000): 8 – 15.
2. MiraMed Institute, *Preliminary Survey Report on Sexual Trafficking from the CIS Countries* (Moscow, June 1999).
3. Moldovan Intelligence and Security Agency, cited in United States Aid and International Development Agency, *USAID Anti – Trafficking Assessment: Critical Gaps in and Recommendations for Anti – Trafficking Activities* (Washington, D. C., 2002).
4. U. S. Department of State, 2003 Trafficking in Person Report (Washington, D. C., 2002).
5. International Organization for Migration Counter – Trafficking Center, *Changing Patterns and Trends of Trafficking in Persons, the Balkan Region* (Geneva, Switzerland, July 2004). See also Martti Lehti, *Trafficking in Women and Children in Europe*, European Institute for Crime Prevention and control, paper no. 18 (Helsinki, 2003).
6. Yedida Wolfe (executive director of Israel's Task Force on Human Trafficking), in discussion with Not For Sale Compaign staff, June 2008.

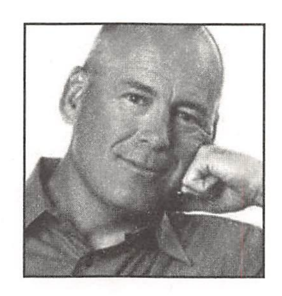
7. Anna Diamantopoulou, "Trafficking in Women: Prevention and protection"(speech, Second Conference on Women in Democracy, Vilnius, Lithuania, June 16, 2001).
8. Ekaterina Popova and Ivailo Anguelov, "Human Trafficking in Europe outweighs Drug Smuggling," *The Epoch Times*, April 14, 2009.
9. United Nations office on Drugs and Crime, *Trafficking in Person: Analysis on Europe* (Vienna, Austria, 2009).
10. Donna M. Hughes and Janice G. Raymond, *Sex Trafficking of Women in the United States: International and Domestic Trends* (New York: Coalition Against Trafficking in Women, March 2001).
11. Lehti, *Trafficking in Women and Children in Europe.*
12. Karin Alfredsson, *No to Prostitution and Trafficking* (Stockholm: Swedish In – Stitute, 2005).
13. Alfredsson *No to Prostitution and Trafficking.*
14. U. S. Department of State, Bureau of Democracy, Human Rights, and Labor, *Country Report on Human Rights Practices* (Washington, D. C., 2004 and 2005).
15. Department of State, *Country Report on Human Rights Practices.*
16. Regina Pacis, *Focus Moldova* (San Foca, Italy, 2005).

الفصل الخامس

1. Verushka Villavicencio et al., *The Client Goes Unnoticed* (Stockholm: Save the Children Sweden, 2004), p. 7.
2. Villavicencio, *The Client Goes Unnoticed*, p.40.
3. Nicholas Wood, "For Albanians, it's Come to This: A Son for a TV," *New York Times*, November 13, 2003, p. A3.
4. Villavicencio, *The client Goes Unnoticed*, p. 40.
5. "Juan Carlos" is a pseudonym for an actual television personality in peru who acted in the way described in this chapter.
6. Villavicencio, *The Client Goes Unnoticed*, p. 40.

الفصل السادس

1. Free the Slaves, Washington, D. C., and Human Rights Center, University of California, Berkeley, *Hidden Slaves: Forced Labor in the United States* (September 2004), http://hrc.berkeley,deu/hiddenslaves.html.
2. Ben Schmitt and Suzette Hackney, "Sex Ring Busted by Kidnapped Girl's Tip," *Detroit Free Press*, January 15, 2003; Suzette Hackney, "Abducted Teen's Mother Describes House of Horrors," *Detroit Free Press*, January 16, 2003; Suzette Hackney, "More Sex Ring Arrests Likely Today," February 4, 2003; Ben Schmitt, "More Charges in Sex Ring," *Detroit Free Press*, February 4, 2003; Suzette Hackney, "Man Sentences in Sex Ring Case," *Detroit Free Press*, September 16, 2003.
3. Robert Reich, Press release, U. S. Department of Labor, Office of Public Affairs (September 15, 1995).
4. U. S. Department of Justice, *Assessment of U. S. Government Efforts to Combat Human Trafficking* (Washington, D.C., 1996), p. 3.
5. Tina Frundt, statement made at a public hearing before the Subcommittee on Domestic and International Monetary Policy, Trade, and Technology, Committee on Financial Services, U. S. House of Representatives (Washington, D. C., April 29, 2005).



عن المؤلف

يعمل ديفيد باتستون David Batstone أستاذاً في جامعة سان فرانسيسكو، وهو مؤلف كتب عدة. في عام 2004، حاز أحدها على جائزة أفضل كتاب في الولايات المتحدة. ويعمل ديفيد مديراً مشاركاً في شركة رايت ريالتي، وهي شركة تستثمر في مشروعات ربحية يذهب ريعها لمصلحة البيئة وملايين الفقراء في العالم. إضافة إلى أنه شغل منصب رئيس التحرير التنفيذي لعدد من المجلات الاقتصادية المتخصصة. أيضاً، كان يكتب بانتظام في صحف نيويورك تايمز، وشيكاغو تربيون، ويو. إس. إيه

وهو أحد مؤسسي حملة (ليس للبيع) ورئيسها الحالي.

للانضمام إلى حركة مناهضة العبودية في العالم، يمكنك زيارة الموقع الإلكتروني

www.notforsalecompaign.org